
ستيفان زفايغ
عنف الدكتاتورية
ترجمة
فارس يواكيم
علي مولا

عنـف الـدكـتـاتـوريـــة

العنوان الأصلي للكتاب:

Catellio gegen Calvin
Oder
Ein Gewissen gegen die
Gewalt

كاستيليو ضد كالفن
أو
ضمير ضد العنف

ترجمه عن الألمانية: فارس يواكيم

الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN: 978-9953-417-57-8

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع
بناية رسامني - شارع الحمراء
ص. ب: ٦٤٣٥ / ١١٣ بيروت - لبنان
هاتف: ٧٥٠٠٥٤ - ١ - ٠٠٩٦١
فاكس: ٧٥٠٠٥٣ - ١ - ٠٠٩٦١
البريد الالكتروني: alfurat@alfurat.com

«This book received the subsidy for translation from the Austrian Ministry of Education, Art and Culture»

تلقى هذا الكتاب دعما للترجمة من وزارة التعليم والفنون والثقافة النمسوية.

© الحقوق محفوظة للمترجم

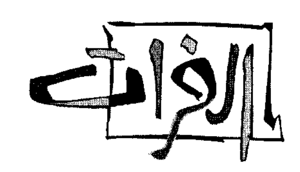
صورة الغلاف: لوحة «الصرخة» للفنان النرويجي إدوارد مونش

ستيفان زفايغ

عنف الدكتاتورية

ترجمة

فارس يواكيم



هذا الكتاب

اشتهر الكاتب النمسوي ستيفان زفايغ (مواليد فيينا في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٨١) أكثر ما اشتهر كروائي. (واسمه بحسب النطق الألماني شتيفان تسفايغ). كان شاعرا وكاتب قصة قصيرة ومؤلفا مسرحيا وكاتب سير ومترجما. لكن إبداعه الروائي هو الذي انتشر في العالم عبر الترجمات إلى لغات مختلفة، ومنها العربية وقد تُرجم إليها العديد من رواياته، وتضاعف رواجها بعد اقتباس معظمها في الأفلام السينمائية العالمية والعربية أيضا، ومنها «رسالة من سيدة مجهولة». ينتمي أدبه إلى النيو- رومانتيكية، وكان مذهبا رائجا في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

وفي مسرحية «إرميا» التي مثلت في زيوريخ لأول مرة عام ١٩١٨ نتلمس موقفه السياسي الواضح، وبه إدانة حاسمة للحرب ودعوة قوية للسلام والحرية: «يمكن للمرء أن يقتل البشر، لكن ليس الله الساكن في وجدانهم. ويمكن للمرء أن يسخّر شعبا، لكن ليس ضميره». وكان ستيفان زفايغ شارك كمجند في الحرب العالمية الأولى وعرف أهوال الحروب ونتائجها اللاحقة.

في عام ١٩٣٣ وصل النازيون إلى السلطة بانتخاب ديمقراطي، لكنهم ما لبثوا أن حوّلوا ألمانيا إلى دكتاتورية، تنافس الستالينية في عنفها وبشاعتها. وأدرك زفايغ الخطر وأراد أن يطلق صرخة التحذير. لكنه يعرف تماما أن الدكتاتورية لا تطيق الصرخات ولا تحبّذ سوى هتافات التأييد. بل هي لا تتساهل حتى مع الصرخة الأولى، وتظهر ردة الفعل في كمّ الأفواه، يليها إستئصال الأفواه وأصحابها.

علي مولا زاد المعرفة

لذلك لجأ إلى التاريخ، وألبس رأيه ثوبا من الماضي البعيد، وترك للقراء أمر استكشاف التشابه الكبير بين دكتاتورية الأمس وطغيان اليوم.

عام ١٩٣٦ نشر ستيفان زفايغ كتابه وكان بعنوان «كاستيليو ضد كالفن، أو ضمير ضد العنف». واختار له حقبة زمنية ترجع أربعة قرون إلى الوراء. الشخصية الرئيسية: جان كالفن أحد أعمدة البروتستانتية. من حيث الأسلوب، صاغ الوقائع التاريخية بسرد مشوّق، وكان قد تمرّس في كتابة السير الذاتية بعرض أقرب إلى فن الرواية، وهو صاحب باع في هذا المجال. ومن حيث المضمون، وضع الحاضر الخاضع للدكتاتورية على خشبة مسرح التاريخ في مرحلة دكتاتورية مشابهة.

جاء جان كالفن إلى جنيف من فرنسا هربا من محاكم التفتيش الكاثوليكية، هو المنضم حديثا إلى المذهب البروتستانتي. وبدأ حياته المهنية قسيسا في كاتدرائية سان بيار في جنيف، وما لبث خلال فترة زمنية قصيرة أن أمسك بزمام الأمور، وأن أضحى الحاكم الأوحد محولا المجتمع الديمقراطي إلى دكتاتورية لا رأي فيها سوى رأيه، وكل الأصوات أصداء لصوته، والويل لمن يعترض. وكان كاستيليو في البداية من أنصار كالفن. لكنه لم يتحمل الطغيان وقمع الحريات والزيف الكبير، إذ تحوّل دعاة الإصلاح إلى جلادين يتعاملون مع المعترضين بالعنف، ويذيقونهم أشد أنواع العذاب من السجن إلى الحرمان من الحقوق المدنية، بلوغا إلى الإعدام ومنه الإعدام حرقا.

عندما أمر كالفن بإحراق المعترض ميغيل سيرفيت وأشعلت النيران في جسده وهو على قيد الحياة، تمزق كاستيليو غيظا وبدأت المعركة بينه وبين كالفن. ولم تكن مجرد معركة بين شخصيتين، بل بين تيارين ومنهجين: بين القمع والحرية، بين العنف والحوار، بين التعصب والتسامح، بين الدكتاتورية والديمقراطية. وفي النهاية انتصرت الدكتاتورية، لأن المعارض الفرد لا يقوى على دحرها وحده، حتى لو كان منطقه من الذهب. وهذه معاناة ستيفان زفايغ أيضا. إذ بعد نشر

كتابه بسنتين، أدرك أن الدكتاتورية آخذة في تصفية الخصوم، وأن جيوشا من المنافقين الانتهازيين يؤيدونها، فما كان منه إلا أن هاجر عام ١٩٣٨ إلى لندن، ثم عام ١٩٤٠ إلى البرازيل. كانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت، فدبّ اليأس في نفس زفايغ وانتهى به الأمر الى الانتحار، هو وزوجته، في بتروبوليس على مقربة من ريو دو جانيرو يوم ٢٢ شباط/فبراير ١٩٤٢.

حين قرأ الأديب الألماني الكبير توماس مان كتاب ستيفان زفايغ لدى صدوره كتب له في ٣٠ أيار/مايو ١٩٣٦ الرسالة التالية:

«عزيزي السيد ستيفان زفايغ المحترم

منذ زمن بعيد لم أقرأ كتابا بمثل الحماسة والانجذاب إلى كتابك عن كاستيليو، وبمثل الإعجاب بمضمونه وأسلوبه. كتاب ممتع ومؤثر للغاية، يجمع عبر مادة تاريخية كل ما يدعو إلى التقزز والتعاطف في عصرنا. إنه الانبساط والانقباض في آن معا. ومن ذلك نستخلص العبرة: دائما يتكرر الشيء ذاته. ما كنت أعرف شيئا عن كاستيليو، بيد أني سعدت حقا بمعرفته وعقدت معه صداقة رجعت بي إلى القرون الغابرة. أشكرك على هذا الكتاب. مع أطيب التحيات القلبية».

وأستخلصُ من رسالة توماس مان العبرة ذاتها: «دائما يتكرر الشيء ذاته». كأنما لتصدق مقولة «التاريخ يعيد نفسه». الدكتاتورية هي الدكتاتورية، في كل زمان ومكان. في الأمس كما في اليوم وكذلك ستكون غدا.

فارس يواكيم



«لن يكون بوسع التاريخ أن يدرك، أننا سوف نضطر إلى العيش مجددا في هذه الظلمات، بعدما كانت الأنوار قد سطعت ذات مرة».

كاستيليو «فن الشك»
١٥٦٢

(عند الكلام عن البروتستانتية يمكن أن يذكرها المؤلف بهذه التسمية، وهو يذكرها أحيانا بلقب «الإنجيلية» أو كنيسة «الإصلاح». وهي ثلاثة مسميات لمفهوم واحد).



المقدمة

الذي يغدو عنيدا في شجاعته،
الذي – رغم تباشير الموت الداني – لايفقد ذرة من ثقته بنفسه،
الذي – وهو يسلم الروح – يحدق في عدوّه
بنظرات حازمة ومزدرية،
تراه متعبا
ليس متا، لكن من القدر،
إنه مقتول، لكن ليس منهزما:
أحيانا ترى أكثرهم شجاعة هو أكثرهم تعاسة.
وأيضا، ثمة خسارات ظافرة تنافس الانتصارات...
مونتانْي

«البرغشة ضد الفيل» هذه العبارة التي دونها كاستيليو بخط يده في نسخة طبعة بازل من كتاب نضاله ضد كالفن، تبدو في البدء غريبة، بل وتجعلنا أقرب إلى الاعتقاد بأنها من المبالغات التي اعتاد عليها العلماء. لكن كلمات كاستيليو لم تحمل في مضمونها مبالغة أو تهكما. إذ أن ذلك الرجل الشجاع أراد بمقارنة قاطعة أن يوضح لصديقه أمرباخ[1] كيف كان الأمر بالنسبة إليه في غاية الوضوح والمأسوية، وأي خصم هائل قد تحدى عندما اتهم كالفن علانية أنه بمكابرة

(١) Amerbach.

متعصبة قتل إنسانا، وبالتالي اغتال حرية الضمير في حركة الإصلاح. وهو كان يدرك تماما منذ الساعات الأولى حين استلّ ريشته كرمح وخاض بها النزاع الخطير، كيف يغدو أعزل أي قتال عقلاني صرف ضد سلطة الدكتاتور العنيفة والمدججة بالسلاح، وبالتالي يضعف الأمل في سقوط الطاغية. إذ كيف يمكن لرجل بلا سلاح وبمفرده أن يقاتل كالفن ويهزمه، فيما وراءه يقف الآلاف، بل عشرات الآلاف، مضافا إليهم الآلة العسكرية المكوّنة لعنف الدولة. بفضل حرفية فائقة التنظيم نجح كالفن في تحويل مدينة بأسرها، بل ودولة بكاملها، بمواطنيها الذين كانوا من قبل أحرارا، إلى آلة ضخمة طوع يديه مهمتها أن تستأصل كل استقلالية وأن تصادر حرية التفكير لصالح عقيدة وحيدة، عقيدته. كل مصادر السلطة في المدينة والدولة خضع لسلطانه، الإدارات بكاملها والتراخيص كافة: مجلس المدينة، المجمع الديني، المحاكم والجامعة، الشؤون المالية والأخلاقية، القساوسة، المدارس، الشرطة، السجون، الكلمة المكتوبة والمحكية بل والمهموسة سرا. مذهب كالفن أصبح القانون. كلُّ منْ يجرؤ على إبداء أدنى اعتراض مصيره النفي أو عذاب السجن أو الحرق، وهي أحكام غير قابلة للنقاش كما في كل ديكتاتورية، ومن ثمّ تُستخلص العبرة أنه في جنيف ثمة حقيقة وحيدة مسموح بها وأن كالفن نبيّها. بل إن السلطة الرهيبة لذلك الرجل الرهيب تجاوزت أسوار المدينة إلى أبعد، فالمدن السويسرية الاتحادية رأت فيه أهم حليف سياسي، والبروتستانتية العالمية اختارت ذلك اللاهوتي المشرّع الفذ قائدا روحيا لها، والملوك والأمراء تسابقوا على كسب حظوة ذلك القائد الديني الذي بنى أقوى تنظيم للمسيحية في أوروبا إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية. لم يعد أي حدث سياسي معاصر يجري من دون علمه أو ضد إرادته. وبهذا أصبح الهجوم على خطيب كاتدرائية سان بيار في جنيف، بالخطورة ذاتها تقريبا التي يشكلها التهجم على القيصر أو البابا.

ومن تراه يكون خصمه، سباستيان كاستيليو، ذلك المثالي المفرد الذي باسم حرية الفكر الإنساني أدان ذلك الطغيان وكل طغيان فكري مشابه؟ إنه حقا - بالمقارنة بالقدرة الهائلة لدى كالفن - البرغشة ضد الفيل! إنه، انطلاقا من حيث التأثير العام، نكرة، صفر، شخص لا وجود له. وأضف إلى ذلك، إنه مثقف فقير مدقع، يستطيع بمشقة تامة أن يطعم زوجته وأولاده عبر ترجمات يقوم بها ودروس خصوصية في المنازل. إنه لاجيء يعيش في أرض غريبة من دون إذن إقامة أو حق مواطنة، ووطأة الهجرة عليه مضاعفة. دائما في عصور التعصب العالمي يبقى الإنسان المحتفظ بإنسانيته عاجزا ومنعزلا تماما وسط الفقهاء المتحمسين المتشاجرين فيما بينهم. لسنوات طويلة قبع ذلك المفكر الإنساني المتواضع في ظل المُلاحقة وفي ظل الفقر وعاش حياة بائسة، في ضيق دائم، لكن في حرية دائمة أيضا، كونه لم يرتبط بحزب ولا تواطأ مع فكر متعصب. إلا أنه خرج من أشغاله السلمية تلك، إثر إعدام سيرفيت، ولبّى نداء ضميره الملحّ بقوة، واتهم كالفن باسم حقوق الإنسان المنتهكة. عندئذ بدأت العزلة المفروضة عليه بالنمو لتصبح بطولة. بيد أن كاستيليو، على النقيض من خصمه كالفن المعتاد على الحروب، ليس عنده أتباع في غاية الشراسة والتنظيم يؤيدونه ويدعمونه، ولا حزب، ولا تقدم له الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية أي دعم، ولا أحد من أصحاب المقامات الرفيعة، لا ملك ولا قيصر قدم له يد العون مثلما قدموا من قبل إلى لوثر أو إيرازموس. حتى الأصدقاء القليلين المعجبين به، لم يتجاسروا سوى على أن يهمسوا له بالتشجيع سرا. إذ كم يشكل الأمر خطرا، وعلى الحياة ذاتها، أن يقف المرء علانية إلى جانب رجل رفع صوته عاليا لصالح المحرومين والمضطهدين، في حين شاء جنون العصر آنذاك أن تلاحَق السلطة خصومها في كل البلدان كالطرائد وأن يساموا التعذيب بتهمة المروق. وعبر حادثة سيرفيت رفض في حينه وإلى الأبد

أن يكون للحكام في هذه الأرض الحق في ملاحقة أي إنسان في العالم بسبب عقيدته أو رأيه... رجل تجرأ، في واحدة من تلك اللحظات الظلامية المرعبة التي تعاني منها الشعوب من وقت لآخر، على أن يحتفظ برؤيته واضحة وإنسانية، وأن يسمي كل المذابح «الورعة» برغم الزعم أنها اقترفت من أجل مجد الله، بأسمائها الحقيقية: قتلٌ، قتلٌ، ومرة أخرى قتل!... رجل، استُفز في أعمق مشاعر إنسانيته، فما عاد يطيق الصمت ورفع صوته حتى السماء، وحده، معلنا قنوطه إزاء تفشي اللاإنسانية. وحده ناضل من أجل الجميع وضد الجميع الآخرين. ودائما كان على الذي يقف في وجه أصحاب السلطان الحاليين، أن يتوقع حفنة قليلة من الأنصار بالنظر إلى جُبْن البشرية الخالد... وهكذا، وجد كاستيليو نفسه في الساعات الحاسمة وحده من دون أحد يقف وراءه سوى ظله. ما عنده سوى تلك الملكية غير القابلة للبيع الخاصة بالمبدع المناضل: ضمير لا يلين يسكن روحا لا تهاب شيئا.

والحال أن كاستيليو كان تيقن منذ البداية من عدم نجاح كفاحه، إلا أنه مارسه مع ذلك مطيعا ضميره، ما كان كافيا ليمنح ذلك «الجندي المجهول» صيتا خالدا عبر الأزمنة كبطل الحرب الكبرى لتحرير الإنسانية. ولكون مثل هذه الإرادة الشجاعة ظلت معارضة متقدة وحيدة فريدة ضد الإرهاب العالمي، ينبغي أن تبقى المعركة التي خاضها كاستيليو ضد كالفن خالدة في ذهن كل إنسان عاقل. بيد أن هذا الجدل التاريخي، بإشكالياته الداخلية، تجاوز بكثير ظروفه الراهنة. فالأمر هنا لا يتعلق بقضية لاهوتية ضيقة، ولا حتى بشخص يدعى سيرفيت، بل ولا حتى بالأزمة الحاسمة التي نشبت بين الليبراليين والمحافظين من البروتستانتيين: في ذلك الجدل الصارم طُرح على بساط البحث سؤال تجاوز المكان والزمان حول قضية تعنينا جميعا، ما لبث أن فتح صراعا، تنبغي مكافحته مجددا ودائما، ولو بمسميات جديدة وصيغ جديدة. لا تعني

اللاهوتية هنا إلا قناعا عـَرَضيا مؤقتا، وما كاستيليو وكالفن سوى الدليل الحسّي الرفيع المستوى على تناقض خفي، بيد أنه منيع في الوقت ذاته. أيا كان المصطلح الذي يود المرء أن يسمّي به قطبي هذا الصراع المستديم: التسامح ضد اللاتسامح، الحرية ضد الوصاية، الإنسانية ضد التعصب، الفردية ضد الآلية، فكل هذه التسميات تعبّر عن قرار شخصي للغاية وفردي بالتمام: أيهما الأهم بالنسبة إلى كل فرد: الإنساني أم السياسي، الأخلاقي أم المنطقي، الفردي أم الجماعي.

هذه الحدود الفاصلة الضرورية دائما بين الحرية والسلطة، لم يبقَ شعب ما، وزمان ما، ومفكرون ما في منأى عنها. ذلك أن الحرية غير ممكنة من دون السلطة (وإلا حلّت الفوضى) والسلطة غير ممكنة من دون الحرية (وإلا ساد الطغيان). مما لا شك فيه أن ميلا غامضا نحو الذوبان الذاتي في الجماعة يكمن في أساس الطبيعة البشرية. راسخة لا تمحى، تبقى تلك الأوهام العتيقة بشأن إمكانية العثور على نظام ديني أو قومي أو اجتماعي معين يهب البشر أجمعين السلام والنظام إلى الأبد وبالتساوي بينهم. وقد أثبت المفتش الكبير في رواية دوستويفسكي بجدلية صارمة أن معظم الناس يخشى، في الواقع، حريته الذاتية. وفي الحقيقة، بسبب الإعياء الناجم عن تنويعات المشكلة المُرهقة، وبالنظر إلى تعقيدات الحياة ومسؤولياتها، تتوق الغالبية الكبرى من البشر إلى برمجة العالم آليا من خلال نظام صالح لكل أوان، يعفيهم من إعمال الفكر. هذا النزوع المسياني (انتظار المنقذ) إلى حالة تنزع الإشكاليات من الوجود، يشكل الخميرة الحقيقية التي تمهد الطريق لكل الأنبياء الاجتماعيين والدينيين. ودائما حين تفقد مثاليات جيل ما وهجها وألوانها، ما إن ينهض رجل ذو موهبة في الإيحاء ويعلن بطريقة حاسمة أنه، وأنه وحده، وجد الصيغة الجديدة أو ابتكرها، حتى تتدفق عليه ثقة الآلاف كما التيار، بوصفه مخلص الشعب

ومخلص العالم. ومن القاعدة الثابتة أن كل ايديولوجيا جديدة – وهنا بلا شك يكمن معناها الميتافيزيقي – تخلق مثالية جديدة. ذلك أن الذي يهدي البشر وهما جديدا بالوحدة والطهارة، يبدأ في أن يستخلص منهم القوى الأكثر قداسة: الحماسة وروح التضحية. يبدو الملايين، كما لو أنهم مسحورون، راضخون للانجذاب، للاستثمار، للاغتصاب الفكري. وكلما ألزمهم ذلك الداعية ناثر الوعود بالواجبات تمادوا في الاستلاب. الحرية، التي كانت حتى الأمس أسمى معاني سعادتهم، يتخلون عنها اليوم بكامل الرضا ويستسلمون للانقياد دون أدنى مقاومة. أما شعار «تحطيم العبودية» الذي أطلقه تاسيت قديما، فهو يتمثل الآن في الحماسة التي تولدها نشوة التضامن مع المجموع التي تجعل الشعوب تخضع بمحض إرادتها للعبودية، بل وتمتدح السوط الذي يضربها.

والآن قد يكون هناك ثمة تطلع في ذهن كل إنسان مفكر، يجعله يتصور مراراً وجود فكرة ما، أن تلك القوة الأكثر لامادية في الكون، هي التي تنجز مثل معجزة الإيحاء المستحيلة هذه في عالمنا الهرِم الصارم الخاضع للتقنيات - وما أسهل أن يقع المرء ضحية للإغراء– فما يلبث أن يُعجب بغواة العالم ويمجدهم، لأنهم ينجحون دائماً بفضل الروح في أن يحدثوا تغييراً في المادة الصماء. لكن الطامة الكبرى تأتي لاحقا، حين ينفضح أمر أولئك المثاليين والطوباويين فورا بعد انتصارهم، إذ غالبا ما يبدون أسوأ خونة الروح. ذلك أن النصر يقود إلى استغلال النصر والسلطة تقود إلى السلطة المطلقة، وبدلا من أن يقنع أصحابها بما ربحوا من انضمام الأعداد الغفيرة من الناس إليهم، أولئك الذين يحركهم هوسهم الذاتي والمستعدون بغبطة أن يعيشوا من أجل هذه السلطة بل وأن يموتوا من أجلها، ينقاد السلطويون إلى إغراء تحويل الأغلبية إلى الإجماع التام وإلى محاولة فرض عقيدتهم على الذين لا ينتمون إلى أيّ من الأحزاب. لا يكتفون بما لديهم من أزلام وممالقين وصنائع ومن التابعين

الأبديين لأي سلطة، بل يريدون أيضا أن يتحول الأحرار، العقول النادرة المستقلة، إلى أتباع ومدّاحين. ودعما لعقيدتهم الوحيدة المعترف بها، وسَموا كلّ صاحب رأي معارض بأنه مجرم في حق الدولة. وفي مختلف الأزمنة استعيدت دائما تلك اللعنة المصاحبة لكل الإيديولوجيات الدينية والسياسية إذ تغرق في الطغيان فورما تبدأ في تطبيق الدكتاتورية. وعندما يفقد الإنسان الثقة في القوة الكامنة الملازمة لحقيقته ويلجأ إلى العنف الوحشي، فهو بذلك يعلن الحرب ضد الحرية الإنسانية. أيّا كانت الفكرة التي يطرحها، فمن اللحظة التي يتمّ فيها اللجوء إلى العنف بغية ضبط وتوحيد لون ذوي الآراء الأخرى، لا تعود الفكرة مثالية بل تغدو وحشية. حتى أنقى الحقائق وأطهرها، حين يتم فرضها بالعنف، تتحول إلى خطيئة ضد الذهن.

لكن الذهن عنصر غامض. كالهواء، لا يُرى ولا يمكن الإمساك به، يبدو طيّعا قابلا للتكيّف مع الأشكال والصيغ كافة. وهذا يغري دائما أصحاب الطبائع الاستبدادية فيجعلهم يتوهمون، أن المرء يمكن أن يضغط هذا الذهن ويحبسه ويعبأه طيّعا في قوارير. بيد أن كل ضغط يولد ضغطا مضادا حيويا، وبصفة خاصة، حين يُضغط المرء ويحبس، يتحول إلى مادة ناسفة متفجرة. كل ضغط يقود عاجلا أم آجلا إلى الثورة. وعلى المدى الطويل تبقى الاستقلالية الأخلاقية للإنسانية – وفي ذلك كامل العزاء – غير قابلة للتدمير. ولم يفلح أحد حتى الآن، في أن يجبر البشرية في عموم الأرض بطريقة دكتاتورية على تبني دين واحد أو فلسفة واحدة أو مفهوم كوني واحد. ولن يفلح غدا أيضا، إذ أن الذهن سيعرف دائما كيف يقاوم كل تبعية، وسيرفض دائما أن يفكر وفق صيغ مكتوبة سلفا، أو أن ينحط أو يُهان أو يُقزّم أو يُدجّن. وعليه، فكل جهد ينشد إخضاع تعددية الوجود، التي هي هبة الله، إلى قاسم مشترك موحد، هو مبتذل ومن دون جدوى. مثله مثل تقسيم البشر

إلى أسود أو أبيض، خيّر أو شرير، ورع أو مارق، مطيع للدولة أو معاد لها، على أساس مبدأ يفرضه منطق القوة. في كل العصور نجد نفوسا مستقلة تتمرد على مثل هذا الاغتصاب الممارس ضد الحرية الإنسانية. إنهم «المستنكفون ضميريا»[٢] الرافضون بحسم المشاركة في كل تسخير للضمير. ولا يمكن لأي عصر أيا كانت همجيته، ولا لطغيان أيا كانت منهجيته، إلا أن يجد أفرادا يعرفون كيف يتملصون من القمع الجماعي، وكيف يدافعون عن حق المرء في قناعة ذاتية تقف ضد العنيفين المهووسين بفكرة أحادية متسلطة، المستميتين في الدفاع عن حقيقة واحدة، حقيقتهم.

القرن السادس عشر أيضا، برغم أنه كان في أيديولوجيته العنيفة مساويا في التوتر لقرننا الحالي*، عرف هو الآخر نفوسا حرّة وغير فاسدة. عندما يقرأ المرء رسائل أهل المعرفة في تلك الحقبة، يشعر بنفسه متضامنا مع حزنهم العميق تجاه الاضطراب في العالم الناشيء عن العنف. وبتأثر يتعاطف مع تقززهم من الدوغماتيين وبلاغاتهم الغبية الأشبه بدعايات باعة السوق وهي تعلن «ما نعلّمه نحن هو الحق، وما لا نعلّمه هو الخطأ». آه، كم يمتعض الإنسان الرزين ذو الانفتاح الكوني من فظاعة اللاإنسانية الصادرة عن «محسّني الإنسانية» الذين اقتحموا عالمه المؤمن بالجمال، وأعلنوا تقليديتهم المحافظة العنيفة والزبد على شفاههم. أه كم يتقزز ذو الانفتاح الكوني إلى أعمق الأعماق من أمثال سافونارولا[٣] وكالفن وجون كنوكس[٤] ومن «لفّ لفهم» الذين يريدون اغتيال الجمال في الأرض وتحويل الكون إلى حلقة دراسية أخلاقية! وببعد نظر مأسوي

---

(٢) وضع تسفايغ المصطلح بالانكليزية conscientious objectors.

(٣) جيرولامو سافونارولا: راهب دومينيكاني وداعية. فيرارا ١٤٥٢، فلورنسا ١٤٩٨. طرح محاولة إصلاح ودعا إلى تطبيق الصرامة والتقشف والأخلاق الخاصة بالزهاد.

(٤) John Knox.

أدرك الحكماء والإنسانيون طرا ذاك الوبال الذي يريد المكابرون الحانقون تعميمه في أوروبا، خصوصا وقد سمعوا قرقعة السلاح خلف الكلمات المتعصبة، فحدثهم قلبهم أن من ذلك الحقد ستنبثق الحرب الآتية المرعبة. بيد أن الإنسانيين، حتى عندما يدركون الحقيقة، لا يتجاسرون على الكفاح من أجلها. كأنما قرر القدر دائما هكذا: العارفون ليسوا الفاعلين والفاعلون ليسوا العارفين. كل هؤلاء الإنسانيين المأسويين الحزانى تبادلوا الرسائل البليغة المؤثرة، وتذمروا وهم في مكاتبهم وراء الأبواب المغلقة، لكن لا أحد منهم تقدم خطوة نحو الخارج ليواجه المسيح الدجال! بين حين وآخر، تجرأ إيرازموس على أن يرمي بعض السهام من موقعه وهو في الظل، وأرفق رابليه لسعات السوط بالابتسامات المكفهرة وهو بثياب النديم، ومونتانيْ ذلك الفيلسوف النبيل الحكيم وجد الملاذ في مقالاته بكلمات بليغة، لكن لا أحد حاول أن يتدخل بجدية، ولو لمرة، لكي يحول دون تلك الملاحقات والإعدامات المقيتة. مع الحمقى لا ينبغي أن يتجادل الحكيم، هذا ما روّجه أصحاب الخبرة العالمية وقد قادتهم هذه الخبرة إلى التزام الحذر. وثمة أفضل: في مثل هذه الأزمنة ينبغي أن يتقهقر المرء إلى الظل، حتى لا يتعرض هو شخصيا إلى الاعتقال، وحتى لا يغدو هو الضحية.

أما كاستيليو – وهذا سبب مجده الخالد – فقد تقدم بحسم على كل هؤلاء الأساتذة، مغامرا بمصيره. وببطولة قال كلمته المدافعة عن الرفاق المضطهدين مخاطرا بحياته. ومن دون أدنى تعصب، برغم أنه مهدد طول الوقت من المتعصبين، وخلوّاً من الإنفعال، لكن بصمود تولستوياني لا يهن، جاهر بشهادته مرفرفة كما علَم فوق ذلك العصر الكئيب، مطالبا بألاّ يُجبر إنسان ما على عقيدة ما، وبألا ّ يكون لأيّ سلطة دنيوية في الكون الحقّ في أن تمارس العنف ضد ضمير أيّ إنسان. ولأن هذه الشهادة لم تصدر عن حزب، وإنما عن روح الإنسانية الخالدة، احتفظ مضمونها وبعض كلماتها بقيمته على مدى

العصور. الأفكار التي تمس الناس في كل مكان وزمان لا تفقد طابعها أبدا. ودائما تخلد شهادات الإيمان المرتبطة بالعالم فيما تزول النظريات المتمسكة بعقيدة واحدة عدوانية. لكن هذه الشجاعة التي لا نظير لها، والتي يضرب بها المثل، الصادرة عن ذلك الرجل المنسيّ، ينبغي أن تبقى – وفي المقام الأول بالمعنى الأخلاقي – مثالا لكل الأجيال التالية. ذلك أن كاستيليو جعل حياته رهينة الخطر بسبب قناعاته، إذ واجه فقهاء العالم حين أطلق على سيرفيت – الذي أعدمه كالفن – لقب الضحية البريئة، وحين رمى سفسطات كالفن العنيدة بعبارته الخالدة: «إن إحراق إنسان لا يعني إطلاقا الدفاع عن عقيدة، وإنما قتلُ إنسان»، وحين كتب في منشور التسامح (قبل لوك وهيوم وفولتير والعديد من أمثالهم بمدة طويلة) مطالبا بحقوق حرية الرأي. لا، لا يحاولن أحد مساواة معارضة كاستيليو ضد حكم الإعدام الذي أودى بحياة ميغيل سيرفيت، بالمعارضات الأشهر ألف مرة لفولتير في حادثة كالاس أو زولا في قضية دريفوس. لأن هذه لم تبلغ الرفعة الأخلاقية لتلك. ذلك أن فولتير حين ناضل من أجل كالاس، كان يعيش في عصر متسامح إنساني. أضف إلى ذلك، أن الأديب العالمي نَعِمَ بحماية الملوك والأمراء. والأمر ذاته بالنسبة إلى زولا الذي سانده، كجيش غير مرئي، إعجاب أوروبا بأسرها، بل والعالم بأسره، والتقدير الذي حظي به. وعلى قدر العون الذي قدّماه، قامر كلٌ منهما بسمعته وراحة باله من أجل مصير إنسان آخر، لكنهما – والفارق التالي يبقى حاسما – لم يقامرا بحياتيهما كما فعل سباستيان كاستيليو الذي، في نضاله من أجل الإنسانية، عانى الأمرّين من اللاإنسانية العنفية القاتلة التي ميّزت عصره.

سباستيان كاستيليو دفع ثمن بطولته الأخلاقية كاملا وإلى أقصى حدود طاقته. وإنه لأمر محزن، كيف خنق العنف الوحشي ذلك المنادي بمحو العنف

الذي لم يشأ أبدا أن يستخدم أي سلاح سوى العقل. آه كم سيفطن الناس دائما وأبدا، كيف أن كل نضال سيبقى بلا أمل حين يخوضه إنسان بمفرده ضد تنظيم متماسك متين، من دون سلطة تدعمه سوى الحق الأخلاقي. وإذا نجحت عقيدة ما مرة في أن تستولي على آلة الدولة ووسائل الضغط التابعة لها، فهي تطلق الإرهاب من دون تردد، وتخنق الكلمة في حلق كل من حاول أن يمس سلطتها المطلقة، إن لم تخنق حلقه ذاته. كالفن لم يرد أبدا بشكل جدي على كاستيليو، بل آثر أن يُخرسه. كتبه مزقت، أحرقت، منعت، صودرت. وبابتزاز سياسي على المقاطعات المجاورة مُنع كاستيليو من الكتابة. وحين أصبح عاجزا عن الكتابة والتوضيح، انقضّ زبانية كالفن عليه بحملات القذف. وما لبث الصراع أن انعدم، وحلت محله التصفية الفكرية الحقيرة ضد أعزل أوحد. ولم يعد كاستيليو قادرا على الكلام ولا على الكتابة، وبقيت مؤلفاته خرساء حبيسة الخزائن، بينما امتلك كالفن منبر الكنيسة، المطابع ووسائل النشر، المدارس، المجمع الديني، وكل آلة العنف التابعة للدولة وقد استخدمها من دون تحفظ. كل خطوة قام بها كاستيليو خضعت للرقابة، كل كلمة تفوه بها تمّ التنصت عليها، ورسائله اعترضت قبل أن تصل إليه. فهل من عجب أن مثل هذا التنظيم المتعدد الوسائل والقوى قد انتصر على الرجل الأعزل؟. وحده الموت المبكر، أنقذ كاستيليو من النفي أو الحرق. بل إن الحقد المسعور لدى الدوغماتيين الظافرين لم يتوقف حتى عند جثمان الراحل. حتى وهو في قبره رموه بالتشنيعات والافتراءات كالكلس الهاري وغطوا اسمه بالرماد كي يُمحى أثره، وفي رأيهم أن ذكرى هذا الرجل الذي ناضل ليس ضد دكتاتورية كالفن فحسب، وإنما عموما ضد مبدأ كل دكتاتورية، يجب أن تُفقَد وتُنْسى عبر العصور.

تقريبا، تسنّى لهم ما أرادوا، إذ نجحت ذروة العنف ضد خصم العنف.

ولم يكتفِ القمع المنهجي بخنق التأثير الذي أحدثه في عصره ذلك الإنساني الكبير، بل خنق شهرته وذكراه أيضا لسنين عديدة. حتى في يومنا هذا، لا يجب أن يخجل مثقف ما، من كونه لم يقرأ اسم سباستيان كاستيليو أو لم يسمع به. إذ كيف يمكن للمرء أن يعرفه وقد حالت الرقابة دون طبع أعماله الرئيسية لعشرات ومئات السنين؟ ما من مطبعة في محيط سلطة كالفن تجرأت على نشرها. وحين صدرت بعد وفاته بفترة زمنية بعيدة، كان الوقت قد أصبح متأخرا لإعطائه حقه من المجد. في الأثناء أخذ آخرون أفكار كاستيليو، وباسماء مؤلفين آخرين استمر النضال الذي كان رائده قد سقط مبكرا ومن دون أن يشعر به أحد تقريبا. كأنما قدرٌ على البعض أن يعيش في الظل وأن يموت في العتمة. الذين أتوا بعده ورثوا مجد كاستيليو. وحتى اليوم يمكن أن يقرأ المرء ذلك الخطأ في الكتب المدرسية، كأنما هيوم ولوكه أول من أشاع فكرة التسامح في أوروبا، كأنما «مقالة في الهرطقة» لكاستيليو لم تكتب ولم تنشر. نُسيت إنجازاته الأخلاقية، نسي النضال من أجل سيرفيت، نسيت الحرب ضد كالفن «البرغشة ضد الفيل»، نسيت أعماله الفكرية. ثمة صورة مبتسرة عنه في الطبعة الهولندية لأعماله الكاملة، وبعض من مخطوطاته في مكتبات سويسرية وهولندية، بعض كلمات شكر من تلاميذه. هذا كل ما تبقى من ذاك الرجل الذي أجمع معاصروه على مدحه لا كواحد من كبار المفكرين فحسب، بل كواحد من أنبل النفوس في زمانه أيضا. فيما خص تقديم العرفان، ما زال دينٌ كبير لم يُسدد. وأيّ ظلم فادح يجب أن يتم التكفير عنه؟

ما عند التاريخ وقت ليكون عادلا. إنه يحصي، ببرود المؤرخين، النجاحات فقط. ونادرا ما يقيسها بمعايير أخلاقية. إنه يميل صوب المنتصرين فقط ويدع الخاسرين في الظل. لا يرى حرجا في أن يواري «الجنود المجهولين» في قبر النسيان الفادح، من دون شاهد ومن دون إكليل يمتدح تضحياتهم غير المجدية

المفقودة. بيد أنه في الحقيقة لا يوجد مجهود أنجز بنيّة صافية، يمكن أن يقال عنه إنه غير مُجْد. ولا تضيع طاقة أخلاقية مبذولة في فضاء الكون. حتى في حالة الهزيمة، يكون الرواد الذين حملوا مثاليتهم قبل الأوان، قد أدوّا مهمتهم. وما من فكرة تبقى حيّة في الأرض بمجرد توفر الشهود والأنصار المقتنعين الذين يعيشون ويموتون من أجلها. من وجهة النظر الروحية تكتسب كلمات مثل «انتصار» و«هزيمة» معنى آخر. لذلك من الضروري دائما وأبدا، أن نذكر العالم الذي لا ينظر سوى إلى أنصاب الظافرين، أن الأبطال الحقيقيين للإنسانية ليسوا الذين شيّدوا ممالكهم الزائلة على ملايين القبور وملايين المهشمين، وإنما تحديدا، أولئك الذين سقطوا وهم عزّل في مواجهة العنف، مثل كاستيليو ضد كالفن في نضاله من أجل حرية الفكر ومن أجل بزوغ الإنسانية في آفاق الأرض.

* * * * * *



قَبْضُ كالفن على السُلطة

في يوم السبت ٢١ أيار ١٥٣٦ تجمع أهالي جنيف في الساحة العامة بعدما استدعوا إليها بطريقة احتفالية وعلى عزف النفير، وأعلنوا بالإجماع وبرفع الأيدي، أنهم اعتبارا من حينه يريدون العيش «بحسب الإنجيل وكلمة الله». وعبر الاستفتاء، أرقى منجزات الديمقراطية التي ما زالت مطبقة إلى يومنا هذا في سويسرا، أُدخلت البروتستانتية إلى مقر الأسقفية السابقة كدين المدينة والدولة وكعقيدة وحيدة، صالحة ومُجازة. وكانت بضع سنوات كافية، لا لكي تتقهقر العقيدة الكاثوليكية فحسب، بل لكي تتهشم وتستأصل شأفتها في المدينة الواقعة على نهر الرون. وبتهديد من الغوغاء، فرّ آخر من تبقى من الكهنة وإداريو الكنائس والرهبان والراهبات من الأديرة، ونُظِّفت الكنائس، جميعا ومن دون استثناء، من الصور ومعالم «التطيّر» كافة. وجاء يوم العيد هذا في شهر أيار ليمهر الانتصار بخاتمه: اعتبارا من الآن أصبحت البروتستانتية السلطة العليا، السلطة المطلقة في جنيف، بل والسلطة الوحيدة المنفردة أيضا.

ويرجع الفضل، في المقام الأول، في فرض المذهب البروتستانتي في جنيف بطريقة راديكالية لا تريث فيها، إلى جهد رجل راديكالي مرعب، هو القسيس الداعية فاريل[٥]. قال عنه إيرازموس الدمث «لم ألتق في حياتي بإنسان في مثل وقاحته وادّعائه». ذو طبيعة متعصبة، جبينه ضيّق لكن في صلابة الحديد، مزاجه متسلط وفي الوقت نفسه لا يبالي بشيء. هذا «السويسري الناطق

(٥) Farel.

بالفرنسية» مارس على الجماهير سلطة قهرية ومُخضِعة. قصير القامة، دميم، أحمر اللحية، منفوش الشعر، أوصل الشعب إلى مشاعر الغليان الملتهبة عبر خطبه من المنبر، وكان يلقيها بصوته الرعدي وبنبرته العنفية الضارية بلا ضوابط. على غرار دانتون السياسي، يعرف هذا الثوري الديني كيف يحشد مشاعر الشارع المتناثرة والخفية، وكيف يلهبها مهيّئا إياها للضربة الحاسمة والهجوم. قبل انتصاره عرّض فاريل حياته مئة مرة للخطر. الفلاحون هددوه ورموه بالأحجار، بأمر من سلطات مختلفة متعاقبة سُجن ووضع تحت المراقبة. لكن الرجل الذي لا تسيطر عليه سوى فكرة وحيدة، تمكن من تحطيم كل مقاومة ضده بطاقة الهجوم البدائية وبالعناد. بطريقة وحشية اقتحم الكنائس الكاثوليكية مصحوبا بحرس الإندفاع، فيما كان الكاهن يقيم شعائر القداس، وبسلطة ذاتية صعد إلى المنبر، ولعن ويلات الشيطان وسط تهليل من أنصاره. من فتية الشوارع شكّل زمرا، واستخدم شراذم من الغلمان، مهمتهم أن يلجوا الكنائس وقت القداس، وعبر الصراخ والصرصعة والقهقهة يفسدون استغراق المؤمنين في الصلاة. ثم يستقوي فاريل متشجعا بتدفق الأنصار بأعداد غفيرة، فيحشد الحرس التابع له للهجوم الأخير، ويدعهم يقتحمون الأديرة بعنف فينزعون الصور المقدسة عن الجدران، يمزقونها، ويحرقونها. وقد أثبتت منهجية العنف الغشوم نجاحها: كما هو الحال دائما، تمكنت أقلية صغيرة لكن فاعلة، ما دامت أظهرت شجاعة ولم تدّخر إرهابا، من إخافة أغلبية كبيرة، مسترخية غافلة. من المؤكد أن الكاثوليك اشتكوا من اغتصاب الحقوق وتقدموا بالعرائض إلى مجلس المدينة، لكنهم في الوقت ذاته قبعوا مستسلمين في منازلهم، بل وفي الختام ترك الأسقف الفار، بلا حول ولا قوة، مقر أقامته إلى البروتستانت المنتصرين.

بيد أنه من خلال الانتصار تبيّن أن فاريل هو نموذج الثوري غير الخلاق. وهو وإن كان قديرا عبر الحيوية والتعصب على قلب نظام قديم، فهو غير كفؤ

لتشييد نظام جديد. فاريل هجّاءٌ لكنه ليس مبدعا، هدّام لكنه غير بنّاء؛ بوسعه أن يقود تيارات ساخطة ضد الكنيسة الكاثوليكية، وأن يحرّض الجماهير اللاواعية على كُرْه الرهبان والراهبات، وهو قادر بقبضته الغاضبة على كسر اللوح الحجري الذي نقشت فيه الوصايا القديمة. لكنه يقف أمام الأطلال معدوم الحيلة والهدف. وهو أخفق تماما بعدما اقتلعت الكنيسة الكاثوليكية من جنيف ولزَم ترسيخ مذهب جديد. كل ما قدر عليه، كذات هدامة، أن يجعل الفضاء خاليا للجديد الآتي. لم يحدث أبدا أن نجح ثوريّ الشارع في أن يغدو شخصية بنّاءة. بعد التقويض انتهت مهمته. من أجل البناء يلزم اختيار شخص آخر.

فاريل ليس أول من عانى من لحظات عدم اليقين الحرجة في أعقاب انتصار سريع. حتى في ألمانيا وسائر سويسرا تردد قادة الإصلاح، متشككين وغير متحدين، إزاء المهمة التاريخية التي ألقيت على عاتقهم. كانت رغبة لوثر في الأساس، ومثله تسفينغلي[6]، محصورة في تطهير الكنيسة القائمة واستعادة المرجعية الدينية من سلطة البابا والمجامع الدينية إلى تعاليم الإنجيل المنسية. كان الإصلاح يعني لهم، المعنى الدقيق للكلمة، أي حقا الإصلاح فحسب، أي تحسين، تنظيف، تغيير. لكن إزاء تصلب الكنيسة الكاثوليكية وتمسكها بموقفها الرافض لأي تسوية ممكنة، نمت لدى الإصلاحيين على حين غرة مهمة نشر مذهبهم الإصلاحي لا من داخل الكنيسة الكاثوليكية بل من خارجها. وما لبث الأمر، حين تحول من الهدم إلى الإنتاج أن دبّ الخلاف بين الرفاق. ومن البداهة أنه لم يكن ثمة أمر أكثر منطقية من أن يتحد الثوريون الدينيون، لوثر وتسفينغلي ولاهوتيو الإصلاح أخويا على مفهوم موحد للكنيسة الجديدة في

(٦) Zwingli.

شكلها وفي إجراءات التنفيذ العملية. لكن متى فرض المنطقي والطبيعي نفسه عبر التاريخ؟ بدلا من كنيسة بروتستانتية عالمية نشأت كنائس متفرقة في كل الأنحاء. فيتنبيرغ ترفض تعاليم اللّه المطبقة في زيوريخ وجنيف لا تريد تعاليم برن، بل كل مدينة تريد الإصلاح الخاص بها، على هواها. وفي مثل هذه الأزمة انعكس الغرور القومي لدى البلاد – التي ستصبح لاحقا «الدول الأوروبية» – في منظار مصغّر متنبئا بذهنية الكانتونات. وكان أن لوثر، تسفينغلي، ميلانكتون[٧]، بوسر[٨] وكارلشتاد[٩] جميعا، الذين قوضوا معا أسس الكنيسة الكاثوليكية، بددوا أفضل قواهم في مشاجرات صغيرة وإفراط في التمحيص اللاهوتي والمجادلات. وها هو فاريل يقف أمام أطلال النظام القديم في جنيف، كمأساة أبدية لرجل أدّى المهمة التاريخية المسندة إليه على أفضل ما يرام، لكنه عجز عن أن يسوس نتائجها وتحدياتها.

وكانت ساعة حظ بالنسبة إلى ذلك المنتصر المأسوي، حين علم من طريق الصدفة، أن كالفن، جان كالفن الشهير، القادم من رحلته في سافوا[١٠]، قد توقف في جنيف وسيبقى فيها بضعة أيام. على الفور قام بزيارته في الفندق لكي يسأله النصح ويرجوه العون في أعمال البنيان. وبرغم أن فاريل يكبره بنحو عشرين عاما، كان كالفن وهو في السادسة والعشرين من عمره يعتبر مرجعية لا جدال حولها. هو ابن مفوض في الجمارك وكاتب بالعدل أسقفي، ولد في نويون[١١] في فرنسا، تلقى علومه في كلية مونتيغو[١٢] (مثله مثل

(٧) Melanchthon.

(٨) Bucer.

(٩) Karlstadt.

(١٠) Savoie.

(١١) Noyon.

(١٢) Montaigu.

إيرازموس ولويولا مؤسس الرهبنة اليسوعية) تهيأ في الدراسة ليكون قسيسا ثم محاميا، اضطر جان كالفن (وقيل شوفان)[١٣] وهو في الرابعة والعشرين، إلى أن يهاجر من فرنسا إلى بازل بسبب انحيازه إلى مذهب لوثر. وعلى عكس أغلبية الذين خسروا الوطن وقواهم الداخلية في آن معا، كانت الهجرة بالنسبة إلى كالفن مكسبا. وتحديدا في بازل، حيث تقاطع الطرق الأوروبية، حيث الصيغ المختلفة من البروتستانتية تتقابل وتتصارع، أدرك كالفن، المنطقي البعيد النظر، ضرورة انتهاز اللحظة بما لديه من لفتة عبقرية يتحلى بها. وكانت نواة المذهب البروتستانتي شهدت إنفصال بعض الاتجاهات الراديكالية عنه: الملحدون، ومذهب القائلين إن الإله الواحد هو كل الكائنات[١٤] وفرقة الغيارى[١٥]، وهذه بدأت تفرغ البروتستانتية من المسيحية أو تقودها للشطط في المسيحية. كما كانت مدينة مونستر شهدت المأساة - الهازلة المرعبة التي حلت بفرقة «مجددو المعمودية»[١٦] وقد كانت خاتمتها بالدم والرعب. وكانت حركة الإصلاح مهددة بالتشظي إلى فرق عديدة ذات طابع وطني محلي بدلا من أن تتحد في إطار سلطة عالمية على غرار الخصم: الكنيسة الكاثوليكية. وفي عمر الرابعة والعشرين أدرك صاحب اليقين المستشرف المستقبل، أنه في مواجهة ذلك الانشطار يجب أن يتم التوصل إلى محصلة مشتركة في الوقت المناسب، وأن تتم بلورة المذهب الجديد عبر كتاب ومنهج وبرنامج، وأن تبتكر نبذة خلاقة عن العقيدة البروتستانتية. هكذا حدد لنفسه الهدف منذ اللحظات الأولى، ذلك اللاهوتي والحقوقي الصاعد المجهول المتمتع بحيوية الشباب. وبينما استمر القادة الحقيقيون يتشاكسون ويغرقون في التفاصيل، انكب كالفن

---

(١٣) Chauvin.

(١٤) Pantheist.

(١٥) Zelot.

(١٦) Wiedertäufer, Anababtist.

على العمل ونجح خلال سنة في تأليف «تعاليم الديانة المسيحية» (١٥٣٥) Institutio Religionis Christianae أول موجز للعقيدة البروتستانتية، كتاب التعليم والدليل المرشد والمؤلَّف المشتمل على القوانين الكنسية للبروتستانتية.

يعتبر هذا المُصنَّف من بين عشرة أو عشرين كتابا في العالم، بوسع المرء أن يقول عنها من دون مبالغة، إنها أثّرت في مسرى التاريخ وغيّرت وجه أوروبا. ومنذ ترجمة لوثر للكتاب المقدس إلى الألمانية وهو أحد أهم منجزات الإصلاح، جاء كتاب كالفن ليمارس تأثيرا حاسما في معاصريه منذ نشره بفضل منطقه الصارم وحزمه البنّاء. كل حركة فكرية تحتاج إلى عبقري ليبدأها، وإلى عبقري ليختمها. لوثر، الملهِم الأول، أطلق عجلة الإصلاح، وكالفن، التنظيمي، أوقفها قبل أن تنشطر إلى ألف فرقة. وبمعنى ما، وضع كتاب «التعاليم» حدا للثورة الروحية كما وضعت مجموعة شرائع نابوليون حدا للثورة الفرنسية: كلاهما، بوصفه نقطة الختام، استخلص الحصيلة، كلاهما أفرغ حركة متدفقة فيّاضة من اندفاع بدايتها الملتهب، لكي يطبعها بقالب القوانين والاستقرار. وبهذا أضحى التعسف عقيدة، والحرية دكتاتورية، والإثارة المعنوية أطرا فكرية متشددة. وبلا ريب، كما في كل ثورة لدى توقفها، تخسر الحركة الدينية أيضا شيئا من حيويتها الأساسية في المرحلة الأخيرة. لكن اعتبارا من الآن وقفت كنيسة بروتستانتية في وجه الكنيسة الكاثوليكية كسلطة عالمية فكرية.

ومن الأشياء التي صنعت قوة كالفن أنه لم يلطّف مرة من صلابة صياغته الأولى ولم يغيّرها. كل الإصدارات اللاحقة لأعماله كانت تعني مذاك توسعا في الموضوع، لكن من دون أدنى تصحيح لنظرياته المحسومة. في السادسة والعشرين، كان مثل ماركس أو شوبنهاور، محّص منطقيا وأنضج تماما مفهومه عن العالم، حتى قبل أن تكتمل خبراته. وما السنوات التالية إلا لتخدم فكرته التطبيقية ولكي تضعها موضع التنفيذ. ولن يغير بعد ذلك كلمة واحدة أساسية،

بل وفي المقام الأول، لن يتغير هو شخصيا. وإزاء أي كان، لن يخطو خطوة إلى الأمام ولن يتراجع خطوة. تجاه كالفن، إما أن يحطمه المرء أو يتحطم أمامه. كل مشاعر وسطية هباء. ثمة خيار أوحد: إما أن تجحده وإما تسلم قيادك إليه.

هذا ما استشفّه فاريل – وهنا تكمن الفطرة البشرية – من اللقاء الأول، من المحادثة الأولى. وبرغم أنه يكبر كالفن بنحو عشرين عاما، فقد خضع له من الوهلة الأولى من دون تحفظ. اعترف به قائده ومعلمه، ومن ذلك الوقت جعل نفسه مرؤوسه وتابعه وخادمه. وفي السنوات الثلاثين التالية، لن يتفوه بكلمة واحدة تناقض الشاب. في كل نضال وفي كل شيء سينحاز إليه، وسيلبي نداءه ويهرع إليه من أي مكان تواجد فيه، وسيقاتل من أجله وتحت إمرته. كان فاريل النموذج الأول للرجل المسلّم نفسه في طاعة مطلقة من دون تساؤل أو انتقاد، وهذه هي أول شروط الالتزام بمذهبه من قبل أي إنسان، يتطلبها كالفن عاشق التبعية. المطلب الوحيد الذي طرحه فاريل في حياته، كان أن يتولى كالفن الجدير الأوحد زمام الأمور في جنيف على الفور، وأن يشيّد فيها صرح الإصلاح بطاقته المتفوقة، إذ كان فاريل يرى نفسه ضعيفا لا يقوى على إنجاز هذه المهمة.

وقد روى كالفن في وقت لاحق، كم تمنّع طويلا وبشدة عن أن يلبّي هذا النداء المفاجيء. دائما اعتبر المثقف أن هجر فضاء الأفكار الصافي لولوج عالم السياسة الواقعية العكِر، قرار يتخذ بمسؤولية. هذا التهيّب الخفي استحوذ على كالفن أيضا. تردد، تأرجح، عزا الأمر إلى شبابه وقلّة خبرته، ورجا فاريل أن يدعه في عالم الكتب والإشكاليات الذي يهواه، فما كان من فاريل إلا أن فقد صبره تجاه تعنت كالفن ومحاولته التملص، وبقوة كأنها لأنبياء الكتاب المقدس، رعد في مسمع المتردد: «إنك تتذرع بدراساتك. لكن باسم الرب القدير أعلن لك: ستحلّ عليك لعنة الرب إنْ أنت تمنعت عن عون عمل السيّد، وإنْ فكرت في نفسك أكثر مما في المسيح».

هذه الكلمات هي التي جعلت كالفن يحسم أمره ومجرى حياته. أعرب عن استعداده لبناء نظام جديد في جنيف. وما عبّر عنه من قبل وحتى الآن بالأفكار والكلمات، سيضعه موضع التنفيذ أعمالا وأفعالا. وبدلا من كتاب، سيسعى إلى أن يطبع مدينة، بل دولة، بطابع إرادته.

دائما يعرف المعاصرون أقل الأشياء عن الحقبة التي يعيشون فيها. أهم الأحداث تمر أمامهم دون أن تلفت انتباههم، ونادرا ما تجد الساعات الحاسمة حقا الاعتبار المناسب في مدوناتهم التأريخية. وهكذا فإن محضر اجتماع مجلس إدارة مدينة جنيف المنعقد في ٥ أيلول/ سبتمبر ١٥٣٦، والذي دُوّن فيه اقتراح فاريل بأن تسند مهمة «قاريء الكتابات المقدسة» إلى كالفن، لم يرَ أنه من الضروري أن يكتب اسم الرجل الذي سيعطي جنيف تجاه العالم مجدا لا حدود له. بلهجة باردة سجل مدوّن المحضر أن فاريل اقترح أن يواصل «أحد الفرنسيين» عمله كواعظ. هذا كل ما في الأمر. ولماذا يتكبد عناء تهجئة الإسم ثم تدوينه في الملف؟ بدا له أن الأمر لا يعدو قرارا غير ملزم بأن يُرصد لهذا الداعية الأجنبي الجائع راتب ضئيل. إذ حتى مجلس مدينة جنيف ذاته، رأى أنه لم يفعل سوى أنه استخدم موظفا مرؤوسا سيؤدي مهمته في منتهى الطاعة والتواضع كأي مدرس في بداية السلك الوظيفي، أو أمين صندوق، أو جلاد.

على أي حال، لم يكن أعضاء المجلس البسطاء من المثقفين. لم يقرأوا في أوقات الفراغ أي كتاب في اللاهوت، لم يطلع أحدهم على كتاب كالفن «تعاليم الديانة المسيحية» بل ولم يتصفحه. وإلا كانوا شعروا بالصدمة تماما، إذ أن «ذاك الفرنسي» طالب بكلمات واضحة وبلهجة آمرة، سلطة كاملة ينبغي أن تسند إلى القساوسة الدعاة على جماعة المؤمنين: «ها هنا تحديد واضح للسلطة التي يجب أن يتحلى بها القساوسة الدعاة في الكنائس. بما أنهم أوصياء على كلام الله ومكلفون تبليغه، من حقهم أن يتجاسروا على كل

شيء، وأن يجبروا الأكثر عظمة وسلطة في العالم، أن ينحنوا أمام جلالة الله وأن يكونوا خدمه. لهم أن يأمروا الجميع، من أعلى القوم إلى أدناهم، وأن يقيموا عقيدة الله وأن يهدموا مملكة الشيطان، أن يرعوا القطيع وأن يقتلوا الذئاب، عليهم أن يعظوا الطيّعين وأن يعلّموهم، وأن يدينوا العصاة وأن يسحقوهم. في أياديهم الحلّ والربط. لهم أن يزمجروا وأن يرعدوا. لكن كل ذلك وفقا لكلام الله».

مما لا شك فيه أن السادة في مجلس المدينة لم ينتبهوا إلى كلمات كالفن هذه «لهم أن يأمروا الجميع، من أعلى القوم إلى أدناهم»، وإلا ما كانوا استعجلوا في تسليم ذواتهم إلى ذاك الطموح. من دون أن يدروا، أن ذلك المهاجر الفرنسي الذي استدعوه إلى كنيستهم مصمم منذ البداية أن يغدو سيد المدينة والدولة، أعطوه وظيفة وقيمة. لكن سلطتهم انتهت اعتبارا من ذلك اليوم. ذلك أن كالفن استحوذ على كل شيء بفضل طاقته التي لا تستكين، ودون مراعاة لأحد نفّذ مطالبه الشمولية محوّلا بذلك جمهورية ديمقراطية إلى دكتاتورية ثيوقراطية.

هذا وقد شهدت الإجراءات الأولى التي اتخذها كالفن على منطقه البعيد النظر وعلى عزمه الحثيث السعي لبلوغ الهدف. «حين وصلت إلى هذه الكنيسة لأول مرة» كتب كالفن لاحقا عن تلك الحقبة في جنيف، «لم أجد شيئا تقريبا. كانوا يعظون. فقط لا غير. كانوا يبحثون عن الصور المقدسة، يجمعونها ويحرقونها». وكالفن عاشق للنظام منذ نعومة أظفاره. كلُّ ما هو بلا نظام وبلا منهج يتناقض مع طبيعته الرياضية الدقيقة. إذا أراد المرء أن يربّي الناس على عقيدة جديدة، فينبغي أن يعلّمهم في البدء بماذا عليهم أن يؤمنوا. يجب أن يتمكنوا من التمييز بوضوح بين ما هو مسموح وما هو ممنوع. كلُّ مملكة روحانية، مثل المملكة الدنيوية، تحتاج إلى حدود واضحة وقوانين. وهكذا، في غضون

ثلاثة أشهر، سلـّم كالفن مجلس المدينة كتاب التعليم الديني الذي يحتوي على إحدى وعشرين مادة تشكـّل أساس العقيدة الإنجيلية الجديدة، بأسلوب موجز مفهوم. كتاب التعليم الديني هذا – إلى حد ما هو الوصايا العشر الخاصة بالكنيسة الجديدة – نال من مجلس المدينة الموافقة المبدئية.

لكن كالفن ليس من النوع الذي يسعد بالموافقة المبدئية. أصرّ على وجوب الطاعة العمياء حتى بالنسبة إلى النقطة والفاصلة. وفي كل الأحوال، لا يكفيه أن يكون قد انتهى من صياغة العقيدة في نصّ، ثم تترك الحرية للأفراد بشأن اعتناقها ومدى الالتزام بها. كالفن لا يسمح أبدا وبأي شكل من الأشكال، بالحرية سواء في العقيدة أو في الحياة العامة. وهو في أعماق قناعاته الداخلية مدرك أنه لا يريد التنازل للأفراد، ولا قيد أنملة، في فضاء الشؤون الروحية والفكرية. وبحسب مفهومه، لا تملك الكنيسة الحق فقط، بل عليها الواجب أيضا، أن تلزم الناس بالطاعة المطلقة غير المشروطة، بل وأن تعاقب بلا هوادة ذوي الحماسة الباردة. «فليفكر الآخرون بطريقة مختلفة، أما أنا فلست أعتقد أن مهمتنا محصورة بهذا الشكل الضيق للغاية، بحيث أننا بعدما نلقي العظة، نعتبر أننا أدّينا الواجب تماما، وعليه ينبغي أن نتكتف ونلزم الهدوء». لم يشأ لكتاب التعاليم الدينية أن يكون مجرد دليل هادٍ للمعتقد، وإنما قانون الدولة. لذلك طلب من مجلس المدينة أن يجبر المواطنين على أن يعترفوا علنا بكتاب التعاليم الدينية فردا فردا. وهكذا سيق المواطنون مجموعات، كل مجموعة من عشرة أفراد، كأنهم تلاميذ مدارس، يقودهم «القدامى» إلى الكاتدرائية حيث يرددون قسم اليمين الذي يتلوه عليهم أمين عام المدينة وهم رافعو الأيدي. والذي يمتنع عن أداء القسم، يرى نفسه مطرودا إلى خارج المدينة. هذا يعني بوضوح، وقيل مرة وكفى: اعتبارا من الآن، لا يحق لمواطن أن يعيش داخل أسوار المدينة، إذا انحرف عن مطالب جان كالفن ومفاهيمه، ولو بقدر سماكة

شعرة. انتهى في جنيف ما نادى به مارتن لوثر «الحرية للإنسان المسيحي» وما رافقه، أي اعتبار مفهوم الدين مسألة قناعة فردية. انتصر المنطق logos على الأخلاق ethos كما انتصرت حرْفية نص الإصلاح على المضمون. انتهت ألوان الحرية جميعا في جنيف منذ دخل كالفن المدينة. الآن ثمة إرادة واحدة تسود على الجميع.

لا يمكن تخيل دكتاتورية من دون العنف، ولا يمكن أن تدوم من دونه. الذي يريد أن يحتفظ بالسلطة، ينبغي أن تكون أدوات السلطة بين يديه. والذي يريد ان يأمر عليه أن يمتلك الحق في القصاص أيضا. على أن مرسوم تعيين كالفن لم يلحظ أدنى حق له في تطبيق عقوبة النفي على الذين يرتكبون جُنَح ذات علاقة بالكنيسة. أعضاء مجلس المدينة تعاقدوا مع «قاريء للكتاب المقدس» مهمته أن يشرح الإنجيل للمؤمنين، مع قسيس مهمته أن يعظ جماعة المؤمنين ويرشدهم إلى الإيمان القويم بالله. واعتقدوا أنه من البدهي أن إنزال العقوبة بمواطن ما بسبب سلوكه الأخلاقي أو القانوني، يبقى في إطار صلاحياتهم التشريعية. لا لوثر ولا تسفينغلي ولا أي من الإصلاحيين الآخرين حاول أن ينازع السلطات المدنية هذا النفوذ. أما كالفن، ذو الطبيعة التسلطية، فعمل على تحقيق رغباته الكبيرة بخفض مجلس المدينة إلى مستوى هيئة تنفذ أوامر ومقترحاته. وبما أنه لم يُعطَ أي سند قانوني لذلك، أختلقه لنفسه من طريق تطبيق الحُرْم الديني: بلفتة عبقرية، حوّل سرّ تناول القربان المقدس إلى أداة بيده للسلطة ووسيلة للقمع. وأصبح القساوسة التابعون لكالفن يستأثرون بحق منح «قربان الرب» إلى الذين يبدو سلوكهم لاغبار عليه في نظرهم. أما الذي يرفض القسيس منحه القربان – وهنا أقصى مظاهر القوة الضاربة لهذا السلاح – فإنه يفقد حقوقه المدنية. لا يعود يجوز لأحد أن يكلمه، ولا أن يشتري منه أو يبيع له. وهكذا، على الفور، يتحول الإجراء الكنسي المتخذ من السلطات

الروحية إلى مقاطعة اقتصادية واجتماعية. وإذا لم يستسلم المعاقَب، وإذا رفض أن يصرّح بالتوبة علنا وفق النص الذي يمليه عليه القسيس، فعندئذ يقرر كالفن نفيه من المدينة. أي خصم لكالفن، وليكن من أبرز علية القوم، لا يمكنه العيش في جنيف على المدى الطويل. كلُّ من تحلّ عليه كراهية الإكليروس يعتبر من تلك اللحظة مهددا في وجوده المدني.

بهذه القوة الصاعقة التي في حوزته، أصبح كالفن قادرا على تهشيم أيّ من الذين يتمردون عليه. وبضربة واحدة جسورة، ضمّ إلى قبضته أسلحة السلطة النافذة على نحو لم ينجح في تحقيق مثله أسقف المدينة من قبل. ذلك أنه دائما في الكنيسة الكاثوليكية، تطلّب اتخاذ قرار حُرْم أيّ من التابعين لها علنا، سلسلة تواقيع حسب التسلسل الإداري من المنصب الرفيع إلى الأرفع. كان الحُرْم فِعْلاً يتجاوز الشأن الشخصي، ولم يكن التعسف في سلطة فرد وحده، في حين أن كالفن، الواضح الهدف والماضي في طريقه إلى السلطة بلا هوادة، ترك حقّ الحرم هذا طليقا في يد القساوسة ومجمع الأساقفة في كل أوان، فجعل هذا التهديد المرعب بمثابة عقوبة منتظمة دائما. ومن خلال الخوف من هذه العقوبة، حصل كالفن الخبير في علم النفس الذي يجيد حساب تأثير الرعب، على قوة العنف الذاتي الذي لا يُحدّ. وبشق الأنفس، تمكن أعضاء مجلس المدينة من جعل مناولة القربان المقدس تتم مرة كل ثلاثة أشهر وليس مرة كل شهر كما طلب كالفن. ومن بعد، لن يسمح كالفن لأحد أن ينتزع منه أمضى سلاح في يده، ذلك أنه بوساطته، وبوساطته فقط، أصبح بوسعه أن يبدأ كفاحه حقا: الكفاح من أجل شمولية السلطة.

في الأغلب، يمضي وقت معين حتى يكتشف شعبٌ ما، أن المزايا المؤقتة لدكتاتورية ما، أن نظامها الصارم وأن قوتها الجماعية المَوطّدة، إنما تدفع على

حساب حقوق الفرد الذاتية، وأنه لا مفرّ من أن كلّ قانون جديد، إنما يستقطع من رصيد حرية قديمة. وفي جنيف أيضا، انبعث هذا المفهوم تدريجيا، خطوة خطوة. بقلوب مخلصة منح مواطنو جنيف تأييدهم للإصلاح، وبحرية تامة جمعوا أنفسهم في الساحات العامة وتبنتوا العقيدة الجديدة كرجال مستقلين، برفع الأيدي. لكن في المقابل، ثار كبرياؤهم الجمهوري حين تمّ اقتيادهم تحت رقابة شرطي، عشرة بعد عشرة مثل قافلة مساجين عبر المدينة إلى الكنيسة لكي يقسموا يمين الولاء احتفاليا بتلاوة المواد التي صاغها كالفن. ولم يكفهم أنهم أيدوا ذلك الإصلاح الصارم في العادات، حتى هددوا يوميا من ذلك الداعية الجديد النزق، لمجرد أنهم ذات مرة مع شرب كأس نبيذ غنتوا بمرح، أو لأنهم ارتدوا ثيابا كانت في نظر كالفن أو فاريل كثيرة الألوان أو مترفة. وكان أن بدأ الشعب يتساءل: من هم حقا أولئك القوم الذين يتصرفون كالأسياد؟ أهم مواطنون من جنيف؟ أهم من الذين استوطنوا المدينة منذ القدم وساهموا في عظمتها وثرائها؟ مواطنون ذوو خبرة؟ لديهم منذ مئات السنين روابط ومصاهرات مع أفضل العائلات؟ كلا ! إنهم مهاجرون جدد أتوا من بلد آخر، من فرنسا، ومنحوا حق اللجوء. استقبلوا كضيوف، وفترت لهم سبل العيش والرزق، وأسندت إليهم وظائف بمرتبات عالية. وها هو ابن محصل الضرائب الآتي من البلد المجاور، والذي جلب معه أيضا أخاه وصهره إلى العشّ الدافيء. ها هو يؤنب المواطنين الراسخي الأقدام في المدينة ويشتمهم! هو اللاجيء، المَوَظَّف لديهم ومن قِبَلهم، يستبيح لنفسه الحق في أن يقرر: من يحقّ له البقاء ومن ينبغي عليه الرحيل!

في كل مرة، في بداية دكتاتورية، تملك المعارضة وزنا ما، ما دامت النفوس الحرة لم تخرس بعد، وما دام المستقلون لم يُبْعدوا بعد. علانية في جنيف، صرّح الجمهوريون كريمو النفوس، أنهم لن يقبلوا أن يساقوا كما لو أنهم قطيع

طرق! شوارع بأسرها، وعلى رأسها شارع الألمان[17]، رفضت أداء القسم المطلوب، وزمجر سكانها بالصوت الثائر العالي أنهم لن يقسموا اليمين ولن يغادروا مدينتهم بناء على أوامر ذلك الفرنسي الحقير الفقير الجائع! ومع أن كالفن نجح في إرغام «المجلس الصغير» – المؤيد له – على نفي الرافضين أداء القسم، لم يجرؤ أحد على إدخال تلك القرارات غير الشعبية حيّز التنفيذ، وفي الواقع هي لم تكن قابلة للتطبيق. وجاءت نتائج الانتخابات المحلية التي جرت آنذاك لتظهر بوضوح أن أغلبية المدينة بدأت ترفض تعسف كالفن. أنصاره الخلّص خسروا الأغلبية في المجلس الجديد المنتخب في شباط ١٥٣٨. ومرة أخرى عرفت الديمقراطية في جنيف كيف تعبّر عن إرادتها في الدفاع عن نفسها ضد ادعاءات كالفن السلطوية.

كان كالفن قد أفرط في الاندفاع. دائما يستخفّ العقائديون السياسيون بقيمة التمرد الكامن في الطبيعة الإنسانية المتراخية، ودائما يعتقدون أن التجديدات الحاسمة في المجال الواقعي يمكن أن تتحقق بمثل السرعة التي تتحقق بها في أفكارهم. الآن على كالفن أن يتصرّف بذكاء، طالما أنه لم يستعد ثقة السلطات المدنية. عليه أن يتعامل بلطف، ذلك أن قضيته ما زالت ملائمة. والمجلس المنتخب الجديد يتعامل معه بحذر ولم يبلغ حدّ العداء تجاهه. حتى أنه كان على ألدّ أعدائه أن يعترفوا أنه في هذه المهلة الضيقة ثمة إرادة لا مشروطة للأخلاقية كانت في أساس تعصب كالفن، وأن هذا الرجل المندفع بعنف لا يحركه الطموح الذاتي الضيّق، إنما تقوده أفكار كبيرة. بيد أن أخاه في النضال، فاريل، ظل آنذاك معبود الشباب وناس الشوارع، وهكذا كان من الممكن امتصاص حدة التوتر وتلطيفه، لو أن كالفن مارس ذكاء دبلوماسيا،

---

(١٧) rue des Allemands.

وكيّف مطالبه الراديكالية الجارحة لتتوافق مع فهم سكان المدينة وهم أكثر اتزانا منه.

لكن في هذه النقطة يصطدم المرء بطبيعة كالفن الصخرية وتصلبه الصارم. لقد أمضى هذا المتعصب الأعمى حياته أبعد ما يكون عن روح المصالحة. كالفن لا يعرف التسوية، لا يعرف إلا طريقا واحدا: طريقه. بالنسبة إليه: الكلّ أو لا شيء. السلطة الكاملة أو الامتناع التام. لا يقبل حلا وسطا. ذلك أن امتلاك الحق والاحتفاظ به، أمر ذو صفة وظيفية. لا يقدر أن يفهم أو يتخيل وجود شخص آخر بوسعه أن يكون بمستواه وأن يمتلك الحق ذاته. بالنسبة إليه: من البداهة أنه وحده الذي يُعَلّم وعلى الآخرين أن يتعلموا منه. حتى أنه قال حرفيا باقتناع حقيقي صادق: «ما أعلّمه أتاني من الله، وهذا ما يؤكده لي ضميري». وبثقة بالذات مهيبة مرعبة صرح بأن أقواله والحقيقة سواء «الله أعطاني النعمة لأعلن ما هو جيد وما هو سيء». دائما كان هذا المهووس بذاته يحنق ويرغي ويزبد إذا تجاسر أحدهم على إبداء رأي مضاد لرأيه. مجرد الاعتراض يثير لدى كالفن حالة من التوتر العصبي، ولا تلبث هذه الحساسية المعنوية أن تبلغ الحالة الجسدية، فتضطرب معدته وتتقيأ الحوصلة الصفراء. حتى لو قدم محاوره اعتراضه بالطريقة الأكثر موضوعية وعلمية. يكفي أنه تجاسر على التفكير بطريقة مخالفة، فهذا يجعله في نظر كالفن عدوا لدودا، وبالتالي عدوا عالميا، قل عدو الله. ذلك الرجل الذي في حياته الخاصة رزانة مبالغة، أطلق على أفضل اللاهوتيين والعلماء والأدباء في عصره: أفاع تفحّ ضده، كلاب تنبح ضده، بهائم، أوغاد، أتباع الشيطان. فورا يصبح «شرفُ الله» مهانا في شخص «خادمه» إذا اعترض أحدهم على كالفن ولو بطريقة أكاديمية بحتة. فورا تصبح «كنيسة المسيح» مهددة إذا تجاسر أحدهم على وصف كالفن بأنه ذو نزوع إلى التسلط. تبادل الآراء مع آخر، هو في نظر كالفن هباء. إلا إذا

اعترف الآخر بآراء كالفن وشهد لها. طول حياته، ما ارتاب صاحب النظرة الواضحة لحظة في أنه يملك وحده صفة تفسير كلام الله، وأنه وحده يدرك الحقيقة. لكن، تحديدا، بفضل هذه الثقة الصارمة وهذا الهوس الرسولي بالذات، وهذه الفكرة المتسلطة العظمى، نجح كالفن في المجال الواقعي. ويمكن للمرء تفسير سر انتصاره السياسي برباطة جأشه المتينة وعناده البارد اللاإنساني. وحده مثل هذا الولع بالذات، مثل هذا الاقتناع بالذات المغلق الأفق، صنع – في تاريخ الإنسانية – من رجل ما، قائدا. ولا لمرّة خضع الناس، الذين تؤثر فيهم قوة الإيحاء، للعادلين المتسامحين، بل دائما لكبار المهووسين بالذات الأحاديين الذين تجرأوا على اعتبار حقيقتهم هي الوحيدة الممكنة، وإرادتهم هي الصيغة الأساسية لقانون العالم.

ولذلك لم يتأثر كالفن أقل تأثير من وقوف أغلبية الأعضاء في مجلس المدينة ضده، وقد طالبوه بأدب، أن يقبل لصالح السلام، بالتوقف عن تهديداته الصارمة ورمي الحُرْم وأن يتبنّى المفهوم المعتدل الذي يطبقـه مجمع مدينة برن. لكن رجلا عنيدا مثل كالفن لا يقبل سلاما مجانيا حتى لو لم يُطلب منه سوى التنازل عن مجرد نقطة من فوق حرف. كلُّ حل وسط، بالنسبة إلى طبيعته السلطوية، غير ممكن أبدا. وبما أن مجلس المدينة عارضه، فسرعان ما سيتحول، هو ذاته الذي طالما ألـحّ على الطاعة غير المشروطة للسلطة، إلى ثائر مطلق وبلا هوادة على رؤسائه في السلطة. علنا ومن على المنبر هاجم «المجلس الصغير» وأعلن أنه «يفضل الموت على أن يلقي بجسد المسيح إلى الكلاب». وداعية آخر أطلق على مجلس المدينة «تجمّع السكارى». وكمثل كتلة صخرية جامدة لا تتزحزح، وقف أنصار كالفن في مواجهة السلطة.

لم يكن المجلس قادرا على التسامح إزاء ذلك العصيان الذي قاده القساوسة ضد سلطته. في البدء أصدر أمرا لا لبس فيه، أن منابر الكنائس لا ينبغي أن

تُستغَل لأغراض سياسية، وإنما يجب الاكتفاء هناك بتفسير كلام الله. أما وأن كالفن وأتباعه تجاهلوا هذا الأمر الإداري، فلم يبقَ في الواقع سوى منع القساوسة من الصعود إلى المنبر، بل إن المدعو كورتوه(١٨) وهو الأشد استفزازا بينهم، قد سُجن بسبب تحريضه العلني على التمرد. هكذا أعلنت الحرب المفتوحة بين السلطة المدنية والسلطة الروحية. وقد قبلها كالفن بحزم. وبصحبة أنصار له، اقتحم كاتدرائية سان بيار وصعد إلى المنبر الممنوع عليه بتحدٍ تام. وحيث أن الأنصار والخصوم ولجوا الكنيسة وهم مسلحون، البعض لكي يفرضوا الخطبة الممنوعة والبعض لكي يحولوا دونها، نشأ لغط مخيف وكاد الأمر أن يتحول إلى حمام دم في الكنيسة وقت الفصح. عندئذ استنفذ صبر المجلس. استدُعِي المجلس الكبير المشكّل من مئتي عضو، أعلى السلطات، وطُرِح السؤال حول ما إذا ينبغي عزل كالفن والقساوسة الموظفين الأُخَر الذين تجاهلوا باستفزاز أوامر المجلس. الأغلبية الساحقة من الأعضاء أعربت عن موافقتها. استدُعِي رجال الدين المتمردون إلى الإدارة وتمّ إبلاغهم بحزم قرار إبعادهم عن المدينة خلال ثلاثة أيام. وها هو كالفن، الذي هدد الكثير من المواطنين بمثل هذا القرار خلال الأشهر الثماني عشرة الأخيرة، ها هو وقد أصابه الأمر شخصيا.

سقط أول هجوم قاده كالفن في جنيف. لكن مثل هذه الخسارة لا تعني شيئا خطيرا في حياة الدكتاتور. بل على العكس، قد يكون ذلك حتميا بالنسبة إلى الارتقاء النهائي لعاشق السلطة المطلق، أن يكون قد عانى من مثل هذه السقطة الدرامية في مستهل حياته. السجن، النفي، الإبعاد، لم تكن أبدا عراقيل في مسيرة كبار ثوريي العالم، بل هي محفزات لشعبيتهم. لكي يصبح المرء معبود الجماهير ينبغي أن يكون من قبل شهيدا. بل إن الملاحقات التي ينفـّذها نظام مكروه بحق أحد قادة الشعب، تمنحه في البدء الظروف المعنوية

---

(١٨) Courtauld.

لنجاحه الجماهيري الحاسم اللاحق، لأن كل اختبار لهالة قائد المستقبل، يرفعه أمام الشعب إلى مقام صوفي. ولا شيء ضروريا لسياسي كبير مثل تراجعه بين الحين والآخر إلى خلفية المشهد، لأنه بفضل مثل هذه الاختفاءات يغدو أسطورة. وكمثل غيمة تطوف الشائعات حول اسمه ممجدة، حتى إذا ظهر مجددا وجد اهتمامات أنصاره تضاعفت مئة مرة، من دون أن يكون هو قد بذل جهدا. تقريبا كل الأبطال الشعبيين في التاريخ، يدينون إلى المنفى في تكوين قوة الجذب التي مارسوها على مواطنيهم: قيصر في بلاد الغال، نابوليون في مصر، غاريبالدي في أميركا الجنوبية، لينين في الأورال، أصبحوا في غيابهم أقوي من ذاتهم في حضورهم. وهكذا كالفن أيضا.

والحق يقال، إن كالفن ساعة إبعاده بدا رجلا قضي عليه على الأرجح. تحطّم تنظيمه وعمله باء بالفشل، ولم يبق من إنجازه سوى تذكر تمسّكه الأعمى بالانضباط وبضع عشرات من الأصدقاء الخُلَّص. بيد أن النجدة ما لبثت أن أتته، مثلما الحال مع رجال السياسة، الذين بدلا من أن يخضعوا للتحالفات، ينسحبون بحسم في اللحظات الخطيرة، ثم يفيدون من أخطاء الخَلَف والخصوم. بمشقة عثر مجلس المدينة على بعض القساوسة الطيّعين ليحلوا محل الشخصيات المهيبة مثل كالفن وفاريل. هؤلاء الجدد، خوفا من أن يكرههم الشعب بسبب إجراءات قاسية، فضلوا أن يتركوا الزمام مرخيّا على الأرض بدلا من أن يجذبوه مشدودا. وسرعان ما توقف بناء الإصلاح الذي كان قد بدأ حيويا، بل وأكثر حيوية في عهد كالفن، ووقع المواطنون أسرى الشك والبلبلة في موضوع الإيمان، حتى أن الكنيسة الكاثوليكية المنزاحة عاودتها الروح تدريجيا وحاولت عبر وسطاء حاذقين أن تقود جنيف مجددا إلى أحضان العقيدة الكاثوليكية. ولم تلبث الحالة الحرجة أن أصبحت أشد حرجا. وشيئا فشيئا بدأ أولئك الإصلاحيون ذاتهم الذين كانوا يعتبرون كالفن قاسيا

ومتشددا، يقلقون ويتساءلون: أما كان من الأفضل بالنتيجة نشدان تلك التربية الصارمة، عوض هذه الفوضى المهددة. وكان أن تزايد عدد المواطنين، وخصوصا بعض الخصوم القدامى، الذين أخذوا يلحّون على عودة المُبْعَد. وفي النهاية لم يجد مجلس المدينة مخرجا آخر سوى أن يستجيب للرغبات الشعبية العارمة. كانت الرسائل الأولى الموجهة إلى كالفن تتضمن طلبات خافتة وحذرة، وما لبثت أن أصبحت أكثر صراحة وإلحاحا. وبصيغة جليّة تحولت الدعوة إلى رجاء. لم يعد المجلس يكتب إلى «السيد» كالفن، بل إلى «المعلم» كالفن، يرجوه العودة إلى المدينة لكي يساعدها. ثم في النهاية توجّه سادة المجلس، الذين أسقط في أياديهم، وهم راكعون بالرجاء إلى «الأخ العزيز والصديق الوحيد» لكي يتولى مجددا منصب الداعية، وما لبثوا أن أرفقوا الرجاء بالتعهد «بأن سلوكهم تجاهه، سيوفر له الأسباب التي تجعله سعيدا».

لو أن كالفن كان ذا شخصية صغيرة، لو أنه من النوع الذي يسعد بانتصار متواضع، لكان شعر بالرضا إزاء التوسل إليه بالرجوع إلى المدينة التي طردته من أراضيها قبل سنتين. لكن الذي يبتغي الكلّ، لن يقبل أبدا بنصف مكافأة. خصوصا وأنه في مثل هذه المسألة المقدسة، لا يتعلق الأمر بكبريائه الشخصي وإنما بانتصار السلطة. وهو لن يقبل مرة ثانية أن يعرقل عمله أيّ من الذين في قمة هرم السلطة. إذا ما رجع، فلا ينبغي أن توجد في جنيف أيّ إرادة أخرى سوى إرادته هو. وما دامت المدينة لم تستسلم له بالأيدي المكبَّلَة ولم تنطق بعد بالتعهد الملزم بالخضوع المطلق له، فلقد تمنّع كالفن عن التصريح بالموافقة، بل ورفض العروض الملحّة بازدراء تكتيكي مبالغ به. وكتب إلى فاريل يقول: «أفضّل الذهاب إلى الموت مئة مرة، على أن أبدأ تلك النضالات السابقة الموجعة مرة واحدة». ولم يخطُ خطوة في اتجاه خصومه القدامى. حتى إذا في النهاية، ركع المجلس أمام كالفن مستجديا رجوعه، فقد صديقه الحميم

فاريل صبره وكتب إليه يقول: «ماذا تنتظر في النتيجة؟ أن يرجوك الحجر أيضا؟». وصمد كالفن حتى تخضع جنيف من دون قيد أو شرط. ولم يتنازل ويعلن أخيرا موافقته على تولّي منصبه القديم بسلطات جديدة، إلا بعد أن أقسمت جنيف اليمين أن تطبق نشر التعاليم الدينية وأن تنفذ «السلوك المنضبط» المطلوب منها بحسب إرادة كالفن، وبعد أن أرسلت المجالس الرسائل المسترحمة إلى مدينة ستراسبور ترجو سكانها بطريقة أخوية أن يتكرموا ويتنازلوا لها عن الرجل الذي لا غنى عنه، وبعد أن أذلت جنيف محليا ثم في نظر العالم بأسره.

وكما تتهيأ المدينة المهزومة لاستقبال فاتحها، استعدت جنيف لدخول موكب كالفن. بذل الجميع قصارى الجهد لكي يسكّنوا استياءه. وبسرعة أعيد العمل بكل المراسم الصارمة القديمة، حتى يجد كالفن أن كل أوامره الروحية قد دخلت حيز التنفيذ. وأخذ المجلس الصغير على عاتقه مهمة إيجاد السكن المناسب وبجواره حديقة واختيار الأثاث الضروري لفرشه. كما تقرر إعادة تجهيز المنبر في كاتدرائية سان بيار لتوفير المزيد من الراحة لكالفن أثناء إلقاء العظات ولكي تكون قامته مرئية دائما من كل الحضور. وتشريف يراكم تشريفا: حتى قبل أن يغادر كالفن ستراسبور، أوفدت اليه جنيف بشيرا مكلفا تبليغه أحر التحيات. وعلى نفقة سكان المدينة استدعيت عائلة كالفن. وأخيرا، حين اقتربت العربة التي تقلّه من بوابة كورنافان[١٩] يوم الثالث عشر من ايلول، تجمعت الحشود الغفيرة داخل أسوار المدينة، لتحتفل مهللة بعودته. أصبحت المدينة ليّنة وطيّعة مثل عجينة الطين في يد كالفن. وهو لن يتوقف في مسعاه قبل أن يجعل منها رائعة فكره المجسّد. ومن ذلك الوقت لم يعد الفصل ممكنا بين كالفن وجنيف، بين الشكل والمضمون، بين الخالق ومخلوقته.

* * * * * *

(١٩) Cornavin.

«الإنضباط»

منذ اللحظة التي عبَر فيها الرجل النحيف الصلب المرتدي ثوب القساوسة الأسود الطويل الفضفاض بوابة كورنافان، بدأت تجربة لا تنسى عبر الأزمان. كان ينبغي، وفق آلية صارمة، تحويل دولة لا تحصى فيها الكائنات الحية، وشعب بكل ما لديه من مشاعر وأفكار، إلى نظام أحادي فريد. إنها المحاولة الأولى لقيادة شعب بأسره يعيش في قلب أوروبا إلى المساواة المطلقة، باسم فكرة واحدة. بجدية خارقة وبتمحيص ممنهج عظيم بدأ كالفن خطته الجريئة القاضية بأن يجعل من جنيف أول مدينة لله على الأرض: جماعة لا دناءة دنيوية فيها، لا فساد، لا فوضى، لا رذائل ولا خطايا، إنها أورشليم الجديدة الحقيقية التي منها ينبغي أن ينبثق خلاص العالم. هذه الفكرة الوحيدة الفريدة ستغدو من الآن حياته، ولسوف تصبح حياته بأسرها خدمة وحيدة لهذه الفكرة الواحدة. بجدية مرعبة وإخلاص لا حدود له تعامل ذلك العقائدي المحترم مع مثاليته الباهرة. وخلال ربع قرن من دكتاتوريته الفكرية، لم يساور الشك كالفن مرة في أن المرء لا يمكن أن يرتقي بالبشر إلا حين يسلبهم كل الحريات الفكرية، وبلا هوادة. ذلك المستبد الورع، بكل ملزماته وتكليفاته التي لا تطاق، لم يكن يتصور أنه يطلب من الناس شيئا آخر سوى إلزامهم بالعيش بطريقة صحيحة، أي أن تكون مطابقة لإرادة الله وتعاليمه.

ذلك القول، في الواقع، له رنين سهل وواضح لا اعتراض عليه. لكن كيف يمكن أن نتعرف على إرادة الله هذه؟ وأين يمكن أن يجد المرء هذه التعاليم؟

يجيب كالفن: في الإنجيل، وفي الإنجيل وحده. فيه يعيش ويتنفس بعبارات حيّة إلى الأبد، كلام الله وإرادته. ليس من قبيل الصدفة أن الكتب المقدسة ظلت مصونة إلى يومنا هذا. صاغ الله الأثر في كلمات لا لبس فيها، لكي يدرك الناس وصاياه بوضوح ويعملوا بها. وُجِد هذا الإنجيل قبل الكنيسة وهو أسمى منها، ولا توجد أي حقيقة أخرى خارجه أو فوقه. لذلك يجب أن يُعمل بـ «كلام الله» في دولة مسيحية حقيقية، كمبدأ أساسي أوحد للأخلاق، للفكر، للعقيدة، للحقوق ولنمط العيش. ذلك أنه كتاب الحكمة الكاملة والعدالة الشاملة والحقيقة التامة. بالنسبة إلى كالفن، الإنجيل هو البداية وهو النهاية. وكل قرار فَصْل في كل المواضيع يجد أسبابه في كلمة الإنجيل المكتوبة.

بإدراج نص الكتاب كأعلى مراجع الفصل لدى السلطات الدنيوية، يبدو كالفن وكأنه لا يفعل سوى أن يستعيد المطالب القديمة للإصلاح. بيد أنه في الحقيقة تجاوز الإصلاح بخطى هائلة، بل وابتعد تماما عن دائرة أفكاره الأوليّة. ذلك أن الإصلاح بدأ كحركة تحرر أخلاقي - ديني تريد أن تضع الإنجيل في متناول البشر أجمعين، وتقول إنه بدلا من سلطة البابا في روما والمجامع، ينبغي أن يكوّن كل فرد مسيحيته بالاقتناع الذاتي. أما مبدأ «حرية الإنسان المسيحي» الذي وضعه لوثر، فلقد انتزعه كالفن من جذوره بلا هوادة، كما اقتلع كل أشكال الحرية الفكرية لدى الإنسان. وكلمة الله تبدو في نظره جليّة للغاية. وبناء عليه، طالب بشكل دكتاتوري بوضع خاتمة لكل الاحتمالات والتأويلات لتعاليم الله. وبثبات تام، كما الأعمدة الصخرية التي تستند عليها الكاتدرائية، ينبغي أن تبقى كلمة الله «راسخة» حتى لا تترنح الكنيسة أبدا. ولا ينبغي لها اعتبارا من الآن أن تتصرف كحقيقة تتوالد وتتجدد بلا انقطاع وتتبدل وتؤثر، بل أن تغدو ثابتة نافذة، من الآن وإلى الأبد، بحسب ما اعتمده كالفن.

وفق مطالب كالفن هذه، تكون ثمة بروتستانتية مستقيمة الرأي قد تأسست

بدلا من البابوية. وكان محقا ذاك الذي أطلق على هذا الشكل من الدكتاتوري
العقائدية لقب «الإنجيلوقراطية». إذ منذ الآن ثمة كتاب أوحد هو السيد والحَكَ
في جنيف، وهو ربّ المشرّعين، أما الداعية فهو المفسّر الوحيد لهذه الأحكام
إنه «القاضي» وفق مفهوم توراة موسى، تعلو سلطته بلا اعتراض فوق الملوك
وفوق الشعوب. الآن أصبح تفسير مجمع رجال الدين حصريا، بدلا من مجلس
المدينة والحقوق المدنية، وهو الذي يحدد ما المسموح وما الممنوع. والويل لمن
تجاسر، ولو لمرّة، على الاعتراض على هذا الإلزام! ذلك أن كلّ من يعصي
دكتاتورية الدعاة سوف يدان بتهمة التحريض ضد الله. وقريبا سوف يكتب
التعليق على الكتاب المقدس بالدم. ودائما تصبح السلطة العنفية الأصولي
التي تدين بصعودها إلى حركة تحررية، ضد فكرة الحرية بشكل أقسى م
تمارسه أي سلطة متوارثة. ودائما يصبح الذين يدينون بسلطتهم إلى ثورة ما
الأكثر تشددا والأقل تسامحا إزاء أي تجديد كان.

كل دكتاتورية تنطلق من فكرة. لكن كل فكرة تكتسب الشكل واللون من
الإنسان الذي حوّلها إلى فعل. حتما كان على الكالفنية كمبتكَر ذهني أن تشب
مبتدعها من حيث المعالم الفيزيائية. يكفي المرء أن يلقي نظرة على وجهه
ليتوقع أنها ستكون أشدّ كآبة وأقلّ مودة من أي تفسير آخر للمسيحية. وج
كالفن مثل قطاع جبل كلسيّ، مثل أرض صخرية جرداء مهجورة موحشة
يوحي تحفظّها الأخرس بأن لا بشر يسكنها، بل الله فقط. كل ما يجعل الحيا
مثمرة، وافرة، هانئة، مزهرة، دافئة، حسّية، يغيب عن ذلك الناسك ذ
الوجه المقبض، الخالي من الطيبة، الذي لا عمر له. كل شيء في ذلك الوج
البيضاوي المستطيل الكئيب، قاس ودميم، فظّ وغير متجانس: جبين ضيّ
صارم، تحته عينان مرهقتان غائرتان تلتهبان كجمر متوهج، والأنف المعقوف
الحاد بارز باستبداد وسط خدّين أجوفين، والفم النحيل كما لو أنه شُقّ بسكين

نادرا ما رآه أحد مبتسما. لا تورد دافئا يسطع من الجلد الجاف، الغائر، الجديب، الرمادي اللون. كما لو أن حمّى داخلية امتصت الدماء من وجنتيه، هي متجعدة رمادية، مريضة، شاحبة للغاية ما عدا في اللحظات القصيرة حين يلهبها الغضب ببقع مـَرَضِيـّة. عبثا تحاول تلك اللحية الطويلة المسترسلة، النبوية التوراتية (التي حاكاها طوعا تلامذته وأتباعه الشباب) أن تمنح ذلك الوجه الصفراوي الممتقع، مظهرا من مظاهر القوة البشرية. بيد أن هذه اللحية تفتقر إلى الغزارة وإلى النضارة، تنسدل بلا قوة أو سلطة أبوية، لكنها تتجدل في خصلات نحيلة كدغل مكفهر منبثق من أرض صخرية.

في اللوحات المرسومة يبدو كالفن كرجل متعب، ذهولي، ملتهب، كمن احترق بناره الداخلية، حتى ليكاد المرء يشعر بالشفقة إزاء ذلك الإنسان المنهك للغاية، المتآكل للغاية من أعماقه الذاتية. فإذا سرّح المرء بصره إلى أسفل يرتعب من منظر يديه. اليد مثل يد الطمـّاع النحيلة الخالية من اللحم ومن اللون، الباردة، النافرة العظام، كمخالب تتمكن من الاحتفاظ بما خطفته ذات مرة وتعرف كيف تتشبث به بقوة بمفاصلها البخيلة. لا يمكن أن يتخيل المرء أن تلك الأصابع العظمية لاعبت وردة ذات مرة، أو داعبت جسدا دافئا لإمرأة ما، أو امتدت إلى صديق بمودة وانشراح. إنها يد رجل لا يعرف اللين، وبفضلها يمكن المرء أن يفهم مدى ضخامة وجبروت قوة التسيّد والتحكـّم التي انبثقت من كالفن مدى الحياة.

أيّ وجه بلا إشعاع وبلا بهجة، أيّ وجه منعزل ورافض! هذه هي سحنة كالفن! يستحيل التصور أن أحدا يتمنـّى أن يعلـّق على حائط غرفته صورة ذلك الواعظ الآمر الصارم: سوف تنهال الأنفاس صقيعا منبثقا من الشفاه، ولسوف يشعر المرء دائما بوطأة هذه النظرة الحذرة المستطلعة الصادرة عن أكثر الرجال تجهما، على حياته اليومية. يمكن للمرء أن يتخيل أقرب رسم ممكن لكالفن

بريشة زورباران[20]، بالأسلوب الإسباني الانفعالي، حيث رسم النسّاك الزهّاد في لوحاته: سواد في سواد، عزلة عن العالم، سُكنى في الكهوف، أمامهم الكتاب، ودائما الكتاب، وعند الضرورة جمجمة ميت أو الصليب كرمز وحيد للحياة الروحية، على أن تحيط بهم عزلة سوداء باردة منيعة. ذلك أن الصورة التي لصقت بكالفن مدى الحياة تجمدت في إطار المحترم المتباعد إنسانيا. منذ سنيّ الشباب الأولى وهو يرتدي ذلك الثوب الأسود المتقشف ذاته. وسوداء هي القبعة فوق ذاك الجبين المختزل كأنها نصف قلنسوة راهب ونصف خوذة جندي. أسود هو الثوب الفضفاض المنسدل حتى الحذاء. ثوب الطبيب المكلف شفاء البشر من خطاياهم وتقيحاتهم هو زيّ القاضي الذي لا يكفّ عن معاقبتهم. أسود، دائما أسود. دائما لون الجدية والصرامة والموت. نادرا ما أظهر كالفن نفسه في صورة غير صورته أثناء أدائه الوظيفة. كان يريد أن يراه الآخرون في ثوب الواجب فقط، كخادم لله، فيهابونه، ولم يهتم بأن يحبوه كإنسان وكأخ. وكما كان قاسيا تجاه العالم، كان قاسيا بحق نفسه. طول حياته صان جسده بالطهارة، مكتفيا بالحد الأدنى الضروري من التغذية والراحة، انطلاقا من مبدأ أن سلامة الجسد لصالح الروح. ثلاث ساعات أو أربع فقط للنوم في الليل. وجبة واحدة بسيطة يوميا، وهذه يلتهمها بسرعة وعينه ترنو إلى الكتاب المفتوح بجواره. لا نزهة على الإطلاق، لا لهو، لا بهجة، لا ترفيه، وخصوصا لا متعة حقيقية. وفي النتيجة لم يعش كالفن لنفسه ساعة واحدة إذ انحصر شغله المتعصب في الروحانيات، تفكيرا وكتابة وعملا ونضالا.

يعتبر الغياب التام للهو والانعدام الدائم للشباب، من السمات المميزة لسجايا كالفن، فلا عجب أنه كان في مذهبه الأكثر خطورة. وعلى حين كان

---

(٢٠) Zurbaran.

الإصلاحيون الآخرون يعتقدون أنهم يقدمون إلى الله أغلى خدمة إذ يقبلون من يديه شاكرين كل هبات الحياة التي منحهم إياها، وبينما استمتعوا كبشر أصحاء طبيعيين بالصحة وبمتع النفس، وبينما تسفينغلي في أول تكليف له كقسيس خلف وراءه ابنا غير شرعي، وبينما صرّح لوثر مرة وهو يضحك «إذا تمتّعت الزوجة فلا بأس من الخادمة»، وحين أكل هؤلاء هنيئا وشربوا مريئا وقهقهوا، كان كالفن يكبت تماما كلّ ما هو حسّي لديه، أو لا يتواجد إلا في كنف الظلال. وكمثقف متعصب استغرق حياته في الفكر وفي الكلمة. لا حقيقة لديه إلاّ في المنطق الصريح. لا يستوعب ولا يسمح إلاّ بما هو قويم، ولم يقبل مرة بما هو خارج عن المألوف. ذلك المتقشف الصارم لم يطلب مرة ولم يرحب بأيّ متعة كانت. لا شراب ولا خمر ولا نسوة ولا فنون ولا أيّ من عطايا الله على الأرض. لمرة واحدة – وكانت بقصد مراعاة تعاليم الإنجيل – قرر البحث عن زوجة. تمت الخطبة بشكل بارد ومضحك وخارج عن الذاتية. بدلا من أن يبحث عنها بنفسه في محيطه، كلّف الأصدقاء أن يختاروا له زوجة مناسبة. كما لو أن الأمر يتعلّق بطلب شراء كتاب أو قلنسوة جديدة. وكان من الممكن أن ينصحوا لعديم الإحساس العبوس بفتاة خليعة. وأخيرا تزوج خائب الرجا من أرملة رجل كان هو أعاده إلى البروتستانتية من مذهب المعمدانيين الجدد. لكن القدر أبى عليه أن يكون سعيدا. الطفل الوحيد الذي أنجبته زوجته لم يكن قابلا للحياة. يكاد المرء يودّ القول: مفهوم! لأنه وُلِد من ذاك الدم الشاحب والحواس الباردة. توفي الوليد بعد بضعة أيام، ثم ما لبثت زوجته أن تركته أرملا، ما جعله وهو في السادسة والثلاثين، يعيش بقية العمر لا من دون زواج فحسب، وإنما من دون امرأة أيضا. وحتى وفاته، أي خلال أفضل عشرين سنة في عمر الرجل، لم يرغب ذلك الزاهد في لمس امرأة أخرى. تفرّغ للروحانيات، لشؤون الدين ولإلقاء العظات.

لكن جسد الإنسان يطرح، تماما مثل الروح، حقه في أن يُطلق عقاله، وهو يعاقب بقسوة الذي اعتصب منه هذا الحق. وكل عضو في الجسد الحيّ يرغب غريزيا في أن يؤدي الوظيفة الطبيعية الخاصة به بالتمام. يريد الدم أن يتدفق وأن ينتشر بشكل جارف، والقلب أن يخفق بحرارة أكثر، والرئة أن تصدح مهللة، والعضلات أن تنشط، والمنيّ أن يُصرَّف، والذي تبعا لعقله يعرقل هذه الرغبات الحيوية باستمرار ويعارضها، لا يلبث أن يستفز تمرد الأعضاء في نهاية المطاف. مرعب هو الثأر الذي مارسه جسد كالفن ضد كابحه. لكي تثبت الأعصاب وجودها إزاء الناسك المستبد الذي تعامل معها كأنها ليست كائنة أبدا، سامته العذابات المتواصلة. ربما هم قلة، أولئك المثقفون الذين عانت أبدانهم ما عاناه كالفن طول العمر. بلا توقّف، العلّة تلي العلة. وتكاد رسائل كالفن كافة تخبر عن مداهمة خبيثة لمرض جديد مفاجيء. تارة هو داء الشقيقة الذي رماه طريح الفراش أياما عدّة، وتارة آلام المعدة، الصداع، البواسير، المغص المعوي، نزلات البرد، تقلصات الأعصاب، نزيف الدم، حصى في المرارة، دمامل. وتارة الحرارة المرتفعة وارتعاشات برديّة، روماتيزم وآلام في المثانة. بصورة مستمرة يجب أن يسهر عليه الأطباء، إذ ما من عضو في ذلك الجسد الهزيل الواهي إلا ويصدر اضطرابات وآلاما. ذات مرة كتب كالفن وهو يتأوه «صحتي تشبه موتا مستديما».

بيد أن ذلك الرجل اختار لنفسه الشعار التالي: «بقوة متعاظمة أنهض من أعماق اليأس». هذه الطاقة المجنونة لم تسمح بأن يُسْلَب ساعة من عمله. أما وجسده يعيقه دائما، فإن كالفن لا يكفّ عن تذكيره مجددا بالإرادة العليا للروح. حتى إذا منعته الحمّى من ارتقاء المنبر، فإنه يدخل الكنيسة ليلقي الخطبة وهو محمول على كرسي. وإذا تعذر عليه حضور اجتماعات مجلس المدينة، فإن الأعضاء يعقدون الجلسات في داره. وإذا لزم الفراش مرتعشا

بسبب شدة الحمى، وأثقلت على جسده أربعة أو خمسة أغطية مدفئة، وظلّ يرتعش من البرد القارس تارة ومن الحمى تارة أخرى، جلس إلى جواره طالبا لاهوت أو ثلاثة، يتناوبون على كتابة ما يمليه عليهم. إذا ذهب ذات يوم لزيارة أصدقاء في الريف المجاور وليستنشق الهواء النقي، رافقته السكرتارية في العربة. وما إن يصل، حتى يوفد المراسيل تباعا ذهابا وإيابا بين الضيعة والمدينة. ما إن يمسك القلم حتى يبدأ العمل. لا يمكن أن يتخيل المرء كالفن من دون عمل، وهو جنّ الاجتهاد الذي اشتغل العمر كله من دون راحة. حين تكون البيوت لمّا تزل مستغرقة في النوم، والصباح لم يستيقظ بعد، ترى القنديل مشتعلا فوق مكتبه في داره في شارع الرهبان[٢١]. ثم يتكرر المشهد في الليل المتأخر، بعد منتصف الليل، حين يكون الكل استغرقوا في الراحة، يبقى ذلك الضوء المشتعل أبدا، منبعثا من نافذته. جهده لا يحدّه وصف، حتى يمكن للمرء أن يعتقد أنه كان يشتغل بأربعة أو خمسة عقول في آنٍ معًا. وفي الحقيقة، كان ذلك الرجل المريض بصفة متواصلة، يقوم بالأعمال المختلفة في أربع أو خمس وظائف في الوقت ذاته. المهمة الحقيقية الوحيدة التي أسندت إليه هي وظيفة الواعظ في كاتدرائية القديس بطرس. أما بقية الوظائف، فاستقطبتها إليه تدريجيا رغبته الهستيرية في السلطة. وبرغم أن العظات التي ألقاها في تلك الكنيسة تملأ وحدها بالكتب العديدة رفوف خزانة بعرض الحائط، وبرغم أن ناسخا يجب أن يتفرغ طول حياته لنسخها، فما هي سوى جزء ضئيل من مجمل مشاغله. إذ هو رئيس المجمع الديني الذي لا يتخذ قرارا من دونه، وهو مؤلف عدد لا يحصى من الكتب اللاهوتية والجدلية، وهو مترجم الكتاب المقدس، وهو مؤسس الجامعة وأول قسم للدراسات اللاهوتية فيها، وهو المستشار الدائم في مجلس المدينة، وهو الضابط السياسي في هيئة أركان الحرب في

(٢١) rue des chanoines.

قيادة الجيش إبان حروب الأديان، وهو رأس الدبلوماسية ومنظّم البروتستانتية. كان «وزير الكلمة المقدسة» هذا يقود بمفرده كل هذه الوزارات في دولته الدينية (الثيوقراطية). يشرف على تقارير القساوسة الآتية من فرنسا، اسكتلندا، إنكلترا وهولندا. أقام قسما للدعاية في الخارج، وبوساطة أصحاب مطابع الكتب والناشرين أنشأ إدارة للاستخبارات العامة انتشرت في عموم الأرض. كان يتناقش مع الرؤساء البروتستانتيين الآخرين ويتفاوض مع كبار النبلاء والدبلوماسيين. كل يوم، وعلى مدار الساعة تقريبا، يستقبل ضيوفا من الخارج. ما من طالب أو من لاهوتي شاب يمرّ بجنيف إلا ويأتي إليه يسأله النصح أو ليعبّر له عن احترامه الكامل. منزله يشبه إدارة البريد، أو مكتب الاستعلامات للشؤون العامة والأفراد. وذات مرة كتب بحسرة أنه لا يستطيع أن يتذكر أنه أتيحت له ساعتان خلال وقت العمل كله، نعم فيهما بالراحة. من البلاد البعيدة، من المجر وبولندا، يستلم يوميا رسائل من رجاله الذين يثق بهم، في الوقت نفسه عليه أن يتولّى الرعاية الروحية ويقدم المشورة الشخصية لعدد لا يحصى من الذين يفدون إليه طلبا للعون. تارة ثمة لاجيء يرغب في الإقامة بالمدينة وفي أن يجلب عائلته: كالفن يجمع له المال ويدبّر له السكن والعمل. هنا أحدهم يريد أن يتزوج وهناك أحدهم يريد أن يطلّق: كلا الطريقين يؤدي إلى كالفن. ما من حدث روحي ينجز في جنيف من دون مشورته وقراره. ويا ليت متعته الاستبدادية تنحصر في إطار مملكته فقط، أي في الشؤون الروحية! لكن بالنسبة إلى من هو مثل كالفن لا حدود لسلطته، لأنه كثيوقراطي يريد أن تخضع الأمور الدنيوية للديني والآلهي. بقوة، ألقى بقبضته الغليظة على كل شيء في المدينة: يكاد لا يمر يوم من دون أن يقرأ المرء في محاضر مجلس المدينة ملاحظة من نوع: «في هذا الأمر ينبغي أن يُسأل المعلم كالفن». عينه الساهرة الدائبة النشاط لا يفوتها شيء ولا تغفل عن شيء. وكان من الممكن

أن يعجب المرء بهذا الذهن المعجز الناشط دوما، لولا أن مثل هذا الزهد الروحي يحمل في الوقت نفسه خطرا هائلا. ذلك أن الذي يمتنع شخصيا عن الاستمتاع بملذات الحياة تماما، سيريد أن يجعل ذلك الحرمان – ولو أنه في حالته بمحض اختياره – مشرّعا بقانون ومطبّقا كمثال على الجميع، وسوف يحاول أن يفرض على الآخرين ما يراه هو طبيعيا، حتى وإن كان غير طبيعي في نظرهم. ودائما كان الزاهد – وروبسبيار مثالا – أخطر أنماط الطغاة. والذي لم يعش حياة مفعمة بالإنسانية والبهجة، يغدو دائما عديم الإنسانية تجاه الآخرين.

بيد أن التعفف والصرامة بلا هوادة هي من أسس بناء المذهب الكالفني. وبحسب مفهومه لا يحق للإنسان بأي حال من الأحوال، أن يعبر الدنيا منتصبا مرفوع الهامة ناصع الضمير، بل كسير النفس شاعرا بالتقصير العضال، عليه أن يلوذ دائما بـ «مخافة الله» بخضوع وإذعان. ومنذ البدء تضع الأخلاق الطهرية الكالفنية مفهوم الانشراح واللذة البسيطة مساويا «للخطيئة». وكلّ ما يشكل حياتنا الدنيوية بالترصيع والإثراء، كلّ ما يريح النفس ويغبطها ويرفع من شأنها ويحررها ويخفف الوطء عنها – والفن في المقام الأول – تمقته مثل فيض قيحي مقيت. وحتى في المملكة الروحية وكانت منذ الأزل وما زالت مرتبطة بالصوفي والطقوسي، جلب إليها كالفن موضوعيته الإيديولوجية. وبلا استثناء، سوف يبعد عن الكنيسة والطقوس كلّ ما يشغل الروح، كلّ ما يهدىء المشاعر ويجعلها مرتاحة بلا حدود. إذ ليس بنفس متأثرة اصطناعيا ينبغي أن يدنو المؤمن من الذات الآلهية، وليس عبر ضباب البخور، وليس مسحورا بالموسيقى أو مضللا بجمالية الصور والمنحوتات التي يزعم أنها ورعة (وهي في الحقيقة ملعونة). الحقيقة لا تكون إلا في الوضوح، ولا يكون اليقين إلا في كلمات الله الجليّة. لذلك ينبغي التخلص من «عبادة الأوثان» وأن تلقى

التماثيل والأيقونات خارج الكنيسة. ينبغي التخلص من الأثواب الرسمية الملونة، من كتب القداس ومن بيوت القربان من مائدة المسيح، فالرب ليس بحاجة إلى فخامة. فلتغرب فورا مخدرات النفس المبهجة الغناء: لا موسيقى، لا عزف على الأرغن خلال القداس! بل إن أجراس الكنائس ينبغي أن يتوقف قرعها في جنيف اعتبارا من الآن: ليس بوساطة معدن ميّت يجب تذكير المؤمن الحقّ بواجبه. وليس بالمظاهر الخارجية يتم إثبات التقوى، ولا بالأضاحي والتبرعات، لذا ينبغي التخلص من القداديس الاحتفالية وكل المراسم الخاصة بالكنيسة. ولتختفِ الرموز والمناسبات كافة: ينبغي وضع نهاية لكل الاحتفالات والأعياد. بتمزيفة واحدة محا كالفن أيام الأعياد من الرزنامة. لم تلبث أعياد الميلاد والفصح التي كان يحتفل بها في السراديب الرومانية أن ألغيت، وأيام أعياد القديسين شُطبت، والعادات المألوفة مُنعت: آله كالفن لا يريد أن يُحتفل به، ولا حتى أن يُعبد مرة، إنما أن يكون مهابا دائما. إنه الاستكبار إذ يحاول المرء بالمتعة والغزارة أن يفرض نفسه عليه، عوض أن يخدمه من بعيد بمخافة دائمة. هنا يكمن المعنى الأعمق في إعادة التقييم الكالفنية: لكي ترفع المقدس بأعلى قدر ممكن فوق العالم، يجب أن تخفض الدنيوي إلى أسفل درك ممكن. ولكي تمنح أفكار الله الوقار التام، ينبغي أن تحرم أفكار الإنسان حقها وتحط من شأنها. هذا المصلح الحاقد على الدنيا، لم يكن ممكنا له أن يرى في الإنسانية شيئا غير جمهرة من الخاطئين غير القابلين للشفاء أو للانضباط. وبكل ألوان الرهبة الرهبانية أمضى حياته متأذيا من اللذة المنتشرة في العالم والمتدفقة بروعة وبلا انقطاع من آلاف الينابيع. ولطالما تأوه كالفن متسائلا، أيّ مشيئة آلهية غير مفهومة جعلت مخلوقات الرب كائنات ناقصة ولا أخلاقية، ميّالة دائما إلى الرذيلة، عاجزة عن إدراك المقدس، متلهفة على التيه في الخطيئة. وكانت الرعشة تنتابه في كل مرة تأمل فيها أقرانه من البشر.

وربما لم يحدث على الإطلاق أن مؤسسا كبيرا لمذهب ديني انتقص من كرامة الإنسان ونزل بها إلى درك خفيض ومـُذلّ، معتبرا إياه «حيوانا كاسرا غير قابل للترويض»، بل وصفه بما هو أسوأ «قمامة»، وكتب بالحرف الواحد في مؤلفه «التعاليم المسيحية» يقول: «إذا قيّم المرء الإنسان على استعداداته الطبيعية فلن يعثر لديه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه على أصغر أثر للخير. والقليل المتبقي لديه، الذي يستحق الثناء عليه، هو من نعمة الله. كل عدالتنا انعدام للعدالة، كل ما نستحقه قذارة، صيتُنا عارٌ. وأفضل الأشياء التي تصدر عنّا، تراها دائما ممزوجة بالقذارة ملوّثة بالفساد، من جرّاء نجاسة البدن».

من البداهة القول، إن الذي بمنطق الفلسفة يعتبر الإنسان من مخلوقات الله العاقة الفاشلة، لن يتقبل على الإطلاق كلاهوتي وسياسي فكرة أن يكون الله أجاز لمثل هذا المشؤوم أدنى قدر من الحرية والاستقلال. لذلك ينبغي بلا هوادة، أن يُحجَر على هذا المخلوق الفاسد والمحفوف بالمهالك من شغفه بالحياة، إذ أن الإنسان لو ترك على سجيته، فنفسه غير قادرة إلا على إنتاج الشرّ. يلزم لمرّة كافية للأبد، أن يُحطّم العمود الفقري للمكابرة لدى ابن آدم المتمثلة في زعمه أنه صاحب حق في أن يؤلف علاقته مع الله ومع العالم الدنيوي على مقاس شخصيته. وكلّما حُطمت هذه الإرادة الذاتية بأشدّ أنواع القسوة، وكلما أخضع الإنسان وكُبح جماح شهواته، كلما كان ذلك أفضل له. لا حرية له، لأنه سوف يسيء استعمالها دائما. وما بسوى القوة وحدها يُقزَّم قدْره أمام العظمة الآلهية! ولا يغرق الفرد في الجماعة إلا بإيقاظه من سكْرة غطرسته وبتخجيله حتى يتجاوب من دون اعتراض قط مع القطيع الورع الطيّع، حتى يذوب كلّ ما هو خارج النسق في النظام العام، بلا أثر يقتفى.

من أجل هذا الحرمان العنيف من الحقوق المنفـّذ ضد الفردية، ومن أجل

كلّ استلاب وحشيّ للفرد لصالح الجماعة، يطبّق كالفن منهجية معينة: «الإنضباط» الشهير، «التربية الكنسية». حتى يومنا هذا لم يُفرض على البشرية لجامٌ أشدّ للإمساك بزمام الأمور. منذ الساعة الأولى، حَظَرَ ذلك التنظيمي العبقري «قطيعه»، «جماعته»، بشبكة مسيّجة من المواد القانونية والممنوعات – وقد سُمّيت «مراسيم» – وأنشأ في الوقت نفسه إدارة تسهر على تطبيق تقاليده الرهيبة. وحدد مهمات «المجمع الديني» من البداية بطريقة غامضة للغاية «أن يرعى الطائفة لكي يُمَجَّد اسم الرب بنقاء». بيد أن مجال التأثير لهذه الرقابة الأخلاقية بدا ظاهريا وكأنه محصور في الحياة الدينية، إلا أنه من خلال الارتباط التام بين الدنيوي والعقيدي الديني في مفهوم الدولة الكالفني التوتاليتاري سقطت مظاهر الحياة الخاصة بطريقة آلية تحت رقابة السلطات الرسمية. هكذا فُرِض بصراحة على زبانية المجمع الديني «القدامى» أن يكونوا العيون الساهرة على حياة الأفراد. لا شيء يهرب من انتباههم، لا فيما يخص الكلام المحكي فحسب، وإنما الأفكار والآراء أيضا.

ومن المفهوم أنه اعتبارا من ذلك اليوم، منذ أعلنت هذه الرقابة الكونية، انعدمت الحياة الخاصة في جنيف تماما. بقفزة واحدة، تجاوز كالفن محاكم التفتيش الكاثوليكية، التي في كل الأحوال لم ترسل مستطلعا أو مخبرا إلا بعد ورود إخبار أو وشاية. لكن في جنيف، وفق النظام العقائدي الكالفني، يعتبر كلّ إنسان مهيّئا للشرّ وكل فرد متهما سلفا بالخطيئة، وعليه بالتالي أن يقبل بالرقابة. منذ عودة كالفن إلى جنيف أصبحت البيوت على الفور مفتوحة الأبواب. أما الجدران فصنعت فجأة من زجاج. في كل لحظة، في الليل كما في النهار، يمكن أن يُطرق باب البيت بقوة وأن يظهر عنده أحد أعضاء الشرطة الروحية بداعي «الزيارة» من دون أن يتمتع المواطن بحق الاعتراض. الأشد ثراء كما الأكثر فقرا، الأكبر كما الأصغر، عليه أن يخضع مرة في

الشهر، على الأقل، لاستجواب الشرطة الأخلاقية لساعات طوال. ذلك أنه بحسب «المراسيم»: «ينبغي أن يتاح للموظف الوقت الكافي ليجري التحقيق بهدوء». كان على رجال محترمين ذوي خبرة، غزا الشيب شعرهم، أن يخضعوا كتلاميذ مدارس إلى امتحان، يسألون فيه: هل حفظوا الصلاة عن ظهر قلب؟ أو: لماذا تخلفوا عن حضور الخطبة الأخيرة لكالفن؟ لكن الزيارة لا تنتهي إطلاقا عند هذا الحد من التعليمية الدينية أو الأخلاقية. ذلك أن هذه الضابطية الأخلاقية تدسّ أنفها في كل شيء. إنها تتأكد من أثواب النساء وما إذا كانت أطول أو أقصر من اللازم، ما إذا كانت مزيّنة بفيض من الكشاكش، ما إذا كانت ذات تفصيلة خطيرة. إنها تتفحّص الشعر وما إذا كان معقودا إلى فوق بتسريحة ثرية. إنها تعدّ الخواتم في الأصابع، والأحذية في الخزائن. ومن غرفة التزيين تتوجه إلى المطبخ للمراقبة: هل تجاوزت الوجبة طبق الحساء الصغير وشرحة اللحم المسموح بها؟ هل أخفيت المربّى والحلويات في مكان ما؟ ولا يلبث الشرطي الورع أن يكمل جولته في المنزل. إنه ينقّب في خزانة الكتب ليرى هل بها أيّ كتاب غير ممهور بخاتم الرقابة من المجمع الديني؟ إنه يفتش في الجوارير، لعله يكتشف فيها صورة مقدسة أو مسبحة مخبأة. يستجوب الخدم عن السادة، ومن الأطفال يستقي أخبار أهلهم. وهو في الوقت نفسه يعطي أذنا صاغية لما يجري في الشارع: هل يغني أحدهم أغنية وثنية؟ هل يعزف الموسيقى؟ أو يستمتع بالرذيلة الشيطانية، أي البهجة؟ منذ ذلك الحين بدأت في جنيف حملات المطاردة تتعقب كل ممارسة لأيّ من أشكال الترفيه، لأيّ من أنواع «الفسق». الويل للمواطن الذي يُضبط متلبّسا برغبة زيارة الحانة بعد دوام العمل ليرتشف كأسا من النبيذ أو ليلعب بالنرد أو الورق! يوميا تنطلق مثل هذه المطاردات في إثر البشر، ولا يعرف جواسيس الأخلاق الراحة حتى في يوم الأحد! إذ إضافة إلى جولاتهم التفقدية في

الشوارع، يقومون من بعد بقرع الأبواب من بيت إلى بيت، للتأكد من عدم وجود كسول أو مهمل فضّل أن يبقى في سريره بدلا من أن يغتبط بسماع عظة السيد كالفن. في الوقت نفسه يتوزع المراقبون في أنحاء الكنيسة، مستعدّين للتبليغ عن الذين وصلوا متأخرين إلى بيت الله أو الذين خطر في بالهم مغادرته قبل الأوان. في كل مكان ومن دون تعب، يعمل حرسُ الأخلاق التابعون للسلطة. في الليل، يطوف هؤلاء بالعرائش المعتمة على ضفاف نهر الرون للتأكد من عدم وجود زوج من الخطأة يتبادلان اللثمات الصغيرة. وفي الفنادق ينقبّون في أسرّة النزلاء وفي حقائبهم. يفتحون كل رسالة صادرة من جنيف أو واردة إليها. أما اليقظة الرائعة التنظيم التابعة للمجمع الديني فهي تمتد إلى ما وراء أسوار المدينة، إلى عربات السفر، القوارب، السفن، إلى أسواق المدن في الخارج، إلى الفنادق المجاورة. في كل مكان يتواجد جواسيسه المأجورون. كل قول أو امتعاض يصدر في باريس أو ليون، سوف يتم التبليغ عنه بلا ريب. أما ما يجعل هذه الرقابة التي لا تطاق أساسا، أشدّ تجاوزا للتحمل، فهو أنه إلى جانب أولئك الجواسيس الذين يتقاضون أجرا، أضيفَ عدد لا يحصى من المتطوعين. ذلك أنه، أينما أقدمت دولة على ضبط مواطنيها بالترهيب، تزهر تلك النبتة المقيتة: نبتة الوشاية الطوعية. وحيث يُسْمح بالوشاية، أو بالأحرى حيث تغدو مرغوبة، يتحول بعض البشر الشرفاء إلى وشاة بسبب الخوف. لا لشيء إلا ليبعد التهمة عنه أنه «ارتكب مخالفة ضد شرف الله»، يرصد كل مواطن مواطنه الآخر ويتفحصه. هذه المغالاة في الخوف، المتلهفة، تسبق الواشين. وفي الواقع، كان بوسع المجمع الديني خلال بضع سنوات أن يوقف كلّ رقابة، إذ أن المواطنين أجمعين أصبحوا رقباء متطوعين. ليلا ونهارا، تدفق فيض الوشايات العكر وأبقى عجلة الطاحون في محاكم التفتيش الروحية في حركة دائبة.

في ظل هذا الإرهاب الأخلاقي، كيف يشعر المرء بالأمان وبأنه ليس مذنبا بارتكاب أدنى مخالفة ضد وصايا الله، حيث أن كالفن، في الواقع، منع كل ما يجعل الحياة مبهجة وجديرة بالعيش؟ ممنوعة هي المسارح، الملاهي، الأعياد الشعبية، الرقص واللعب بكل أشكاله، حتى الرياضة البريئة مثل التزلج على الجليد تثير حقد كالفن المرير. ممنوع كل ملبس ليس بالمتقشف، أشبه بزيّ الثوب الرهباني، وبالتالي يحظر على الخياطين تفصيل أزياء جديدة من دون إذن مجلس المدينة. ممنوع على الفتيات ارتداء الفساتين الحريرية قبل سن الخامسة عشرة. وبعد هذه السنّ تحظر الفساتين المخملية وكل الأثواب المطرزة بالذهب أو بالفضة، وكل الأزرار والأشرطة والبروشات الذهبية، وبشكل عام كل استخدام للذهب والمجوهرات. ممنوعة على الرجال الشعور الطويلة. ممنوعة على النسوة التسريحات المتأنقة وتجعيد الشعر بالمكواة، والقبعات المطرزة بالدانتيلا، القفازات، الكشكشات، الأحذية ذات الثقوب. ممنوع استخدام الهوادج والعربات. ممنوعة الاحتفالات العائلية التي يحضرها أكثر من عشرين شخصا. في العمادات والخطوبات يحظر تقديم أكثر من عدد محدد من الأطباق أو الحلويات أو مربّى الفواكه. ممنوع شرب الخمور، إلا النبيذ الأحمر المصنّع محليا. ممنوعة لحوم الطيور والطرائد والمعجنات وشرب الأنخاب. ممنوع على الزوجين في فترة العرس والأشهر الستة التالية، تبادل أيّ نوع من الهدايا. ومن البداهة القول، ممنوعة العلاقات خارج إطار الزوجية. وبالنسبة للخطيبين، لا تساهل بهذا الصدد في مرحلة الخطوبة. ممنوع على المواطنين ارتياد الحانات. ممنوع على النادل أن يقدم الطعام أو الشراب للغرباء إلا بعد أن يؤدوا الصلاة. إضافة إلى ذلك، فهو ملزم بواجب القيام بمهمة الجاسوس على الرواد وعليه أن ينتبه بعناية إلى كل قول أو سلوك مشبوه. ممنوع طباعة أي كتاب من دون تصريح. ممنوع إرسال الرسائل إلى الخارج. ممنوع الفن بكل أشكاله. ممنوعة هي الصور المقدسة والمنحوتات. ممنوعة

هي الموسيقى. حتى أثناء ترتيل المزامير تأمر المراسيم «أن يتمّ الانتباه بعناية» أي أن الإصغاء لا ينبعي أن يتوجّه إلى اللحن، وإنما إلى روحانية الكلمات ومعناها، ذلك أن الرب ينبغي أن يُمجّد بالكلمة الحيّة وحدها. لم يعد مسموحا على الإطلاق للأهل أن يختاروا بحرية الأسماء الأولى لأطفالهم. ممنوعة أسماء متداولة منذ قرون مثل كلود أو أماديه، لأنها غير واردة في الكتاب المقدس، وعوضا عنها أسماء أخرى مثل اسحق أو آدم. ممنوع تلاوة صلاة «أبانا الذي في السموات» باللغة اللاتينية. ممنوع الاحتفال بأعياد الميلاد أو الفصح. ممنوع كل احتفال يقطع رتابة الوجود الصارمة. ومن البداهة القول، ممنوع كلّ ظلّ أو بريق للحرية الفكرية في الكلمة المكتوبة أو المحكية. وممنوع أيّ نقد لدكتاتورية كالفن، إذ يعتبر ذلك جريمة الجرائم. وعلى إيقاع الطبول أعلن بصراحة تامة «ممنوع الكلام في الشؤون العامة خارج إطار المجلس».

ممنوع، ممنوع، ممنوع: يا له من إيقاع مرعب! حتى ليتساءل المرء بذهول: ما الذي يمكن أن يبقى مسموحا لسكان جنيف بعد كل هذه الممنوعات؟ القليل، القليل. مسموح هو العيش والموت. العمل والطاعة والذهاب إلى الكنيسة. أو بمعنى أدق، الذهاب إلى الكنيسة ليس مسألة مسموح، إنما هو إلزام بصيغة اقتراح مفروض تحت طائلة التعرّض لأقصى العقوبات. الويل للمواطن الذي يتخلف عن سماع الموعظة في أبرشيته: مرتين يوم الأحد وثلاث مرات في الأسبوع، إضافة إلى ساعات «تطهير النفس من الشوائب» للأطفال. لا يمكن أن يمرّ يوم أحد يخففّ فيه نير الإلزام القهري. وبلا هوادة تتوالى السلسلة: الواجب، ثم الواجب، فالواجب. بعد الخدمة القاسية من أجل الحصول على الخبز اليومي، تأتي خدمة الرب. كل أيام الأسبوع للعمل، ويوم الأحد للكنيسة. وهكذا، هكذا فقط، يمكن قتل الشيطان داخل الإنسان، وبالتالي قتل كل حرية وكل بهجة في الحياة حتما.

لكن المرء يتساءل متعجبا: كيف يمكن لمدينة جمهورية التقاليد، عاشت الحرية الهلفتية عشرات السنين، أن تتحمل مثل هذه الدكتاتورية، فتغدو سطوة سافونارولا هيّنة بالمقارنة. كيف تسنّى لشعب عاش حتى الآن بالمرح المعروف لدى أهل الجنوب، أن يقبل بمثل هذا الإخماد لمتعة بهجة الحياة لديه؟ كيف قُدّر لمفكر واحد زاهد أن يغتصب كليّا متعة الوجود لدى الآلاف والآلاف؟ سرّ كالفن ليس بالجديد، وهو قديم أزلي لدى كل دكتاتورية: إنه الإرهاب. لا يخدعنّ المرء نفسه. العنف الذي لا يتراجع أمام أيّ شيء، والذي يستهزيء بالإنسانية بوصفها ضعفا، لهو قوة جبارة. التكرار المنهجي لإرهاب الدولة يشلّ إرادة الأفراد، يزيل ويلغي روح الجماعة. كمثل مرض مُضْنٍ يتسلل إلى النفوس ولا يلبث - وهنا آخر أسراره - الجبن الجماعي أن يغدو معينه والمتستر على جرائمه، لأن كل فرد إذ يشعر بنفسه مشتبها به، يشتبه بالآخرين. ومن الرعب، يهرع الخائفون سابقين أوامر ونواهي الطغاة. دائما تمكنت سلطة إرهاب منظّمة من اجتراح المعجزات. وعندما تعلّق الأمر بسلطته، لم يتردد كالفن أبدا في جعل مثل هذه المعجزات حقائق، ولم يتجاوزه في القسوة أيّ من الطغاة الروحانيين. ولا تُبرَّر قسوته هذه لكونها ، مثل شيم كالفن جميعا، مجرد مُنْتَج لأيديولوجيته. من الثابت أن هذا الرجل الورع، المرهف الأعصاب، المثقف، كان يشعر بمنتهى التقزز من منظر الدم، وكان لا يطيق - كما ذكر شخصيا - الوحشية، لم يكن بوسعه أن يتفرج مرة واحدة على عمليات التعذيب أو الإحراق المُمَارَسَة في جنيف. على أن هذه هي أسوأ ذنوب المنظّر: إنه ذاته الذي لا أعصاب لديه ليشاهد مرة واحدة عملية إعدام، أو لينفـّذها - مرة أخرى روبسبيار نموذجا - لا يرى حرجا في أنه أمر بتنفيذ مئات من هذه الأحكام ما دام يشعر بأنه يحظى بتغطية داخلية من أفكاره ونظرياته ونظامه. وضع كالفن في حسبانه، باعتباره أعلى رتبة في نظامه الذي أسّسه،

أن يكون قاسيا وبلا رحمة ضد كل «مرتكب خطيئة» وأن يطبّق هذا النظام بحذافيره، معتبرا ذلك من وجهة النظر العقائدية، تكليفا ألقى به الله على عاتقه، وبالتالي رأى لزاما عليه أن يربّي طبيعته الذاتية بلا هوادة، أن يقسّيها بتعويد منهجي على الصرامة، أن «يتدرب» بإصرار كما لو أن الأمر يتعلق بالفن الرفيع «أعوّد نفسي بصرامتي على الكفاح ضد الرذيلة». بطريقة مذهلة، نجح هذا الرجل ذو الإرادة الصلبة في تحويل عملية الترويض الذاتي على الانضباط إلى أمر يخلو تماما من الطيبة. وهو صرّح مرّة علانية أنه من الأفضل لديه أن يرى بريئا يسام العقاب على أن يرى مذنبا يفلت من حساب الله. وحدث مرة أن طالت مدة تنفيذ إحدى عمليات الإعدام بسبب رعونة الجلاد وتحولت إلى تعذيب غير مقصود، كتب كالفن معتذرا إلى فاريل: «من المؤكد أن المحكوم عليه ما كان ليعاني من إطالة أمد هذه العذابات لولا أن إرادة الرب الخاصة قضت بذلك». وكان كالفن يجادل قائلا: «أفضل للمرء أن يكون قاسيا من أن يكون رخوا، إذا كان ذلك لصالح «شرف الله». لا يمكن أن تتشكل الإنسانية الخلوقة إلا من خلال العقوبات المتواصلة.

و في عالم ما زال يعيش أجواء القرون الوسطى ليس من الصعب أن نتخيل كم هو قاتل أن نطبّق مثل هذه النظرية عن المسيح الذي لا تسامح لديه، عن الآله الذي ينبغي حماية شرفه من دون انقطاع. خلال السنوات الخمس الأولى من عهد كالفن، نُفّذت في جنيف التي تعتبر مدينة صغيرة نسبيا، أحكام الشنق في ثلاثة عشر رجلا، وقطعت عشرة رؤوس، وجرت خمس وثلاثون حالة إحراق، إضافة إلى ستة وسبعين رجلا تمت مطاردتهم من البيوت والأفنية، من دون إحصاء العديدين الذين تمكنوا من الفرار من الإرهاب في الوقت المناسب. وما لبثت السجون في «أورشليم الجديدة» أن امتلأت عن آخرها، حتى أن مدير السجن أبلغ مجلس المدينة أنه لم يعد بوسعه استقبال أي سجين

جديد. بل إن التعذيبات الشنيعة كانت تمارس ليس على الذين صدرت بحقهم أحكام فحسب، وإنما على المشتبه بهم أيضا، إلى حد أن المتهمين آثروا أن ينتحروا. ذلك أفضل لهم من أن تنهك أجسادهم في أقبية التعذيب، ما دفع مجلس المدينة إلى أن يصدر مرسوما يقضي بأن يبقى المساجين مكبلي الأيدي ليلا ونهارا «لتجنب حالات مشابهة». بيد أن أحدا لم يسمع من كالفن كلمة يدعو فيها إلى إلغاء هذه الفظائع. بل بالعكس، بناء على اقتراحاته الصريحة، أضيفت عملية «تسخين الأقدام» إضافة إلى بَرْيِّ الأصابع وحبال التوثيق أثناء الاستجوابات الأليمة. مخيف هو الثمن الذي دفعته المدينة مقابل «النظام» و«التربية». ذلك أن جنيف لم تعرف في تاريخها هذا العدد الهائل من الأحكام الدامية والعقوبات والتعذيبات، كمثل الذي عرفته منذ أن حكم كالفن باسم الله. لذلك سمّى بلزاك، وعن حق، الإرهاب الديني الكالفني أشدّ رعبا من الحلقات الدموية الماجنة التي مارستها الثورة الفرنسية: «كان اللاتسامح الديني العنيف لدى كالفن، من الناحية الأخلاقية، أشد تماسكا وشراسة من اللاتسامح السياسي لدى روبسبيار. ولو أعطي مجالا أوسع للتأثير، أرحب من جنيف، لكان أسال من الدماء أكثر مما أسال الرسول المرعب للعدالة السياسية».

والحال أن ليس عبر هذه الأحكام الدامية الهمجية فحسب حطّم كالفن الشعور بالحرية لدى أهل جنيف. أشغال الاستنزاف الحقيقية تولتّها عمليات الإجهاد المنهجية وإجراءات الإرهاب اليومية. ربما بدا الأمر مضحكا للوهلة الأولى أذا ما عرفنا إلى أيّ حد من السفاسف بلغت «انضباطية» كالفن. بيد أن المرء لا ينبغي له أن يستخفّ بقيمة الدهاء في هذه المنهجية. بوعي تام نسج كالفن شبكة الممنوعات بمقياس ضيّق وصغير، لكي يصبح التسلل منها مستحيلا والعيش في حرية غير ممكن. بوعي تام، راكم الممنوعات في تفاصيل صغيرة وتفاهات حتى يشعر معها كل فرد أنه مذنب دائما، وحتى تتولد لديه حالة

مستديمة من الخوف إزاء السلطة التي لا يخفى عليها شيء، والقادرة على كل شيء. ذلك أنه كلما نُصبت الفخاخ يمينا ويسارا في الطريق الذي يسلكه الإنسان يوميا، كلما أصبح صعبا عليه أن يمشي حرا منتصب القامة. وفي الواقع، لن يلبث الشعور بالطمأنينة مستحيلا في جنيف، إذ أن المجمع الديني اعتبر كل الأنفاس غير المبالية بمثابة «خطيئة». يكفي أن يتصفح المرء لائحة محاضر مجلس المدينة حتى يدرك دهاء منهج التهديد هذا: مواطن ضحك أثناء مراسم معمودية: ثلاثة أيام سجن. آخر غلبه النعاس أثناء إلقاء العظة بسبب شعوره بالإرهاق من حرّ الصيف: سجن. عمال تناولوا فطائر محشوة خلال وجبة الفطور: ثلاثة أيام ماء وخبز فقط. مواطنان لعبا بالكرات المعدنية: سجن. اثنان آخران لعبا النرد وتراهنا على ربع زجاجة نبيذ: سجن. أحدهم رفض أن يطلق على وليده اسم أبراهام: سجن. عازف كمنجة أعمى عزف موسيقى راقصة: طرد من المدينة. آخر امتدح ترجمة كاستيليو للكتاب المقدس: طرد أيضا. فتاة ضبطت متلبسة وهي تتزلج على الجليد، امرأة انحنت على قبر زوجها، مواطن خلال القداس قدّم لجاره قبضة نشوق: استدعاء أمام المجمع الديني، إنذار وعقاب. ومثله ومثله من دون توقف وبلا نهاية. شلّة من المرحين التهموا حلويات محشوة ليلة الغطاس: أربع وعشرين ساعة ماء وخبز فقط. مواطن قال «السيد» كالفن بدلا من «المعلم» كالفن، اثنان من الفلاحين تكلما في شؤون الأعمال لدى خروجهما من الكنيسة كما العادة القديمة: سجن، سجن، سجن! رجل لعب بالورق: قيّد بعمود التشنيع وورق اللعب حول عنقه. آخر غنّى في الشارع لا مباليا بالعواقب: تصدر إليه الأوامر أن يغني في الخارج، يعني طرد من المدينة. اثنان من بحّارة الزوارق تشاجرا من دون أن يموت أحد: إعدام. ثلاثة فتيان قُصّر ارتكبوا قباحات معا: صدر الحكم عليهم في البداية بأن يحرقوا، ثم خفف الحكم وقضي بأن يقفوا أمام كومة

الحطب عرضة أمام المارة. لكن العقوبة الأقسى تمسّ كل خلجة نفس تتناول عصمة كالفن الدنيوية أو الروحية. رجل تكلم علانية على نظرية القدر عند كالفن: ظلّ يضرب بالسياط عند كل تقاطع طرق حتى أدمى، ثم طرد من المدينة. صاحب مطبعة سبّ كالفن وهو في حالة الثمالة: ثقب لسانه بسيخ من الحديد المتوهج ثم أبعد نهائيا عن المدينة. المواطن جاك غروييه[٢٢] وصف كالفن بالمنافق فنال عقوبة التعذيب يليها الإعدام. كل ذنب أيا كان قدر تفاهته: سوف ينوّه عنه في ملفات المجمع الديني، بحيث تبقى الحياة الخاصة لكل مواطن خاضعة للرقابة بصفة مستمرة. شرطة كالفن على غراره لا تعرف النسيان ولا الغفران.

حتما مثل هذا الإرهاب الأبدي اليقظ لا بد في النهاية من أن يحطم الكرامة الذاتية والقوة الخاصة بالأفراد وبالجماعة. وحين في دولة ما يتعيّن على كل مواطن أن يتوقع دائما لزوم الخضوع للتفتيش، وأن يصدر بحقه حكم، وحين يدرك أن نظرات الاستطلاع غير المرئية ترصد كل سلوك أو كلمة تصدرعنه، حين يمكن أن يُفتح باب بيته في الليل أو في النهار لـ «الزيارات» المفاجئة، عندئذ ترتخي الأعصاب تدريجيا، وينبجس الخوف الجماعي الذي يستسلم له تدريجيا وبالعدوى حتى أشجع الشجعان. كلّ إرادة للمحافظة على الذات لا بد وأن تضعف في النهاية إزاء ذلك النضال غير المجدي، ولا تلبث مدينة مثل جنيف أن تغدو حقا، بفضل نظام الترويض الكالفني، وبفضل ذلك «الانضباط» مدينة كما أرادها كالفن تماما: ورعة، حييّة، شاحبة ومن دون مقاومة، سهلة الانقياد، خاضعة لإرادة واحدة: إرادته.

لا تكاد بضع سنوات تمرّ على ذلك الانضباط حتى كانت جنيف قد تغيّرت

---

(٢٢) Jacques Gruet.

تماما. كأنما حجاب رمادي أسدل على هذه المدينة التي كانت في الماضي حرّة ومبتهجة. اختفت الملابس الملونة، والألوان ذاتها أزيلت. وما عادت الأجراس تقرع في الأبراج. ولا أغنية طروب في الشوارع. أما البيوت فجرداء وبلا زينة كما كنيسة كالفنية. الفنادق أقفرت منذ توقفت فيها الأنغام الطروب الداعية للرقص ودحرجة الكرات في الأكشاك. المراقص ظلت خاوية. الجادات المعتمة التي كانت ملتقى العشاق، غدت مهجورة. ما عدا الفضاء العاري في الكنيسة الذي يجمع الناس كل يوم أحد في هيئة جماعة جادة صامتة. اكتسبت المدينة وجها آخر صارما وكئيبا، وجه كالفن، وتدريجيا اكتسب سكانها جميعا من جراء الخوف أو التكيّف اللاواعي، سلوكه المتصلب وانغلاقه المتجهّم. ما عادت مشيتهم خفيفة ومسترخية ولا عادت نظراتهم تجرؤ على إبداء الحرارة مخافة أن تُعتبر المودة شهوانية. نسوا أن يتحرروا من الارتباك خجلا من ذاك العبوس، وهو ذاته لم يُبْدِ بشاشة على الإطلاق. حتى في الحلقات الضيقة اعتادوا أن يهمسوا بدلا من أن يتكلموا، ذلك أن الأزلام والأتباع يمكنهم أن يتنصتوا من وراء الأبواب. في كل الأنحاء يقتفي خوفهم المزمن أثر السائرين غير المرئيين على رؤوس الأصابع والمتنصتين من وراء الظهر. ينبغي أن يبقوا بعيدا عن الانتباه وألا يلفتوا الأنظار لا بالملابس ولا بكلمة متسرعة ولا بسحنة بهيجة. عليهم ألا يجعلوا أنفسهم موضع شبهة بل يدعوا الآخرين ينسوهم. أصبح أهل جنيف يفضلون البقاء في البيوت، إذ تحميهم الجدران والمزالج إلى حد ما، من النظرات والشبهات. إذا بالصدفة رأوا أحد رجال «المجمع الديني» يمشي في الشارع، يصدمون ويتراجعون بعيدا عن النافذة. من يدري ماذا خبّر عنهم الجيران وماذا قالوا.. إذا اضطروا للخروج من المنزل إلى الشارع استرقوا الخطى بنظرات خفيضة، وهم خرس هادئون مرتدون معاطفهم الداكنة كما لو أنهم ذاهبون لحضور العظة في الكنيسة أو ليشاركوا في جنازة. حتى الأطفال

الذين نشأوا ونموا في هذا الجو التربوي الجديد الصارم، أذيقوا الخوف بقوة في «ساعات الغبطة»، فما عادوا يلعبون بحيوية وصخب، بل يتكومون بانحناء كما لو أنهم خائفون من تهديد غير منظور. خاملون خجلون ينمون كالزهور التي لا في الشمس بل في الظلّ البارد تفتحت وأينعت. بانتظام كما في عمل الساعة، من دون انقطاع بسبب عيد أو عطلة، يمضي إيقاع المدينة في التتابع الحزين والبارد لدقات العقارب، تيك تاك، منتظما رتيبا، واثقا. إذا ما جاء الغريب لأول مرة إلى المدينة، فلا بد أن يعتقد أنها في حالة حداد، لفرط ما نظرات الناس باردة ومعتمة، والشوارع خالية من الفرح وخرساء، والجو الثقافي كئيب وبلا احتفالية. صحيح أن التربية والانضباط في السلوك رائعان، بيد أن حالة مراعاة الاعتدال والتوازن الصارمة التي فرضها كالفن على المدينة كلّفت خسارة فادحة في كل القوى المباركة التي لا تولد إلا في الحيوية المفرطة والإسراف. وإذا كانت هذه المدينة قد دعيت لإنجاب عدد لا يحصى من المواطنين الورعين الذين يخافون الله، ومن اللاهوتيين المجدّين والعلماء الجادين، فهي خلال قرنين كاملين من الزمان بعد كالفن، لم تعد تفرز رساما واحدا أو موسيقيا واحدا أو فنانا واحدا ذا صيت عالمي. غير المألوف راح ضحية المألوف، والحرية الخلاقة ضحية التزلف. وفي النهاية حين ولد في هذه المدينة أديب، غدت حياته كلها ثورة فريدة ضد اغتصاب الشخصية، ولم تتحرر جنيف من كالفن تماما إلا بظهور مواطنها الأكثر استقلالية بين الرجال: جان جاك روسّو.

* * * * * *

دخـول كـاسـتـيـلـيـو

الخوف من الدكتاتور لا يعني على الإطلاق أن المرء يحبه، والذي يخضع ظاهريا للسلطة الإرهابية لا يعترف بالضرورة بعدالتها. من المؤكد أن كالفن خلال الأشهر الأولى التي تلت عودته حظي بإعجاب مطلق من المواطنين ومن سلطات المدينة على السواء. ومنذ أن اقتصر الأمر على وجود حزب واحد، يبدو أن بقية الأحزاب وقفت إلى جانبه. في البداية استسلم معظم الناس بشغف لسكرة التوحيد. لكن خيبة الأمل ما لبثت أن بدأت. فمن البداهة القول، إن كلّ الذين استدعوا كالفن لينشر النظام، كانوا يأملون سرّا في أن الدكتاتور الصارم سوف يظهر تراخيا في إجراءاته الأخلاقية الفياضة العنيفة بعدما يكون قد أمّن نشر «الانضباط». بدلا من ذلك عانوا أكثر من الألجمة المشدودة، بل ولم يسمعوا كلمة شكر واحدة على التضحيات الكبيرة التي قدموها من رصيد حريتهم الذاتية ومتعتهم. وبمرارة كان ينبغي عليهم أن يستمعوا من المنبر إلى كلمات كالتالية: «وجود المشانق يمكن أن يكون ضروريا لشنق سبعمئة أو ثمانمئة من شباب جنيف، حتى تشيع، أخيرا، الأخلاق والعادات القويمة في هذه المدينة العفنة». الآن أدركوا أنهم بدلا من طبيب النفوس الذي ترجّوا حضوره، جاءهم سجّان قيّد حرياتهم داخل الأسوار. أما إجراءات التعسف المتزايدة في الصرامة، فقد أدّت إلى الشعور بالاستياء، حتى لدى أعزّ أنصاره.

هكذا لم تكد بضعة أشهر تمضي، حتى تجدد الامتعاض من كالفن. من بعيد بدا نموذج «الانضباط» أكثر إغراء مما هو عليه في المتسيّد الحالي. الآن شحبت

الألوان الرومانتيكية. الذين هللوا فرحا بالأمس، بدأوا في التأوه بصوت خفيض. لكن تهشيم الهالة الذاتية للدكتاتور يحتاج دائما إلى مناسبة واضحة ومفهومة، وهذه المناسبة لن تتأخر. لأول مرّة بدأ أهالي جنيف يرتابون في عصمة رجال المجمع الديني عن الخطأ، وذلك خلال وباء الطاعون الرهيب الذي فتك بالمدينة كول ثلاث سنوات من **١٥٤٢** إلى **١٥٤٥**. حدث أن القساوسة الذين كانوا من قبل يأمرون كل مريض باستدعاء القسيس مرة كل ثلاثة أيام لكي يعوده ويهددون بإنزال أقسى العقوبات بحق من يتخلف عن ذلك، أصبحوا منذ أن أصابت العدوى أحدهم وأدّت إلى وفاته، يتركون المرضى في مستشفى الطاعون في حالة احتضار إلى أن يموتوا، من دون أن يقدموا لهم المؤاساة الروحية. عبثا رجا مجلس المدينة المجمع الديني أن يرسل أحد أعضائه «ليعود» المرضى الفقراء في مستشفى الطاعون وليقدم لهم الدعم الروحي. لم يأت جواب من أحد باستثناء كاستيليو مدير المدرسة، لكن المهمة لم تسند إليه لأنه ليس عضوا في المجمع الديني. أما زملاء كالفن فأوضحوا أن القسيس «لايمكن الاستغناء عنه». وأما هو فقال صراحة: «لايمكن أن ندع الكنيسة بمجملها عرضة للعدوى لكي نسعف قسما منها». على أن القساوسة الآخرين الذين لا مهمة حاسمة لديهم يدافعون عنها، تواروا وثابروا على الانزواء في المناطق المجاورة للخطر. وظلت مناشدات مجلس المدينة إلى الرعاة الروحيين بلا طائل، بل إن أحد هؤلاء قال بمنتهى الصراحة والحرية «من الأفضل لنا أن نسلـّم أنفسنا لأعواد المشانق على أن نذهب إلى مستشفى الطاعون». وفي الخامس من كانون الثاني/يناير **١٥٤٣** عاشت جنيف المشهد المدهش: كل قساوسة المدينة وعلى رأسهم كالفن ظهروا في اجتماع مجلس المدينة ومن هناك أصدروا علانية التصريح المخجل أنْ لا أحد منهم لديه الشجاعة ليدخل مستشفى الطاعون برغم أنهم يعرفون أنه كان من واجبهم خدمة الله وكنيسته المقدسة في الأيام الجيدة وفي الأيام السيئة أيضا.

والحال أن لا شيء يولّد عند شعب ما قناعة بالقائد مثل شجاعته الذاتية. في مرسيليا وفيينا وعدة مدن أخرى ما زال الناس يحتفلون اليوم، بعد مئات السنين، بذكرى القساوسة الأبطال الذين، أثناء الأوبئة الكبيرة التي انتشرت في الماضي، كانوا يزورون المرضى في المستشفيات ويقدمون لهم المؤاساة الروحية. مثل هذه البطولات، لا ينساها الشعب لقادته. كما لا ينسى إطلاقا جبنهم الذاتي في الساعات الحاسمة. باحتقار بالغ لاحظ أهل جنيف ما حدث فاشمأزوا من القساوسة ذاتهم الذين ألحّوا على الناس من على المنبر وبنبرة مثيرة للشفقة، بتقديم أكبر التضحيات، ليسوا مستعدين الآن لتقديم أصغر هذه التضحيات. بل وعبثا اخترعوا مسرحية دنيئة بقصد سرقة الانتباه عن المرارات العامة: بناء على أوامر مجلس المدينة، تم إلقاء القبض على بضعة بؤساء متضوّرين جوعا، فتعرّضوا لفترة طويلة لتعذيب فظيع إلى أن أقرّوا بأنهم جلبوا الطاعون إلى المدينة، وذلك عن طريق دهن مقابض الأبواب بمرهم مصنوع من غائط الشيطان. على أن كالفن لم يُبْد اعتراضا، كإنساني، ولم يعبر عن ازدرائه لمثل هذا الهذر الذي يليق بنسوة عجائز. بدلا من ذلك، اتخذ المفكر الرجعي موقف المدافع المقتنع عن خزعبلات القرون الوسطى. لم يكن كالفن موفقا في قناعته المزعومة العلانية أن «ناشري الطاعون» نالوا ما يستحقونه. لكن ما أساء إليه أيما إساءة، ادعاءه من فوق المنبر أن رجلا، بسبب تجديفه، قد انتزعه الشيطان من سريره في وضح النهار وألقى به في نهر الرون. لأول مرة عايش كالفن أن بعض مستمعيه لم يبذل أدنى جهد لإخفاء تهكمه على مثل هذه الخرافات.

على أيّ حال، ثمة قسم كبير من عصمته، التي تعني لكل دكتاتور عاملا نفسيا أساسيا لتوطيد سلطته، قد تهشم خلال انتشار الطاعون. أصبحت خيبة الأمل جليّة. اتسعت دائرة المعارضة واشتدت حدتها. لكن من حسن حظ كالفن

أنها تمددت فقط، لكنها لم تتحول إلى حشد. إذ في ذلك ميزة يستفيد منها كل دكتاتور إبان عهده، بل وتعزز سلطته. حتى حين تكون السلطة قد أضحت منذ زمن أقلية من حيث العدد، تكشف عندئذ عن إرادتها العسكرية المنظمة والحاسمة، بينما في المقابل تنبثق إرادة المعارضة من جهات مختلفة، وتتحرك بدوافع مختلفة، ولا تتجمع أبدا كقوة صدم، أو تفعل ذلك في وقت متأخر. لا ينفع أن عددا كبيرا من أبناء الشعب، بل وكبيرا جدا، يعارض الدكتاتورية في سرّه، ما دامت عناصر الدكتاتورية تتحرك وفق خطة موحدة وتنظيم حازم. لذلك على الأغلب، تبدو المسافة بعيدة ومرهقة ما بين أول اهتزاز لسلطة الدكتاتور وبين سقوطه. كالفن ومجمعه الديني وقساوسته وأتباعه المهاجرون يشكّلون كتلة إرادة واحدة وقوة متماسكة تمضي إلى هدفها المحدد. وفي المقابل، يتجمع معارضوه، من كل المجالات والطبقات، من دون رابط بينهم: منهم من جهة، الكاثوليكيون القدامى الذين ما زالوا متمسكين بعقيدتهم القديمة سرا، وإلى جوارهم عشاق الخمر الذين مُنعوا من ارتياد الحانات، ومنهم النسوة اللواتي حُرمن من التزيّن، من دون أن نغفل قدامى الطبقة العليا من أهل جنيف الذين شعروا بالمرارة إزاء محدثي النعمة المعْدمين سابقا الذين ما إن قبلتهم المدينة كلاجئين حتى تسللوا إلى كل الإدارات. هذه المعارضة القوية عدديا، التي تتكون من النبلاء من جهة والبؤساء من جهة أخرى، تبقى جماعة متذمرة بلا سلطة، لأن أسباب الامتعاض لم تتحد وراء فكرة واحدة، وتبقى قوة كامنة عوض أن تكون فاعلة. جمهرة تشكلت بالصدفة لا تربح ضد جيش مسلح. استياء غير منظم ضد إرهاب منظم. لذلك كانت السنوات الأولى لكالفن مسهّلة مكّنته من أن يكبح جماح هذه المجموعات المتفرقة لأنها ما واجهته مرّة ككتلة موحدة. وما لبث أن تمكن من القضاء على مجموعة، ثم على مجموعة أخرى، بوخزة عادية.

ما من خطر حقيقي يتهدد صاحب فكرة إلاّ صاحب فكرة أخرى يعارضه. فورا أدرك كالفن ذلك بنظرته الصافية والمرتابة. ذلك أنه من الساعة الأولى وحتى الساعة الأخيرة، لم يخشَ أحدا من بين جميع خصومه، سوى ذاك الذي كان ندّه على المستوى الفكري والأخلاقي، الذي انتصب ضد طغيانه الفكري بحماسة مطلقة لضمير حرّ: سباستيان كاستيليو.

لم يبقَ لنا منه سوى رسم شخصي (بورتريه) واحد، وهو متوسط القيمة، للأسف. وهو يظهر لنا وجهَ مفكر ذا ملامح جدية، وعينيني صريحتين، بل يمكن القول إنّهما صادقتان، تحت جبين مرتفع، طلق. ولا يشي الرسم بتعابير وجه إضافية. إنه ليس بالرسم الذي يسمح بالتوغل في أعماق الشخصية، لكنه مع ذلك ينبؤنا بالخط الأساسي المميز: سريرة متزنة مطمئنة. إذا ما وضعنا رسمي الخصمين كالفن وكاستيليو متجاورين، فستظهر الخصومة جليّة حسّيا، هي التي ستغدو لاحقا قاطعة في الشؤون الفكرية. وجه كالفن به التوتر البالغ، به طاقة مكثفة، متشنجة وعليلة، ترغب في التفريغ بمشاكسة وإلحاح. وجه كاستيليو لطيف، مفعم بالطمأنينة المتأنية. في نظرة الأول الشرر، وفي نظرة الثاني الهدوء التام. الصبر ضد نفاذ الصبر. الحميّة المتفجرة ضد العزم المثابر، التعصب ضد الإنسانية.

كما بشأن ملامحه، عرفنا القليل عن شباب كاستيليو. ولد في المنطقة الحدودية المتاخمة لفرنسا وسويسرا وسافوا سنة ١٥١٥، أي بعد ستة أعوام من مولد كالفن. كانت أسرته تدعى شاتيون أو شاتايون، وربما في ظل سيادة سلالة سافوا دعيت كاستليونه أو كاستيليوني[٢٣]، لكن اللغة الأم لديه لم تكن الإيطالية بل الفرنسية. ولم يلبث أن أضاف اللغة اللاتينية إليهما، إذ التحق

(٢٣) Chatillon, Chataillon, Castellione, Castiglione.

بجامعة ليون وهو في العشرين من عمره، وفيها تملك من الفرنسية والإيطالية وأتقن اللاتينية والإغريقية والعبرية. ومن بعد أضاف إليها اللغة الألمانية. ثم في مجالات المعرفة كافة، أظهر اجتهادا وتحصيلا مدهشا للغاية، حتى أن أساتذة الآداب واللاهوت أجمعوا على اعتباره أكثر رجال عصره ثقافة. في البدء كان التلميذ الشاب مولعا بالفنون والآداب، وكان يكسب قوته بمشقة وبسالة من طريق إعطاء دروس خصوصية. وكتب آنذاك مقالات وقصائد باللغة اللاتينية. بيد أن حماسة قوية داهمته لا للماضي المندثر، إذ وجد نفسه منجذبا بقوة نحو قضايا عصره الجديدة. وإذا نظرنا إلى الأمر من الوجهة التاريخية، فإن الآداب والعلوم الإنسانية الكلاسيكية عرفت ازدهارا مجيدا لفترة قصيرة للغاية، هي التي امتدت لبضعة عقود فقط بين النهضة العالمية الكبرى وحركة الإصلاح. في تلك الفترة فقط وجدت الشبيبة الأمل في خلاص العالم عبر تجديد الدراسات الكلاسيكية، وعبر التكوين المعرفي المنهجي. لكن سرعان ما أدرك أفضل أبناء هذا الجيل وأكثرهم اجتهادا أن الاشتغال على تجديد مؤلفات شيشرون وثيوقليدس وبعثها من بردياتها إنما هو جهد هباء وعلم عقيم، في الوقت الذي انطلقت فيه من ألمانيا ثورة دينية وامتدت كألسنة اللهب ومسّت نفوس الملايين. ولن تلبث المناقشات في الجامعات كافة أن تبدي اهتماما بموضوع الكنيسة القديمة والحديثة، أكثر من الاهتمام بأفلاطون وأرسطو. وبدلا من مجمل الفتاوى انصبت أبحاث الأساتذة والطلاب على الكتاب المقدس. وكما في العصور اللاحقة حيث انتشرت الموجات السياسية والقومية أو الاجتماعية، استغرقت شبيبة أوروبا كلها في القرن السادس عشر بحماسة لا تنقطع في التحاور والمشاركة في التأمل والتعاون في الأفكار الدينية التي شغلت العصر، وقد أدركت كاستيليو أيضا. ونظرا لطبيعته الإنسانية جاءت نقطة التحول الحاسمة إثر تجربة شخصية: عندما عايش لأول مرة في ليون إحراق مجموعة

من المارقين تلقى صدمة بلغت أقصى أعماق وجدانه، بسبب وحشية محاكم التفتيش من جهة، وسلوك الضحايا الباسل من جهة اخرى. ومن ذلك اليوم عقد العزم على العيش والنضال من أجل المذهب الجديد وقد رأى فيه الحرية والتحرر.

ومن المفهوم أنه منذ اعتنق مذهب الإصلاح في قرارة نفسه، أصبحت حياته في فرنسا في خطر. ودائما، في أي دولة أو نظام حيث تقمع حرية الفكر بعنف، تبقى لدى أولئك الذين يرفضون الانصياع لاغتصاب الضمير، ثلاثة سبل فقط: ممكن للمرء أن يناضل علانية ضد عنف الدولة ويتحول بالتالي إلى شهيد، وهذا هو أشجع طرق المقاومة العلنية وقد اختاره بركوين وإيتيان دوليه(٢٤)، وكان عقابهما في تحطيم ثورتهما عند خازوق الإعدام حرقا. أو بوسع المرء، من أجل أن يحمي حياته وحريته الداخلية، أن يتظاهر بالانصياع فيما هو يخفي رأيه الحقيقي، وهذه تقنية استخدمها إيرازموس ورابليه(٢٥)، وكانا ظاهريا في وئام مع الكنيسة والدولة، لكي يتمكنا من الموقع الخلفي، وأحدهما متدثر بمعطف العالِم والثاني متستر بطاقية المهرج، من رمي السهام المسمومة، لكي يتجنبوا العنف بلباقة، ولكي يخدعوا الوحشية بدهاء، وعلى نمط أوليس. أما الطريق الثالث فهو الهجرة: محاولة نقل الحرية الداخلية من البلد الذي هي ملاحقة فيه وخاضعة للمراقبة، إلى بلد آخر حيث يسمح لها بالتنفس من دون معيقات. كاستيليو، ذو الطبع المستقيم، لكن الليّن أيضا، اختار مثل كالفن الطريق السلمي. في مطلع ١٥٤٠، بعيد ما شاهد في ليون بأم العين وبقلب ينفطر ألماً إحراق أول الشهداء البروتستانتيين، هجر وطنه ليصبح مبشرا بالعقيدة الإنجيلية ووسيطا لنشرها.

---

(٢٤) Berquin, Etienne Dolet.

(٢٥) Rabelais.

توجه كاستيليو إلى ستراسبور، وذلك كما أغلبية اللاجئين الدينيين، حبا في كالفن. إذ منذ كتب هذا الأخير بشجاعة فائقة في مقدمة «تعاليم الديانة» مطالبا الملك فرنسوا الأول بحرية العقيدة وبالتسامح، أصبح يعتبر في نظر الشبيبة الفرنسية كافة بشير العقيدة الإنجيلية ورافع لواءها، بالرغم من كونه شابا هو ذاته. كل أولئك اللاجئين الذين تعرضوا لملاحقات شبيهة، أملوا في أن يتعلموا منه، وفي أن يسند إليهم مهمة يؤدونها، هو الذي يعرف كيف يعبر عن مطالبه وكيف يحدد أهدافه. كتلميذ، وكتلميذ نشيط – وآنذاك كان كاستيليو ذو الطبيعة المحبة للحرية يرى في كالفن ممثل الحرية الفكرية – توجّه فورا إلى منزل كالفن، وأقام لمدة أسبوع في مسكن الطلبة الذي أنشأته زوجة كالفن في ستراسبور من أجل رسل الغد الذين سيبشرون بالعقيدة الجديدة. بيد أن أمله في العلاقات القريبة معه لم يتحقق في البداية، لأن كالفن دُعي بعد فترة قصيرة إلى مجمع في فورمز وآخر في هاغناو. ضاعت فرصة الارتباط الأول. لكن سيتبيّن قريبا، أن كاستيليو ذا الأربع والعشرين سنة قد كوّن انطباعا مهما عن كالفن. إذ بمجرد ما تأمّن استدعاء كالفن إلى جنيف نهائيا، حتى استدعي الفتى الحيوي المثقف كاستيليو بناء على اقتراح من فاريل، وبلا شك بموافقة من كالفن، ليكون مدرسا في مدرسة جنيف. ورسميا أعطوه لقب المدير أيضا، ووضعوا بتصرفه اثنين من المدرسين المساعدين، وإضافة إلى ذلك كلّفوه بمهمة تمتاها: أن يكون واعظ الكنيسة في فاندوفر[٢٦]، إحدى أبرشيات جنيف.

برّر كاستيليو بالتمام هذه الثقة، وأداؤه كمدرس جلب له إضافة إلى ذلك، نجاحا أدبيا خاصا. ذلك أنه لكي يحفزّ التلاميذ على تعلّم اللغة اللاتينية، صاغ أجمل مقاطع التوراة والإنجيل في قالب حواري باللاتينية. ومن بعد أصبح

---

(٢٦) Vandoeuvres.

«الكتاب الصغير» الذي صمم في البداية ليكون كتابا إرشاديا لأطفال جنيف، كتابا عالميا، ربما لا يعادله في تأثيره الأدبي والتربوي سوى كتاب «المناظرات» لإيرازموس. وظل «الكتاب الصغير» يطبع لبضعة قرون، وصدر منه ليس أقل من سبع وأربعين طبعة، وعبرها تعلم مئات الآلاف من الطلبة أسس اللاتينية الكلاسيكية. وحتى إذا كان بالنظر إلى جهد صاحبه في العلوم الإنسانية كتابا ثانويا، مؤلَّفا عرَضيا، فكتاب اللغة اللاتينية للمبتدئين، هو الكتاب الأول الذي بوساطته تقدم كاستيليو إلى الواجهة الفكرية في زمانه.

لكن طموح كاستيليو لا يتوقف عند كتابة مؤلَّف إرشادي رائع ومفيد لأطفال المدارس، بل يتوجه إلى أهداف أسمى. وهو لم ينصرف عن الإنسانيات لكي يبدد قواه وعلمه في أعمال صغيرة. ولدى ذلك الشاب المثالي مخطط رفيع يستعيد، ويتجاوز إلى حد ما، أعمال إيرازموس ولوثر العظيمة. صمم على أن لا يقلّ إنجازه عن ترجمة الكتاب المقدس بكامله إلى اللاتينية مجددا وإلى الفرنسية. ينبغي أن تكون الحقيقة كاملة في متناول شعبه، الشعب الفرنسي، كما هي لدى الألمان والأوساط الإنسانية في العالم بفضل الإرادة الخلاقة لإيرازموس ولوثر. وبكامل الإيمان الصلب والهادىء الذي يميز كيانه انكب كاستيليو على هذه المهمة الكبيرة. ليلة بعد ليلة، اشتغل الشاب العالِم على ذلك المخطط المقدس الذي سيكرس له حياته، بينما كان في النهار يناضل بمشقة لتأمين الخبز الزهيد لأسرته ويتقاضى أدنى الأجور مقابل عمله.

على أن كاستيليو اصطدم من الخطوة الأولى بمقاومة عنيدة. أعلن صاحب مكتبة في جنيف أنه مستعد لطباعة الجزء الأول من ترجمة كاستيليو للكتاب المقدس إلى اللاتينية. لكن كالفن هو الدكتاتور المطلق في جنيف في المسائل الروحية والفكرية كافة. لا ينبغي أن يطبع أي كتاب داخل أسوار المدينة من دون موافقته وترخيص منه. الرقابة هي دائما الإبنة الطبيعية لكل الدكتاتوريات.

وكان أن توجه كاستيليو إلى كالفن. عالِم إلى عالم آخر. لاهوتي إلى لاهوتي آخر. والتمس منه بروح الزمالة الحصول على ترخيص بالطبع. بيد أن الشخصية السلطوية ترى في الذي يفكر بطريقة مستقلة معارضا لا يطاق. كان الاستياء أول ما بدر من كالفن، وانزعاجه بين المكتوم والصريح. ذلك أنه شخصيا كتب المقدمة للترجمة الفرنسية للكتاب المقدس التي قام بها أحد أنسبائه، فغدت وكأنها النسخة الرسمية المعتمدة والمعترف بها في العالم البروتستانتي. إذاً، أي «جسارة» دفعت ذلك «الشاب» لعدم التواضع والاعتراف بأن الترجمة التي اعتمدها كالفن بل وشارك في تحريرها، هي النص الوحيد الصالح والصحيح. بل وبدلا من ذلك، جاء يعارضها بترجمة أخرى، ترجمته هو! وفي الرسالة التي كتبها كالفن إلى فيريه، يستشف المرء بوضوح غيظ كالفن وتبرمه من «تطاول» كاستيليو: «اعلم الآن فانتازيات صاحبنا سباستيان: فيها ما يدعو إلى الضحك، لكن فيها ما يثير الغضب أيضا. قبل ثلاثة أيام جاءني ورجاني أن أعطيه التصريح بنشر ترجمته للعهد الجديد». هذه النبرة المتهكمة تسمح للمرء أن يتصور أي استقبال من القلب وفّره لغريمه. الواقع أن كالفن صرف كاستيليو بخشونة وبلا تردد قائلا إنه مستعد لمنحه التصريح لكن بشرط أن يقرأ هو الترجمة أولاً، وبالتالي أن يحق له أن يصحح ما يراه يحتاج إلى تصحيح.

الواقع أن كاستيليو في شخصيته أبعد ما يكون عن الغرور، أو حتى الاعتداد الباطل بالذات. وهو لم يعتبر مرة مثل كالفن أن رأيه هو الصحيح الأوحد، وأن مفهومه لأي شيء غير قابل للنزاع ولا تشوبه شائبة، بل إن المقدمة التي صدّر بها ترجمته في وقت لاحق، تقدم نموذجا في التواضع العلمي والإنساني. كتب فيها بصراحة أنه شخصيا لم يفهم كل العبارات في الكتاب المقدس، ولذلك يحذّر القارىء من منح ترجمته الثقة من دون تحفظ، ذلك أن الكتاب المقدس غامض وحافل بالتناقضات، وما قدّمه كاستيليو تأويل وليس باليقين.

لكن بقدر التواضع الإنساني الذي يبديه كاستيليو في تقييمه لمؤَلَّفه، بقدر ما يحرص كإنسان على عدم الانتقاص من سمو نبل الاستقلال الذاتي. وهو إذ يعي تماما أنه كمختص باللغتين العبرية والإغريقية وكعالم، ليس دون كالفن مستوى بأي حال من الأحوال، رأى – والحق معه – في هذه الرغبة الفوقية في الرقابة وهذا الإدعاء السلطوي بـ «تحسين» النص، نيلا من كرامته. وإذ هو في جمهورية حرة، عالِـم ندّ لعالم، ولاهوتي ندّ للاهوتي، لا يرغب أبدا أن تكون علاقته بكالفن علاقة التلميذ بالأستاذ، ولا يقبل أن يتم التعامل مع مؤلَّفه كما لو أنه فَرْضُ تلميذ صغير في المدرسة يخضع للقلم الأحمر. غير أنه لكي يجد مخرجا إنسانيا، ولكي يعبّر لكالفن عن تقديره الشخصي، اقترح أن يقرأ عليه النص في أي وقت يراه كالفن مناسبا، وأوضح أنه مستعد مسبقا بشأن كل التفاصيل، لقبول المقترحات والنصائح. لكن كالفن، في المبدأ، ضد أشكال التسوية كافة. إنه لا يريد إسداء النصح بل إصدار الأوامر. ويرفض بإيجاز وفظاظة. واستطرد في رسالته: «أخبرته أنه حتى لو وعدني بمئة كورون، فلن أجد نفسي مستعدا لأن أرتبط بلقاء في وقت ما، ثم لكي نتناقش ربما لساعتين حول كلمة واحدة. ومن بعد ذهب ممتعضا».

لأول مرة تقاطعت النصال. استشفّ كالفن أن كاستيليو لا يميل إلى أن يخضع له مسلوب الإرادة في الأمور الفكرية والروحية، ورأى فيه، وسط العبودية العامة، الإنسان المستقل، ذلك الخصم الأبدي لكل دكتاتور. وبدءا من تلك الساعة، قرر كالفن أن يبعد كاستيليو عن وظيفته، وعن جنيف إذا أمكن الأمر، إذ هو ذلك الرجل الذي لا يريد أن يكون خادمه، بل خادم ضميره فقط.

عندما يبحث المرء عن ذريعة، فسيعرف كيف يجدها في كل أوان. لم يكن على كالفن أن ينتظر طويلا. ذلك أن كاستيليو لا يستطيع أن يعيل أسرته

العديدة الأفراد بالراتب الزهيد الذي يتقاضاه كمدرس، وكان طموحه أن تسند إليه وظيفة «المبشّر بكلمة اللّٰه» وهي تناسبه أكثر ماديا ومعنويا. ومنذ أن هجر ليون، كان هدف حياته أن يغدو الداعية للعقيدة الإنجيلية. وها قد مرّت أشهر واللاهوتي المميَّز يعظ في كنيسة فاندوفر من دون أدنى اعتراض عليه في مدينة الأخلاق المتزمتة جنيف. وبالتالي لم يكن في جنيف أحد لديه المؤهلات ذاتها لكي يصبو إلى مهنة الواعظ. وفي الواقع، لقي ترشيح كاستيليو موافقة مجلس المدينة بالإجماع. وفي ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٥٤٣ تقرر ما يلي: «حيث أن سباستيان رجل عالم، وحيث أنه مناسب جدا لخدمة الكنيسة، فلقد تقرر إسناد الوظيفة إليه، ليخدم الكنيسة».

لكن مجلس المدينة لم يحسب حساب كالفن. كيف؟ من دون استشارته قرر المجلس أن يجعل من كاستيليو - الرجل الذي يمكن أن يكون مزعجا بسبب روحية الاستقلال - قسيسا، وبالتالي عضوا في المجمع الديني؟ على الفور اعترض كالفن على تسمية كاستيليو وبرر سلوكه الخالي من روح الزمالة في رسالة إلى فاريل بمثل هذه الكلمات المكفهرة: «توجد أسباب مهمة، هي التي تعيق توظيفه... على أي حال لم أنطق بهذه الأسباب أمام إدارة مجلس المدينة، واكتفيت بالتنويه، لكني في الوقت نفسه استبعدت الشبهات الخطأ، لكي أبقي اسمه بلا اعتراض من منازع. وكان قصدي بذلك أن أرحمه».

عندما يقرأ المرء هذه الكلمات المعتمة المبهمة، تساوره في البدء ريبة غير مريحة. ألا يبدو ذلك حقا، وكأنما يوجد شيء شائن ضد كاستيليو يجعله غير صالح لتبوأ مقام القسيس، ثمة عيب، غطّاه كالفن الطيّب بمعطف التسامح المسيحي «لكي يرحمه»؟ ويتساءل المرء: أي جنحة جعلت ذلك العلامة الذي يحظى بالتقدير الرفيع مذنبا، فسكت عليها كالفن بعطف سَمْح؟ أتراه مدّ يده إلى مال ليس له، أو ارتكب خطايا مع نسوة؟ أيخفي هذا المخلوق الذي

اشتهر في المدينة بسلوك لا غبار عليه، ضلالا ما سريّا؟ أما كالفن، فلجأ إلى الضبابية المتعمدة وترك كل الشبهات غير المؤكدة تحوم حول كاستيليو، ولا شيء أشد خطورة في عواقبه على شرف وسمعة إنسان، قدر التباس «يستحق الرحمة».

بيد أن سباستيان كاستيليو لا يريد أن يكون «مرحوما». ضميره شفاف ونقي. ما إن علم أن كالفن هو الذي يفسد أمر توظيفه غيلة، حتى تقدّم وطالب بأن يوضح كالفن علانية أمام مجلس المدينة الأسباب التي جعلته يرفض إسناد وظيفة القسيس الواعظ إليه. الآن وجب أن يكشف كالفن أوراقه وأن يميط اللثام عن جُنَح كاستيليو. عندئذ نعرف أخيرا الجناية التي لزم كالفن الصمت إزاءها بلطف جمّ: لم يكن كاستيليو – ويا للخطأ المرعب! – في تفسيرين لاهوتيين ثانويين مطابقا تماما لرأي كالفن. أولاً، لقد أعرب عن رأي – وهنا يوافقه الرأي اللاهوتيون كافة بالصوت العالي أو الخفيض – يقول بأن نشيد الإنشاد ليس شعرا روحانيا وإنما هو وثني، وأن نشيد الراعية سولاميت التي يقفز صدرها في المراعي كزوج من الأيل، يصور قصيدة غزل دنيوية بلا ريب، وليس من مجد الكنيسة على الإطلاق. والمروق الثاني تافه هو الآخر: كاستيليو يعطي نزول المسيح إلى الجحيم معنى آخر مخالفا لتفسير كالفن.

هكذا بدا تافها وعديم الأهمية ذلك «التغاضي السخي» عن ذنوب كاستيليو، التي من أجلها ينبغي أن يرفض منحه مقام القسيس. لكن – وهنا يكمن القرار الجوهري – في نظر كالفن لا توجد تفاصيل ولا توافه في مجال العقيدة. بحسب ذهنيته المنهجية التي تسعى إلى أقوى توحيد وسلطة في الكنيسة الجديدة، يعتبر خطر أصغر الانحرافات مساويا للخطر الناجم عن أكبرها. يريد كالفن في عمارته المشيدة بمنطق السلطة ألا يتزحزح حجر أو حجير من مكانه. وكما في الحياة السياسية، والأخلاقية والقانونية، يبدو له الأمر في الحياة

الدينية أيضا، حيث الحرية بكل أشكالها، مبدئيا أمر لا يطاق. ولكي تتمكن كنيسته من الاستمرار، ينبغي أن تبقى سلطوية من مخطط الأساس إلى أصغر زخرف. والذي لا يعترف بهذا المبدأ القيادي، والذي يحاول أن يفكر مستقلا بالمعنى الليبرالي، لا مجال له في دولة كالفن.

لذلك حين طالب مجلس المدينة كاستيليو وكالفن بإجراء نقاش مفتوح بقصد فضّ نزاع الرأي بينهما بطريقة حبّية، اعتُبر ذلك جهدا هباء. والمرء مضطر دائما إلى التكرار: كالفن يريد أن يحتكر التعليم، ولن يدع أحدا يعلمه أو يهديه. إنه لم يجادل أحدا مرة. إنه يُملي. ومن الكلمات الأولى تراه يطالب كاستيليو بأن «يعتنق رأينا» وحذّره من «الثقة بحكمه الذاتي على الأشياء»، وذلك ليكون مجمل سلوكه مطابقا لمفهوم كالفن حول ضرورة الوحدة والسلطة في الكنيسة. لكن كاستيليو ظل هو الآخر واثقا من نفسه. ذلك أن حرية الضمير بالنسبة إليه هى أسمى سمات القلب الخيّر، وهو من أجلها مستعد لدفع أي ثمن مادي. وهو يعلم تماما أنه يكفيه الخضوع لكالفن بشأن الموضوعين الخلافيين، لكي يضمن الحصول على موافقة المجمع الديني على إسناد الوظيفة التي ترشح لها إليه. لكن لكونه عفيفا لا يُرتشى ردّ كاستيليو: ليس بوسعه أن يعد، بما لا يستطيع إنجازه من دون التصرف ضد ضميره. وبناء عليه أصبح النقاش عقيما. وعبر الرجلين، تواجه من تلك اللحظة تياران: الإصلاحية الليبرالية المطالبة بالحرية لكل إنسان في المسائل الدينية، والإصلاحية التقليدية. وهكذا كان كالفن محقا عندما كتب يصف فشل المناقشات مع كاستيليو: «بقدر ما أستطيع أن أحكم وفق المحادثات التي جرت بيننا، أقول إنه رجل لديه تصور عني مفاده أنه من الصعب للغاية أن يتم التوافق بيننا».

لكن ما هي «التصورات» التي لدى كاستيليو عن كالفن؟ لقد وشى بها كالفن ذاته حين كتب: «لقد رسّخ سباستيان في ذهنه أنه لديّ نزوع إلى

التسلط». في الحقيقة، لا يمكن للمرء أن يصف الأمر بمزيد من الموضوعية. لقد أدرك كاستيليو بعد وقت قصير، ما سيدركه الآخرون لاحقا، أن كالفن بالنظر إلى طبعه الطغياني، قرر ألا تسامح مع رأي آخر في جنيف، سوى مع رأيه، وأن العيش في مجاله الروحي غير ممكن إلاّ للذين يخضعون بتبعية لكل حرف في مذهبه مثل دو باز والمقلّدين الأخَر. لكن كاستيليو لا يريد أن يتنفس هواء سجن التسيّد الروحي المُسَخِّر. هو لم يفرّ من فرنسا ومحاكم التفتيش الكاثوليكية، لكي يخضع لمثيلتها: رقابة الضمير البروتستانتية. هو لم يرفض عقيدة عتيقة لكي يصبح خادم أخرى جديدة. بالنسبة إليه، ليس المسيح كما يراه كالفن: قانوني شكلي صارم، وإنجيله ليس كتاب قانون في قوالب جامدة. كاستيليو يرى في المسيح الإنسان الإنساني فحسب، نموذجا أخلاقيا، يتبعه كل إنسان بخشوع، وعلى طريقته، من دون أن يتجرأ على الزعم أنه، وأنه وحده، يعرف الحقيقة. مرارة أكيدة أطبقت على روح هذا الإنسان الحرّ، عندما اضطر أن يرى القساوسة الجدد المعيّنين في جنيف يفسرون كلام الله بتكبّر وغرور، كأنه قيل بطريقة مفهومة لهم وحدهم. غضب عارم تملك منه إزاء هذه الغطرسة التي تجعلهم لا يكفّون عن تقريظ شغلهم المقدس، ويتكلمون على الآخرين جميعا، كأنما على خطأة منحطّين. وحين سمع ذات مرة في اجتماع عام كلام الله معلّقا عليه: «يجب أن نثبت في كل الأمور من خلال صبر كبير أننا رسل الله» نهض كاستيليو ووجّه إلى «رسل الله» الدعوة، لكي يقوموا بفحص ذاتهم بدلا من أن يفحصوا الآخرين دائما ويدينوهم ويعاقبوهم. على الأرجح أن كاستيليو عرف أشياء مختلفة (أسفرت عنها لاحقا محاضر مجلس المدينة) تثبت أن العصمة الأخلاقية لقساوسة جنيف لم تكن في حياتهم الخاصة طهرية تماما، لذلك بدا له أنه مطالب بتأديب هذه التعتيم المنافق. نحن للأسف لم نعرف نص «هجوم» كاستيليو إلا من خلال الصيغة التي قدمها كالفن (التي

لا تحمل أي ارتياب، أن تغير شيئا عندما يتعلق الأمر بالخصم). لكن حتى من خلال هذا العرض المنحاز نستخلص، أن كاستيليو لم يستثن نفسه فيما خص الخطيئة العامة إذ قال: «كان بولس خادم الله، بينما نحن خدم أنفسنا. هو تميّز بالصبر ونحن لا صبر لدينا. هو عانى من جور الآخرين، بينما نحن نلاحق الأبرياء».

لم يكن كالفن الذي حضر ذلك الاجتماع مهيأ لهجوم كاستيليو ولذلك بدا متفاجئا به تماما. رجل مرح شغوف بالنقاش، رجل مثل لوثر كان احتدّ وأجاب بخطاب ملتهب، رجل مثل إيرازموس، عالم الإنسانيات، كان تجادل كعلامة متأنٍ. لكن كالفن، في المقام الأول، رجل واقعي. عملي وتكتيكي. ذو مزاج يعرف كيف يكبح الغضب. استشفّ كم هو قوي تأثير كلمات كاستيليو في نفوس الحاضرين، فرأى أنه ليس من الحيطة أن يعارضه في تلك اللحظة. ظل صامتا، وأخذ يزمّ شفتيه النحيلتين فردّهما أشدّ نحافة. وقد برر لاحقا هذا التحفظ الفريد بقوله: «لزمت الصمت من الوهلة الأولى، حتى لا أضرم نقاشا حادا بحضور غرباء كثيرين».

هل يثيره لاحقا في دائرة مغلقة موثوقة؟ هل سيتجادل مع كاستيليو، كرجل في مواجهة رجل، وكرأي يقارع رأيا؟ هل يدعوه للمثول أمام المجمع الديني ويطالبه بأن يدعم اتهاماته العامة بالأسماء والوقائع؟ لا شيء من كل هذا. كان كالفن دائما غريبا عن كل ولاء في السياسة. بالنسبة إليه، كل محاولة للنقد ليست مجرد اختلاف نظري في الرأي، وإنما هي جناية ضد الدولة، قُل جريمة. والجرائم من اختصاص السلطة المدنية. بدلا من أن يدعو كاستيليو إلى المجمع الديني، جرّه إلى مجلس المدينة محيلا بذلك النقاش ذا الطابع الأخلاقي إلى قضية انضباط. وكانت حيثية الدعوى التي رفعها أمام مجلس مدينة جنيف بهذه الصياغة: «كاستيليو انتقص من قدر هيبة رجال الدين».

لم يلتئم مجلس المدينة بالمزيد الجمّ من الارتياح. أعضاؤه لا يحبون كثيرا هذا العراك بين القساوسة. خصوصا والظاهر يبدو كما لو أن السلطات المدنية لا اعتراض لديها البتّة، أن يقدم أحدهم أخيرا ويقول كلمات علنية ونابضة ضد تكبر المجمع الديني. في البدء أجّل الأعضاء القرار طويلا، وحين أصدروا الحكم في الختام، كان ملفتا للنظر بالتباساته. نال كاستيليو اللوم شفهيا، لكنه لم يُعَاقَب ولم يطرَد. كل ما في الأمر أن مهمته كواعظ في فاندوفر قد عُلِّقت حتى إشعار آخر.

بمثل هكذا تأنيب معتدل نال كاستيليو السعادة بأدنى التكاليف. لكنه اتخذ قراره في قرارة نفسه. حديثا ثبت له، أن لا مجال في جنيف لإنسان حرّ بجوار تلك الطبيعة الطغيانية لشخص مثل كالفن. ولذلك رجا مجلس المدينة أن يعفيه من وظيفته كمدرس. وهو كان لدى أول اختبار للقوة، تعرّف على تكتيك خصمه بما فيه الكفاية، ما جعله يدرك، أن رجال الحزب لديهم قدرة القادر ليحتالوا دائما على الحقيقة، حين ينبغي أن تخدم سياستهم. وكان محقا للغاية إذ رأى مسبقا أن تنازله الحرّ والشجاع عن الوظيفة، سوف يُحَرَّف عبر الكذب إلى أنه خسر وظيفته لهذا أو ذاك من الأسباب غير الشريفة. لذلك طالب كاستيليو بشهادة خطية عن الحادثة، قبل ان يغادر جنيف. وهكذا كان كالفن مضطرا أن يوقّع بخط يده (الوثيقة ما زالت موجودة إلى يومنا هذا في مكتبة بازل ويمكن معاينتها) أن كاستيليو لم يُعَيَّن في وظيفة القسيس لمجرد وجود اختلاف في مسألتين لاهوتيتين فقط. وفي نصّ الوثيقة: «حتى لا يغدو بوسع أيّ كان أن يفترض أسبابا أخرى لمغادرة سباستيان كاستيليو، نشهد بهذه الإفادة وبكل احترام، أنه تنازل بإرادته الحرّة عن وظيفته كمدرس، التي كان قد أدّاها بطريقة جعلتنا نعتبره جديرا بتوليّ مقام الداعية. وإذا كان، مع ذلك، لم يُعيّن، فليس أبدا وبأي حال لأنه يمكن أن توجد في سلوكه شائنة ما، وإنما للأسباب المذكورة أعلاه فقط».

إن الإبعاد القسري من جنيف للعالِم الندّ الوحيد يعني لاستبدادية كالفن نصرا، لكنه في الحقيقة انتصار وهمي. ذلك أن خروج العالِم الرفيع التقدير من الوظيفة، سينظر إليه بأسف على أنه خسارة قاسية. وسوف يُصَرِّح علانية أنه «تمت الإساءة إلى الأستاذ كاستيليو من خلال كالفن». وفي عموم المجال الكوني للدراسات الإنسانية كشفت هذه الحادثة للمهتمين أن كالفن لا يتسامح في جنيف إلاّ مع الببغاويين والقرديين. وبعد مئتي سنة ضرب فولتير المثل بقمع كاستيليو على أنه الدليل القاطع على ذهنية كالفن الاستبدادية: «يمكن للمرء قياسها بالملاحقات التي تعرض لها كاستيليو، وهو العالِم الكبير الذي يفوق كالفن ذاته بمراحل، والذي طرد من جنيف بسبب حسد كالفن».

والحال أن كالفن لديه عيب، كونه حساسا، بل شديد الحساسية. أدرك على الفور الانزعاج العام الذي أثاره بتنحية كاستيليو. وبمجرد أن بلغ هدفه إذ أبعد عن جنيف الإنسان المستقل الوحيد، حتى ساوره القلق من أن الرأي العام سيحمّله وزر حال كاستيليو الذي يهيم على وجهه في الدنيا الآن من دون موارد البتة. وفي الواقع، كان القرار الذي اتخذه كاستيليو قرارا يائسا. إذ أنه كخصم معلن لأقوى البروتستانتيين سلطة سياسية، لا يمكنه في عموم سويسرا أن يحسب حساب توظيف سريع في الكنيسة الإصلاحية. لقد رماه قراره الطائش في الفاقة المريرة. المدير السابق للمدرسة الإصلاحية في جنيف، يطوف كمتسول، كمتضور جوعا، من باب إلى باب. أما كالفن، فهو ثاقب النظر بما فيه الكفاية، ليدرك أن العوز العلني الذي يعيشه خصمه المبعد من شأنه أن يجلب له ضررا قويا. ولهذا حاول كالفن، والآن كاستيليو لم يعد بقربه ليزعجه، أن يسهّل للشريد الأمر ليتنازل عن صلابة موقفه. وبمغالاة غريبة، ليحرر نفسه من الذنب، كتب إلى أصدقائه الرسالة تلو الرسالة يصف فيها الجهد الكبير الذي بذله لكي يوفر وظيفة مناسبة للفقير المحتاج (الذي أصبح فقيرا ومحتاجا

بسبب ذنبه): «أتمنى أن يجد وظيفة أينما كان من دون حجر عثرة. سوف أساهم بمدّ يد العون». لكن كاستيليو لن يقفل فمه كما اشتهى كالفن. حكى في كل مكان بحرية وصراحة أنه اضطر لمغادرة جنيف بسبب استبدادية كالفن. وبهذا أصابه في نقطة حساسة، ذلك أن كالفن لم يعترف مرة بممارسة الدكتاتورية، بل أراد دائما أن ينال التقدير والإعجاب لكونه مجرد خادم مهمته الصعبة بمنتهى التواضع ومنتهى الخشوع. على الفور تغيّرت النبرة في رسائله مودّعا التعاطف الذي انتابه مرة إزاء كاستيليو. قال مشتكيا لصديق: «لو علمت كيف ذاك الكلب – أعني سباستيان – ينبح ضدي! يروي أنه طرد من وظيفته بسبب استبدادي فقط، لكي أنفرد بالحكم وحدي». خلال أشهر قليلة كان ذلك الرجل ذاته الذي كتب عنه كالفن بخط يده إنه جدير بلا ريب بممارسة المهنة الشريفة كخادم للرب، قد أصبح «بهيما» و«كلبا» في نظر كالفن ذاته أيضا، لا لسبب سوى لأنه فضّل الرضا بالفقر المرير على أن يبيع نفسه بوظيفة مدرّة للربح ومهدّئة.

هذا الفقر البطولي الذي اختاره كاستيليو بملء إرادته، أثار يومها إعجاب معاصريه. بوضوح لاحظ مونتانيْ أنه من المؤسف أن رجلا يستحق التقدير الكبير مثل كاستيليو، اضطر إلى المعاناة من هذه الفاقة. وأضاف «حتما كان الكثيرون مستعدين لمساعدته إذا تبلغوا النبأ في الوقت المناسب». لكن في الواقع، لم يظهر الناس أبدا أنهم، على الأقل، مستعدون أن يوفّروا على كاستيليو أدنى أسباب العوز. مرت سنوات ودامت سنوات إلى أن حظي الشريد بوظيفة على قدر أقل من نصف قيمة ثقافته وخلقية حصافته. في البدء لم تستدعه أيّ جامعة ولم تعرض عليه وظيفة القسيس، فالتبعية السياسية للولايات السويسرية تجاه كالفن كبيرة بمكان، لدرجة أن لا أحد يجرؤ علانية على توظيف خصم دكتاتور جنيف. بمشقة وجد الطريد أخيرا شيئا من القوت عبر وظيفة

متواضعة: مصحح في مطبعة أوبورين[٢٧] في مدينة بازل. بيد أن هذا العمل غير المنتظم لا يكفي لتغذية زوجته وأولاده. هكذا اضطر كاستيليو إضافة إلى ذلك، أن ينتزع القروش الضرورية من التدريس الخصوصي في البيوت لكي يفرش طعاما على المائدة للأفواه الست أو الثماني التي في رعايته. سنوات معتمة طويلة كان عليه أن يقضيها والنفس معوّقة والطاقة مشلولة والشقاء مزر لا يوصف، يومي ومثير للشفقة، إلى أن حصل العالِم الكونيّ الثقافة على وظيفة على الأقل: أستاذ اللغة اليونانية القديمة، مهمته إعطاء الدروس التكميلية والإشراف على التمارين العملية! بيد أن هذه المهمة أيضا، هي شرفية أكثر منها مادية، لم تهبه طويلا التحرر من السخرة الدائمة. ذلك العالم الكبير الذي قال عنه البعض إنه الأكثر علما بين أبناء جيله، ظل طول حياته مجبرا على أداء مهمات دون المستوى. بيديه كان يحرث الحديقة أمام منزله الصغير في إحدى ضواحي بازل. وحيث أن عمل النهار لا يكفي لإطعام أسرته، أرهق كاستيليو نفسه أثناء الليالي ليصحّح نصوصا مطبوعة، ليجمّل مؤلفات الآخرين، ليترجم من لغات عديدة، من الإغريقية والعبرية واللاتينية والإيطالية والألمانية. الصفحات التي ترجمها لحساب الناشرين في بازل لكي يكسب قوت يومه، تعدّ بالآلاف والآلاف.

لكن سنوات العوز الطويلة هذه لم تتمكن سوى من جسده. أضرّت بذلك البدن الضعيف الحساس، لكنها لم تنل أبدا من استقلالية وحسم روحه الأبيّة. ذلك أنه وسط أعمال السخرة هذه التي لا يُعرف مداها، لم ينسَ كاستيليو بأيّ حال من الأحوال، مهمته الحقيقية. بثبات لا يتزعزع، واصل العمل على إبداع حياته: ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية والفرنسية. وكان في الأثناء ينشر كتابات جدلية وتعليقات وحوارات. لم يمرّ نهار ولم تمرّ ليلة من دون أن

---

(٢٧) Oporin.

يشتغل كاستيليو. هذا المستغرق الأبدي في الشغل حتى النخاع، لم ينعم مرة بمتعة الرحلة، ولا بلطف الاسترخاء، ولا بالمكافأة المعنوية عبر شهرة فائقة، ولا حتى ثراء ماديا. لكن هذا الإنسان الحرّ فضّل أن يبقى خادم الفقر الأبدي، فضّل أن يخون النوم في لياليه، على أن يخون ضميره المستقلّ. إنه النموذج العظيم الرائع لمثل أبطال الفكر أولئك، الذين - حتى في مجاهل النسيان المعتمة وبعيدا عن أنظار العالم - يقودون النضال من أجل أطهر القضايا: قدسية الكلمة والحق الراسخ في حرية الفكر.

الصراع الحقيقي بين كاستيليو وكالفن لم يبدأ بعد. لكن مفهومين، رجلين، تواجها وحدّق أحدهما في الآخر، اعترفا بأن لا تسامح بينهما. آنذاك أصبح من المستحيل على كليهما العيش في المدينة ذاتها وفي المجال الفكري ذاته، ولو لساعة. لكن حتى عندما أقام أحدهما في بازل والآخر في جنيف بصورة نهائية، راقب أحدهما الآخر بعين ساهرة. لم ينسَ كاستيليو كالفن، ولا كالفن نسي كاستيليو. وما الصمت عندهما إلا انتظار النطق بالكلمة الحاسمة. هذه الخصومة التي ما زالت داخل النفوس، لم تعد مجرد اختلاف في الآراء، إنما هي نزاع أصيل بين مفهوم للكون ومفهوم آخر للكون، لا يمكنهما العيش طويلا في سلام. أبدا، لا يمكن للحرية الفكرية أن تشعر بتحقيق ذاتها في ظل الدكتاتورية، ولا الدكتاتورية تستطيع أن تواصل العيش من دون قلق ما دام رجل مستقل ظل موجودا، ولو وحده، داخل حدودها. لكن المناسبة ضرورية دائما للبتّ في أمر التوترات الكامنة. ما إن أشعل كالفن النار مُحرقا سيرفيت، حتى خرجت الكلمات من فم كاستيليو مُحرِقة مُدينة. ما إن أعلن كالفن الحرب على كل صاحب ضمير حيّ، حتى ردّ عليه كاستيليو باسم الضمير، بحرب فيها حياة أو موت.

* * * * * *



حالـة سيـرفيـت

يحدث على مرّ الزمان أن يختار التاريخ من بين ملايين الناس الذين يشكّلون البشرية، وجهاً واحداً، ليكون التجسيدَ الفاصل في الجدل حول النظرة إلى الحياة. مثل هذا الرجل لا ينبغي بأيّ حال من الأحوال أن يكون عبقرياً من طراز رفيع. غالبا يكتفي القدر باسم مستخرج من بين عدة أسماء من طريق الصدفة، ليكتب اسمه في ذاكرة الأجيال القادمة بطريقة لا تمحى. هكذا حال ميغيل سيرفيت الذي أصبح شخصية تاريخية، ليس بقوة عبقرية خاصة، بل بفضل نهاية حياته المرعبة. متعدد المواهب من دون نسق موَفـّق يجمعها. في شخصية هذا الرجل المدهش اختلطت المَلَكات في ذهن قوي، يقظ، فضولي، عنيد، لكنه يشرد من مشكلة إلى أخرى، صاحب إرادة صافية تبتغي الحقيقة، لكنه غير قادر على الإبداع الواضح. لا يتوافق هذا الذهن الفاوستي بالتمام مع مجالات العلم، برغم تزاحمها لديه. غير متخصص لكنه يقنص في الوقت ذاته من الفلسفة والطب واللاهوت. تارة يُبْهر بملاحظاته الجسورة، ثم لا يلبث أن يثير الاستياء بتلفيقاته الطائشة. على أنه في كتاب نبوءته الرائية تألقت ملاحظة قيّمة هادية بشأن الاكتشاف الطبي لما عرف بالدورة الدموية الصغرى. لكن سيرفيت لم يفكر في أن يستثمر اكتشافه منهجيا ولا في أن يعمـّقه علميا، فانطفأ وميض العبقرية هذا كمثل برق بعيد سابق لأوانه على الجدار المعتم في زمانه. لدى هذا الرجل الفريد الكثير من الطاقة الذهنية، لكن التصميم الذاتي وحده هو الذي يحوّل الذهن القوي إلى ذهن خلاّق.

القول بأن شيئا من دون كيشوت يكمن في سريرة كلّ إسباني، تكرر دائما إلى حد الملل. ومع ذلك، فتلك الملاحظة رائعة، بل وبصدد ميغيل سيرفيت، حقيقية مثيرة للفضول. وليس التطابق في الشكل فحسب بين هذا الأراغوني[٢٨] النحيل الشاحب ذي اللحية المدببة وبين بطل دو لامانشا الهزيل الجسد النحيف، بل في الطبع أيضا حيث التماثل بينهما في التحرق من الولع الغريب السخي بالنضال العبثي، وفي الهرع بمثالية عمياء لمقارعة عوائق الواقع. مكتشفا دائما شيئا جديدا أو متوهما ذلك، انطلق فارس اللاهوت الجوّال هذا مهاجما كل السدود وطواحين الهواء في عصره. وحدها المغامرة تستثيره، والعبثيات والغرائب والمخاطر. وبرغبة واضحة في الشجار، تقاتل مع كل المكابرين الآخرين بمرارة. غير مرتبط بحزب ولا منتمٍ إلى جماعة. منعزل دائما، ممتلىء بالفانتازيا والروعة في آن معا، ما جعله شخصية غريبة الأطوار، فريدة.

منْ يقف وحده بهذا الادعاء الجاد المزمن، سيجد علاقته بالآخرين جميعا قد فسدت بالحتمية. عمره يماثل عمر كالفن تقريبا. كان في مقتبل الفتوة حين اصطدم بالعالم لأول مرة. كان في الخامسة عشرة حين وجد نفسه مضطرا للهرب من محاكم التفتيش من بلدته أراغون إلى تولوز، ليستأنف دراسته فيها. ومن الجامعة اتخذه قسيس الاعتراف لدى الملك كارل الخامس (شارل كوينت) سكرتيرا له فسافر معه إلى إيطاليا ثم حضر وإياه مؤتمرا في أوغسبورغ. هناك استبدّ بالأديب الشاب، مثل أبناء جيله، الشغف بقضايا العصر السياسية: الصراع الكبير داخل الكنيسة. روحه القلقة اهتزت باضطراب تجاه الجدل التاريخي العالمي بين القديم والجديد في العقيدة. أينما عمّ الشجار أراد أن يتشاجر، وحيث الكل يحاول الإصلاح انضمّ إلى المصلحين، وبراديكالية

(٢٨) من مدينة أراغون في إسبانيا.

الشباب اعتبر ذو الدم الحار، التباعد والانفصال عن الكنيسة القديمة الجاري حتى حينه، شديد التريث، فاترا للغاية وفي منتهى الميوعة. حتى أن لوثر وتسفينغلي وكالفن، المجددين الشجعان، كانوا في نظره ليسوا ثوريين بما يكفي لتطهير الإنجيل، إذ هم يستعيدون في عقيدتهم نظرية الثالوث الأقدس. أما سيرفيت، فبعناد ابن العشرين، أعلن مجمع نيقية لاغيا وأن نظرية الأقانيم الثلاثة تتناقض مع وحدة الذات الآلهية.

لم يكن هذا المفهوم الراديكالي مدهشا بحد ذاته، في حقبة متوترة دينيا إلى هذه الدرجة. عندما تأخذ القيم والقوانين جميعا في التزعزع، يحاول كلٌ أن يثبت حقه في التفكير بطريقة مستقلة ومن دون اعتبار للتقاليد. لكن لسوء الطالع، لم يأخذ سيرفيت عن جلّ اللاهوتيين المتعاركين متعة النقاش فحسب، بل أسوأ الخصال أيضا، أي المكابرة المتعصبة. سرعان ما أراد ابن العشرين أن يثبت لقادة الإصلاح، أنهم كانوا مقصّرين تماما في إصلاح الكنيسة وأنه وحده، ميغيل سيرفيت، يملك الحقيقة. وبفارغ صبر زار كبار الحكماء في عصره: مارتن بوسر[٢٩] وكابيتو[٣٠] في ستراسبور وأوكولامباديوس[٣١] في بازل، ليطالبهم بإلغاء النظرية الخاطئة بشأن الثالوث الأقدس في الكنيسة الإنجيلية بأسرع وقت. والآن بوسع المرء أن يتصور بسهولة الارتياع الذي انتاب أولئك الدعاة الأساتذة الناضجين المحترمين، إذ فاجأهم دخول ذلك التلميذ الإسباني الذي لم تنبت لحيته بعد عليهم، الذي طالبهم بكل التهور المميز للمزاج الهستيري القوي، بأن يلغوا فورا كل مفاهيمهم وأن ينضموا طيّعين لطروحاته الراديكالية. كما لو أن الشيطان بذاته حلّ في مكاتبهم، فرسموا إشارة الصليب في وجه

(٢٩) Martin Bucer.

(٣٠) Capito.

(٣١) Oecolampadius.

هذا الزنديق الوحشي. أوكولامباديوس طرده من البيت كما يطرد الكلب ووصفه بأنه «يهودي، تركي، مجدّف، به مسّ من الشيطان». بوسر شهّر به من المنبر باعتباره خادم إبليس. أما تسفينغلي فحذر علانية من «مدنس الحرمات الإسباني الذي يريد أن يدمر ديانتنا المسيحية بكاملها بنظرياته الخاطئة الشريرة».

كما أن الشتم و الصفع لم يردعا فارس لامانشا عن رحلاته الدوّارة إلا قليلا جدا، كذلك مواطنه اللاهوتي، لم تزعزعه الحجج أو الصدّ في نضاله إلا بالنزر اليسير. إذا لم يفهمه القادة، وإذا رفض الحكماء والأذكياء الإنصات إليه في مكاتبهم، فينبغي آنئذ خوض النضال علانية: وليقرأ العالم المسيحي بأسره براهينه في صيغة كتاب! كان في الثانية والعشرين حين جمع ما لديه من مال وبه دفع نظرياته إلى مطبعة في مدينة هاغناو[٣٢]. وكان ذلك نذير العاصفة. وها هو بوسر يعلن من منبر الكنيسة حرفيا من دون زيادة أو نقصان أن هذا المجرم يستحق «أن تنتزع أحشاؤه من جسده الحيّ». ومن تلك الساعة اعتبر سيرفيت في كامل الدوائر البروتستانتية الموفد المختار من طرف الشيطان المتجسد.

من المفهوم أن رجلا وضع نفسه في مواجهة العالم بأسره بهذا الأسلوب الاستفزازي، وأعلن ضلال العقائد الكنسية لدى الكاثوليك والبروتستانت في آن معا، لن يجد في عموم العالم الغربي المسيحي مدينة يأوي إليها في هدوء، ولا بيتا ولا سقفا. ومنذ أن جعل ميغيل سيرفيت نفسه مذنبا بكتابه «الزندقة الآريّة» أصبح أكثر عرضة للمطاردة والخطر من حيوان متوحش. ثمة سبيل واحد ممكن للخلاص: أن يختفي تماما من دون أدنى أثر، أن يغدو غير مرئي، وأن ينتزع اسمه كما يُنتزع الثوب الذي يحترق. وحين عاد المنبوذ إلى فرنسا كان يدعى ميشيل دو فيلنوف[٣٣] وبهذا الاسم المستعار التحق بالعمل كمصحح لدى

---

(٣٢) Hagenau.

(٣٣) Michel de Villeneuve.

ناشر كتب في ليون. وكان في عملية التقمص هذه قليل الاحتراف للغاية، حتى أنه سرعان ما توفرت إمكانيات جديدة للإثارة والجدل في هذا المجال. لدى تصحيح طبعة كتاب الجغرافيا لبطليموس تحول سيرفيت بين ليلة وضحاها إلى جغرافي وزوّد الكتاب بمقدمة مسهبة. ولدى مراجعة كتب في مادة الطب أخذ الذكي اللماح يتثقف بدوره في الطبابة، وبعد وقت قصير كان بدأ دراسة الطب بجدية، فانتقل إلى باريس ليؤهل نفسه بالمزيد وعمل مع فيزاليوس(٣٤) كمحنّط في محاضرات مادة التشريح. لكن مجددا، كما في مجال اللاهوت من قبل، حدث أن ذلك العديم الصبر، من دون أن يصل إلى النهاية في دراسته حقا، وعلى الأرجح من دون أن يكون قد نال درجة الدكتوراه، بدأ على الفور راغبا في هذه المادة الجديدة، أن يعلّم الآخرين وأن يتجاوزهم. وبجرأة أعلن في مدرسة الطب في باريس عن دورة دراسية في الرياضيات وعلم الظواهر الجوية وعلم الفلك وعلم التنجيم. لكن هذا الخلط بين التنجيم والطب وبعض الممارسات الاحتيالية أغضبت الأطباء، فدخل سيرفيت – فيلانوفوس في نزاع مع السلطات، وانتهى الأمر بأن اتهمه البرلمان بالتسبب في بلبلة كبيرة بما نشره عن التنجيم، وهو علم مدان وفق القوانين الآلهية والمدنية. ومرة أخرى أنقذ سيرفيت نفسه بالاختفاء السريع، حتى لا تؤدي التحقيقات الإدارية إلى إماطة اللثام عن هوية الزنديق المطلوب للعدالة مرارا. بين ليلة وضحاها اختفى الأستاذ فيلانوفوس من باريس، كما اختفى اللاهوتي سيرفيت سابقا في ألمانيا. لفترة طويلة لم يعد أحد يسمع عنه شيئا. وحين ظهر مجددا كان يرتدي قناعا آخر. مَنْ يمكن أن يساوره الشكّ، أن الطبيب الخاص الجديد لكبير أساقفة فيينا بولمير(٣٥)، أن ذلك الكاثوليكي التقي الذي يواظب على حضور

---

(٣٤) Vesalius.

(٣٥) Paulmier.

القداس كل يوم أحد، زنديق مطلوب للعدالة ومدان من البرلمان الفرنسي بتهمة الاحتيال؟ على أي حال، فميشيل دو فيلنوف توخى الحذر وهو في فيينا، عن عقل وتدبر، من نشر قضايا بها هرطقة. لزم الهدوء تماما وكان خفيف الوطء. عاد العديد من المرضى وعالجهم، وربح المال الوفير. وكان مواطنو فيينا الأفاضل يرفعون قبعاتهم باحترام كامل عندما يمرّ أمامهم الرجل الوقور ذو الهيبة الإسبانية الطبيب الخاص بغبطة كبير الأساقفة الأستاذ الدكتور ميشيل دو فيلنوف، ويتهامسون: يا له من رجل نبيل، ورع، عالِم، متواضع.

لكن في الحقيقة، لم يخفتْ كبير المارقين البتة لدى ذلك الرجل الطموح الشغوف، ففي أعماق ميشيل سيرفيت تعيش بثبات النفسية القديمة الباحثة القلقة. وعندما تتملك فكرة ما من إنسان وتراوده، تسيطر عليه حتى آخر ذرة من تفكيره ومشاعره، وبالتالي تنمو في داخله حرارة لا تتوقف. الفكرة الحية لا تريد أبدا أن تحيا ثم تزول لدى إنسان مآله الموت، بل ترغب في فضاء وعالَم وحرية. ولهذا تأتي دائما الساعة المعينة لدى كل مفكـّر التي تخرج فيها فكرة العمر من داخله إلى الخارج، كما تخرج سلخة الخشب الرفيعة من إصبع متقيح، والطفل من جسد أمه، والثمرة من قشرتها. ورجل لديه ما لدى سيرفيت من ولع واعتداد بالنفس، لن يتحمل على الدوام أن يجتر ذهنه وحده أفكاره الذاتية، وباشتهاء لا يقاوم سيرغب في أن يشاركه إياها العالم بأسره. وكما من قبل، يعني ذلك بالنسبة إليه تأنيب ضمير يومي، إذ يرى قادة الكنيسة الإنجيلية وهم في رأيه يبشرون بعقيدة خاطئة بشأن الثالوث الأقدس وعمادة الأطفال، والمسيحية لمّا تزل ملطـّخة بضلال الفكر «المعادي للمسيحية». أوليس من واجبه أخيرا، أن يتقدّم ويبلغ العالم بأسره رسالة المعتقد القويم؟ لا بد وأن تكون سنوات الصمت القسري قد أرخت ثقلها المرعب على سيرفيت. من جهة تلحّ عليه الكلمات أن ينطق، ومن جهة أخرى، عليه كمطارد متخفّ أن يطبق

الشفاه. في هذه الحالة الموجعة للغاية، حاول سيرفيت في الختام – ورغبته مفهومة – أن يجد أخا في التفكير، أقلّه عن بُعْد، يمكنه أن يتبادل معه المناجاة. وحيث أنه لا يجازف في فيينا بمشاركة فكرية مع أحد، عبّر عن قناعاته اللاهوتية في كلمات مكتوبة في رسائل.

من سوء الطالع، أن الأعمى اختار كالفن بالذات لكي يهبه ثقته التامة. وخصوصا من هذا المجدد في المذهب الإنجيلي، الأكثر جرأة وراديكالية، تأمل سيرفيت أن يجد تفهما لقراءة أقسى وأجرأ لنص الكتاب المقدس، ولعله بذلك يجدد المحادثة الشفهية الوحيدة التي جرت بينهما. وكان الاثنان وهما من العمر نفسه زميلين في الدراسة الجامعية في باريس. لكن بعد سنوات، وكان كالفن أصبح سيّد جنيف و ميشيل دو فيلنوف الطبيب الخاص لكبير أساقفة فيينا، حدث الاتصال عبر تبادل الرسائل بوساطة من صاحب مكتبة في ليون. جاءت المبادرة من سيرفيت. بإلحاح يستبعد الرفض تماما، بل يمكن القول بصفاقة، توجّه إلى كالفن ليربح تأييد منظّر الإصلاح القوي هذا لنضاله ضد عقيدة الثالوث الأقدس، فكتب إليه الرسالة تلو الرسالة. في البداية أجاب كالفن وفق العقيدة محذرا. ثم انطلاقا من إحساسه بواجبه أن يهدي الخطأة، وكقائد للكنيسة أن يجلب الفلول الضالة إلى الحظيرة الجيدة، حاول أن يبسط أمام سيرفيت أخطاءه. لكنه في النهاية شعر بمرارة سواء بسبب القضية الهرطوقية وسواء بسبب النبرة المتعجرفة والمقتدرة التي عرضها بها سيرفيت. وأن يكتب المرء إلى شخصية سلطوية إلى أقصى حدّ مثل كالفن، الذي تتهيج مرارته من أدنى اعتراض على أتفه الصغائر، على النحو التالي: «لقد حذرتك مرارا من أنك تمضي في الطريق الخطأ بما أنك توافق على التمييز الهائل بين الأقانيم الآلهية الثلاثة»، فهذا يعني أنه يثير بشكل خطر خصما خطيرا أساسا. لكن حين يرسل نسخة من كتاب «تعاليم الديانة المسيحية» إلى بيت مؤلفه ذي

الشهرة العالمية، وبها على غرار ما يفعله أستاذ مع تلميذ، هوامش على جوانب الصفحات بشأن الأخطاء المفترضة، يمكن للمرء بسهولة أن يتصور ردة الفعل التي استقبل بها سيّد جنيف هذه الإهانة من لاهوتي هاو. كتب كالفن إلى صديقه فاريل مزدريا «لقد انهال سيرفيت على كتبي ولطخها بملاحظات مهينة، مثل كلب عضّ حجرا وراح يقضمه من كل جانب». فيم إضاعة الوقت ولماذا الجدل مع مهووس من هذا النوع لا رجاء في شفائه؟ وبركلة واحدة قضى على حجج سيرفيت «لا ألقي بالا إلى كلمات ذلك المخلوق، كما لا أهتم بنهيق الحمار».

لكن الدون كيشوتي المشؤوم لم يكتشف في الوقت المناسب أنه يهرول واعيا برمحه النحيل في مواجهة عربة مصفحة بالصلب، ولا يتراجع. وإلى ذلك الشخص بالذات، الذي لا يريد أن يعرف عنه شيئا، إليه وحده، توجّه سيرفيت بقصد استمالته لصالح فكرته، ولا ينثني، كما لو أنه – كما كتب كالفن – مسكون بالشيطان. وبدلا من أن يتوارى عن نظر كالفن باعتباره الخصم الأخطر المفترض، أرسل إليه بروفات لم تطبع بعد من كتابه اللاهوتي الذي أعدّه، بقصد الاطلاع عليها. وإذا كان المحتوى بحد ذاته يستفزّ كالفن بالضرورة، فالعنوان يؤدي ذلك بالتأكيد! إذ أعطى سيرفيت كتابه التعليمي عنوان «تصحيح المسيحية»[٣٦] كما ليلفت أنظار العالم إلى أن كتاب كالفن «تعاليم الديانة المسيحية» ينبغي أن يواجه بـ «تصحيح». عندها استبد الغضب بكالفن نظرا لذلك التبشير المَرَضي والإلحاح المجنون لدى ذاك المعارض. وبوضوح أفهم صاحب المكتبة فريلون، الذي كان الوسيط بينهما في تبادل الرسائل، أن عنده أشياء ملحّة يريد أن ينجزها، أفضل من أن يخسر وقته مع

(٣٦) Christianismi Restitutio.

مثل ذلك المجنون المنتفخ. وفي الوقت نفسه كتب إلى صديقه فاريل – وسيكون للكلمات التالية ثقل مرعب في وقت لاحق – : «كتب لي سيرفيت حديثا رسالة وأرفقها بمجلد سميك به أضغاث أحلامه السخيفة، مستبيحا لنفسه الحق في الزعم بشكل لا يصدق، أنني سأقرأ فيها أشياء مدهشة، وأوضح أنه مستعد للمجيء إلى هنا إذا كنت أرغب في ذلك... لكنني لن أقول كلمتي بهذا الصدد، ذلك أنه لو جاء، فلن أسمح له، طالما ما زال لديّ تأثير ما في هذه المدينة، أن يخرج منها حيّا».

هل نمى إلى علم سيرفيت هذا التهديد، أو حذره كالفن شخصيا (في رسالة غدت مفقودة)؟ على أيّ حال، يبدو أنه تكوّنت لديه أخيرا فكرة لأيّ ذي حقد قاتل قد سلّم نفسه. ولأول مرة تملك منه الضيق، إذ تفكّر أن المخطوطة الخطيرة التي أرسلها إلى كالفن «سرّي وخاص» هي الآن في يد الذي يصرّح علانية بعداوته له. وقد كتب المذعور إلى كالفن «أما وأنت ترى أنني بالنسبة إليك شيطان، فإنني أنهي الموضوع. ردّ لي مخطوطتي وابقَ بخير. أما إذا كنت تعتقد حقا أن البابا مخالف للمسيح، فينبغي أن تقتنع أيضا أن الثالوث الأقدس وعمادة الأطفال، التي تشكل جزءا من مذهب البابا، هي عقيدة شيطانية».

لكن كالفن تحفّظ عن الرد، وبدرجة أقل أبدى اهتماما بردّ المخطوطة المحمّلة بالكثير. بعناية، كما يتعامل المرء مع سلاح خطر، احتفظ بالمخطوطة التجديفية في جارور، لكي يتمكن من استخراجها في الوقت المناسب. ذلك أن الرجلين يعرفان أن الصراع سيبدأ حتما بعد تلك المناقشة الحادة الأخيرة. وفي تلك الأيام كتب سيرفيت بشعور مسبق متجهم إلى لاهوتي يعرفه: «أصبح واضحا تماما لي الآن، أنني سأعاني من الموت الوشيك بسبب هذه القضية. لكن شجاعتي لن تهبط إلى الحضيض بسبب مثل هذا التفكير. كتلميذ للمسيح، سأخطو في إثر معلمي».

إنها مجازفة ومسألة تهدد الحياة بالخطر - يعرف كاستيليو وسيرفيت ومئة آخرون ذلك - أن تقف في وجه مكابر متعصب مثل كالفن، ولو لمرة واحدة، ولو بصدد نقطة ثانوية جدا في مذهبه فحسب. ذلك أن حقد كالفن، كما كل شيء في شخصيته، قاس ومنهجي. لا علاقة له بنار الغضب الذي يشتعل ثم لا يلبث أن ينطفيء، كما في انفجارات الغضب العنيف لدى لوثر أو كما فظاظة فاريل. لحقده غلٌ قاس وحاد وقاطع كالمعدن. لا ينبثق، كما الحال مع لوثر، من الدم أو المزاج أو الطبيعة الحامية أو المرارة. ضغينة كالفن باردة ودؤوبة تأتي من المخ. ولحقده ذاكرة جيدة مرعبة. لا ينسى كالفن شيئا ولا أحدا. «عندما يحقد على إنسان، لا يتوقف في حقده عند حدّ» هكذا قال عنه القسيس دو لامار. وإن اسما كُتب ذات مرة في تلافيف الحقد بالقلم الاردواز، لن يمحَ، قبل أن يمحى صاحبه ذاته من كتاب الحياة. وإذا مضت السنوات الطويلة ساكنة ولم يسمع كالفن خلالها شيئا عن سيرفيت، فلا يعني ذلك أنه نسيه. بصمت، احتفظ بالرسائل المشبوهة في خزانته، وبالسهام في جعبته، وبالحقد القديم الحتمي في نفسه الحادة التي لا ترحم.

في الواقع، ظل سيرفيت طول تلك المهلة الطويلة في هدوء تام ظاهر. أقلع عن إقناع الذين لا يقبلون العلم، وانكبّ شغفه الراهن على كتابه. بإنكار للذات هاديء ومؤثر حقا، واصل الطبيب الخاص لكبير الأساقفة اشتغاله على كتاب «تصحيح المسيحية»، وهو يأمل عبره أن يتجاوز في الحقيقة إصلاح كالفن ولوثر وتسفينغلي بمسافات، وسيقود العالم في النهاية إلى المسيحية الحقة. ولم يكن سيرفيت يوما وبأيّ حال من الأحوال «المحتقِر الخرافي للإنجيل» كما حاول أن يشنّع عليه كالفن لاحقا، ولا حتى المفكر الحر الجسور والملحد، كما يشاع عنه اليوم. دائما ظلّ سيرفيت في مجال الدين. ويشهد النداء التالي الذي صاغه في مقدمة كتابه على مدى شعوره الذاتي كمسيحي ورع ينبغي

أن يهب حياته لخدمة الإيمان بالله: «يا يسوع المسيح، يا ابن الله، يا عطية السماء لنا، أعلن حكمتك لخادمك، ليكون مثل هذا الوحي الكبير جليّا لنا حقا. إنها قضيتك التي أنا، تبعا لاندفاع ربّاني داخلي، أخذت على عاتقي أن أدافع عنها. قمت بتجربة أولى سابقا، والآن سأكتفي بتجربة جديدة، فالوقت قد استحق. أنت علّمتنا ألا نخفي الضوء، وبالتالي تراني أتحسّر فعلا إنْ أنا ما أعلنت الحقيقة!».

كان سيرفيت يعي تماما الخطر الذي سينجم من جراء نشر كتابه، والدليل على ذلك نتلمسه في إجراءات الحذر الخاصة التي اتخذت لدى الطباعة. ويا للمخاطرة الهائلة، أن يقدم الطبيب الخاص لكبير الأساقفة على طباعة كتاب من سبعمئة صفحة يتضمن زندقات، في مدينة صغيرة لا يكتم فيها خبر مثل فيينا!. ليس المؤلف فحسب، بل الناشر والعمال أيضا يجازفون جميعا بحياتهم بسبب تلك المغامرة الجريئة. لكن سيرفيت ضحّى بكامل مدخراته التي جمعها بمشقة خلال سنوات عديدة من العمل كطبيب، ليرشو بها العمال المترددين، لكي يطبعوا كتابه سرا برغم محاكم التفتيش. وبحذر تام نُقلت آلة الطباعة من مكانها في المطبعة إلى بيت متوار عن الأنظار كان سيرفيت قد استأجره لهذا الغرض. هناك اشتغل على الكتاب البِدعي بطريقة لا يشعر بها مخلوق، العمال الموثوق بهم فقط، الذين أقسموا اليمين على الالتزام بحفظ السرّ. ومن المفهوم أن الكتاب عند طبعه خلا تماما من أيّ إشارة إلى المطبعة أو الناشر. لكن من الشؤم العظيم أن سيرفيت وضع في الصفحة الأخيرة إلى جانب تاريخ الطبعة ثلاثة أحرف غادرة .M.S.V (ميغيل سيرفيت فيلانوفوس) هي الأحرف الثلاثة الأولى من اسمه، وبذلك سلـّم كلاب التفتيش البوليسية الدليل القاطع على أنه مؤلف الكتاب.

لكن سيرفيت لم يكن بحاجة إلى أن يخون نفسه بنفسه. إذ كان ذلك

موضع اهتمام خصمه الذي لا يرحم وحقده الثاقب البصر الراصد حقا، وإن كان في الظاهر يبدو غافيا. المؤسسة الكبيرة للتجسس والمراقبة التي أسسها كالفن في جنيف والتي يرعاها باستمرار بطريقة منهجية ولبقة، امتد نشاطها إلى كل البلدان المجاورة، وإلى فرنسا ذاتها، بأدق من التفتيش البابوي. لم يكن كتاب سيرفيت قد صدر بعد فعلا، وكانت جميع النسخ الألف تقريبا لمّا تزل مكدسة في مجموعات وموثقة بالحبال في ليون، أو سافرت وهي في شاحنات الكتب المتجهة إلى معرض الكتب في فرانكفورت، ولم يكن سيرفيت قد وزّع سوى القليل جدا من النسخ - ولا يوجد منها اليوم في العالم سوى ثلاث نسخ - حين كان كالفن قد تصفّح نسخة! وعلى الفور أعدّ العدّة ليفني الاثنين بضربة واحدة: الزنديق وكتابه.

إن محاولة القتل الأولى هذه التي دبّرها كالفن ضد سيرفيت (وهي الأقل شهرة) هي في الواقع – بسبب المكر السيء – أشد شناعة من التالية اللاحقة حيث نفّذ الموت العلني في ساحة السوق في شامبيل. ذلك أن كالفن بعدما وصله الكتاب الذي اعتبره قمة في الزندقة، لو أراد أن يسلّم خصمه إلى السلطات المدنية، لكان السبيل أمامه شريفا ومفتوحا. كان يكفيه لدى صعوده إلى المنبر أن يحذر المسيحية من هذا الكتاب، حتى كانت أجهزة التفتيش الكاثوليكية بنفسها لتكتشف المؤلف في مهلة قصيرة وإنْ كان في ظلّ قصر كبير الأساقفة. لكن قائد الإصلاح وفّر على المكتب البابوي عناء التنقيب بأسلوب رفيع الخداع. وعبثا حاول مداحو كالفن أن يدافعوا عنه بصدد هذه النقطة المظلمة إذ تجاهلوا الحقائق الكامنة في أعماق شخصيته ولوّنوها: كالفن شخصيا، هو بلا شك رجل من أصدق المتحمسين ومن أنقى أصحاب الإرادة الدينية، لكنه ينقلب فورا إلى فاسد السريرة إذا تعلّق الأمر بعقيدته أو بـ «القضية». من أجل مذهبه أو حزبه هو مستعد على الفور لاستخدام كل الوسائل إذا

لاحت له مجدية (في هذه النقطة يبدو استقطاب لويولا الآخرين هو الهوية المشتركة). ما إن وصل كتاب سيرفيت إلى يد كالفن، حتى كان أحد أقرب أصدقاء الأخير، وهو مهاجر بروتستانتي يدعى غيوم دو تري[٣٧]، يكتب رسالة من جنيف يوم ١٦ شباط/فبراير ١٥٥٣ إلى فرنسا، إلى نسيبه أنطوان أرنيس[٣٨] الذي ظلّ كاثوليكيا متعصبا فيما تحول دو تري إلى البروتستانتية. في هذه الرسالة أثنى دو تري في البداية وبشكل عام على القسوة التي تقمع بها جنيف البروتستانتية كل التحريض الهرطوقي، بينما فرنسا الكاثوليكية تركت هذه الطحالب الضارة تنمو بوفرة. لكن فجأة تغدو هذه الدردشة الودية خطرا جديا: «هناك الآن مثلا في فرنسا، يقيم زنديق يستحق أن يُحرَق أينما وجد».

لا بد أن يفزع المرء لا إراديا. فالجملة الأخيرة تتناغم بشكل خطير مع تصريح سابق لكالفن، يوم قال إذا تراءى لسيرفيت أن يدخل جنيف، فعليه أن يحذر أنه لن يخرج منها حيا. لكن دو تري، صديق كالفن، سيكون أوضح تعبيرا. إنه يشي الآن بكل صراحة ووضوح: «القضية تتعلق برجل إسباني من أراغون يدعى ميغيل سيرفيت لكنه يطلق على نفسه لقب ميشيل دو فيلنوف ويتعاطى مهنة الطب». وأرفق بذلك عنوان كتاب سيرفيت المطبوع، وخلاصة تشرح المحتوى والصفحات الأربع الأولى. وبعدما بعث برسالته القاتلة، أطلق تنهيدة حسرة على انتشار الخطيئة في العالم.

هذا اللغم الجنيفي وضع بطريقة حاذقة للغاية لكي لا ينفجر على الفور في الموقع المرغوب. كل شيء يجري بالضبط كما خططت له رسالة الوشاية المقيتة

---

(٣٧) Guillaume de Trye.

(٣٨) Antoine Arneys.

هذه. أرنيس، النسيب الكاثوليكي الورع، هرع بالرسالة وهو بغاية الذهول إلى السلطات الكنسية في ليون، فما كان من الكردينال إلا أن استدعى، وعلى عجل، مسؤول التفتيش البابوي بيار أوري(٣٩). وبسرعة خارقة دارت العجلة التي كان كالفن قد دحرجها. انطلقت الوشاية من جنيف يوم ٢٧ شباط، وفي ١٦ آذار كان ميشيل دو فيلنوف يستدعى للتحقيق في فيينا.

لكن ثمة خيبة أمل مريرة للوشاة الورعين المجتهدين في جنيف: اللغم المتقن الصنع لم ينفجر. لا بد وأن يد عون معينة قطعت فتيل اللغم. على الأرجح، أن كبير أساقفة فيينا شخصيا، أعطى إيعازا قيّما إلى طبيبه الخاص أن يغطي نفسه في الوقت المناسب. ذلك أنه حين أتى المفتش إلى فيينا، كانت آلة الطبع قد اختفت بطريقة سحرية من مكانها، والعمال أوضحوا وأقسموا أنهم لم يطبعوا إطلاقا كتابا من هذا النوع، أما فيلانوفوس الطبيب ذو التقدير الرفيع فأنكر وهو ساخط أي تطابق بينه وبين ميغيل سيرفيت. الأمر المدهش أن هيئة التفتيش أعلنت أنها اكتفت بهذا الاعتراض. هذا التساهل الغريب يؤكد الظن أن يدا قادرة معينة حمت سيرفيت آنذاك. المحكمة، التي في حالات مماثلة كانت تأمر بأدوات التعذيب من نوع عصر الأصابع أو التعليق بالرافعة، أطلقت سراح فيلنوف، وعاد المفتش خاوي الوفاض إلى ليون، حيث أخبر أرنيس أن المعلومات التي قدّمها لم تكن كافية، للأسف، لإصدار إدانة. الهجمة الجنيفية التي نشدت التخلص من سيرفيت بطريقة ملتوية عبر التفتيش الكاثوليكي، أسفرت عن إخفاق يرثى له. هذه القضية المشبوهة كان يمكن أن تتيه في الرمال، لولا أن أرنيس توجه بالطلب إلى جنيف مرة ثانية، ورجا نسيبه دو تري، أن يرسل له مجددا الأدلة، لكن أن تكون أدلة قاطعة هذه المرة.

---

(٣٩) Pierre Ory.

إلى هنا، ينبغي أن يبلغ المرء أقصى درجات التغاضي لكي يعتقد على الأرجح، أن دو تري أبلغ نسيبه الكاثوليكي ما أبلغه عن المؤلف الذي لا يعرفه شخصيا، انطلاقا من حرارة الإيمان فحسب، أو أن يصدق أن دو تري وكالفن لم يدركا، أن وشايتهما الشخصية كان من الممكن أن تصل إلى السلطات البابوية. أما الآن وقد بدأت آلة العدالة العمل، فلا بد أن ثنائي جنيف قد أدرك تماما، أن أرنيس لم يطلب المزيد من الأدلة بدافع الفضول الشخصي، وإنما بتكليف من التفتيش، وبالتالي لم يعد بوسعهم التظاهر بأنهم لا يدرون فعلا مع من يتعاملون. وبرغم كل التحفظ الممكن في الدنيا، اضطر رجل دين إنجيلي أن يجفل متقززا، لكونه استُخدم كمخبر لدى السلطات ذاتها التي أحرقت عددا من أصدقاء كالفن على نار هادئة. وفي فترة لاحقا، سيقذف سيرفيت قاتله كالفن في وجهه، وعن حق، بالسؤال التالي: «ألم يكن معروفا لديك، أنه ليس من مهمة خادم الإنجيل أن يغدو مدعيّا عاما لدى السلطة وأن يلاحق رجلا ما مستغلا هذه السلطة؟».

لكن عندما يتعلق الأمر بمذهبه – ينبغي أن يكرر المرء ذلك دائما – يفقد كالفن المعايير الأخلاقية والمشاعر الإنسانية كافة. ينبغي أن تتم تصفية سيرفيت. باستخدام أيّ سلاح وباللجوء إلى أي وسيلة؟ الأمر سيّان تماما في الوقت الراهن في نظر الحاقد الأبدي. في الواقع، جرى ذلك بأكثر الأساليب مكرا ومدعاة للخجل. ذلك أن الرسالة الجديدة التي أرسلها دو تري إلى نسيبه أرنيس – والتي بلا شك أملاها كالفن عليه – هي من روائع النفاق. في البداية أعرب دو تري عن بالغ اندهاشه كون الرسالة التي بعث بها إلى نسيبه، حولّها هذا إلى محكمة التفتيش، مع أنه دوّن فيها التنبيه «خاص بك وحدك». وأضاف: «كانت نيّتي منحصرة في توضيح أسلوب الحماسة الدينية الجميلة لدى الذين يقولون إنهم أعمدة الكنيسة». وبرغم علمه أن المحرقة غدت قيد الاشتعال، وبالتالي ينبغي عليه أن يمتنع عن توفير المزيد من المواد للتفتيش

الكاثوليكي، لكن بدلا من ذلك، أوضح الواشي المتحجر القلب بارتعاشة أهداب الورعين، أن الخطيئة قد ارتكبت، فقد «أرادها اللّٰه من أجل الخير العام، حتى تتطهر المسيحية من مثل هذا الدنس ومن مثل هذا الطاعون القاتل». وما سيبدو الآن يفوق المعقول: بعد هذه المحاولة السيئة لربط الله بمسائل الحقد البشرية، أو بالأحرى اللاإنسانية، ها هو البروتستانتي الطيب المقتنع بكنيسته، يسلم التفتيش الكاثوليكي الأدلة القاتلة التي تتجاوز الخيال، وتحديدا رسائل سيرفيت بخط يده وبعض صفحات من مخطوطة كتابه. والآن بوسع القاضي المحقق في أمور الزندقة أن يبدأ عمله بسرعة وراحة.

رسائل من سيرفيت بخط يده؟ كيف تمكن دو تري الذي لم يكتب له سيرفيت رسالة واحدة من الحصول على رسائل بخط اليد؟ وممن ؟ الآن لم يعد هناك من اختفاء. ينبغي على كالفن أن يخرج من الخلفية التي أراد أن يتوارى في ظلّها بحذر خلال هذه القضية المشبوهة. من المفهوم أن هذه الرسائل والمقاطع المختارة من المخطوطة هي التي كانت قد أرسلت إلى كالفن، الذي يعرف تماما - وهذا أمر حاسم - لمن تتوجه حين استخرجها من خزانته. وهو يعرف ليد من بالضبط سوف تنتقل هذه الرسائل: إلى «البابويين» ذاتهم الذين يسميهم خدم الشيطان في خطبه التي يلقيها من المنبر، وهم ذاتهم الذين يعذبون أتباعه ويحرقونهم. وهو يعرف تماما الغرض الذي جعل كبير المفتشين يلحّ في طلب هذه الرسائل: لأجل أن يتمّ اقتياد سيرفيت إلى المحرقة.

لذلك ذهبت عبثا محاولته اللاحقة أن يزوّر الوقائع حيث كتب بسفسطة: «تروج الشائعات القائلة بأنني مارست ما كان من شأنه أن يجعل التفتيش البابوي يلقي القبض على سيرفيت. والبعض يقول إنني ما تصرّفت بطريقة شريفة، منعت تسليمه إلى أعداء العقيدة الألدّاء أو حالت دون رميه في حلق الذئاب. لكن أرجوكم: بأيّ طريقة تسنّى لي فجأة أن أعقد اتصالات مع

الدوائر البابوية؟ والاعتقاد بوجود تبادل بيني وبين الذين هم في نظري كما إبليس بالنسبة للمسيح، أو تشارك في التآمر، لأمر ضعيف المصداقية». بيد أن منطق هذه الالتفافة على الحقيقة يخلو تماما من اللباقة. فعندما يتساءل كالفن متلعثما «بأيّ طريقة تسنّى لي فجأة أن أعقد اتصالات مع الدوائر البابوية؟» فإن الوثائق تقدّم له ردّا له وقع الصاعقة: من الطريق المباشر، عبر صديقه دو تري، الذي بالمناسبة، في رسالته إلى أرنيس ذكر بطريقة ساذجة مساعدة كالفن له «يجب أن أعترف، أن القطع التي أرفقها برسالتي، كلّفتني الكثير من المشقة لكي آخذها من السيد كالفن. ليس بسبب أنه لم يكن من رأيه أن مثل هذه التجديفات المشينة ضد الذات الآلهية يجب أن تُقمع، وإنما مردّ الأمر إلى أنه يعتقد أن واجبه كشخص أن يقنع المارقين بالحجة، لا أن يطاردهم بسيف العدالة». ومن دون طائل يحاول الكاتب غير اللبق أن يرفع كل الذنوب عن عاتق المذنب الحقيقي (واضح أن ذلك بإملاء من كالفن) حيث كتب «لكنني ضغطت كثيرا على السيد كالفن وأوضحت له بطريقة مقنعة أنه إذا لم يساعدني، فلسوف تقع عليّ تهمة الخفّة، فكان أن وضع بتصرفي المواد المرفقة إليك». لكن الوقائع التوثيقية أفصح بيانا من الكلمات الذكية: سواء عن طيب خاطر أم بالرغم منه، ففي كل الأحوال سلّم كالفن «الدوائر البابوية» بقصد القتل، الرسائل التي كان سيرفيت بعث بها إليه بصفة خاصة. ولم يكن ممكنا إلا بمساعدة واعية من كالفن، أن يبعث دو تري برسالته إلى أرنيس – وفي الحقيقة إلى عنوان التفتيش البابوي – مع ما رافقها من أدلة تحرّض على القتل، وأن يختم الرسالة بهذا التنبيه: «أعتقد بأنني سلّحتك بمواد جيدة، ولم تعد هناك أيّ صعوبة في السيطرة على سيرفيت وفي إقامة الدعوى ضده».

روت التقارير أن الكاردينال دو تورنون[٤٠] وكبير المفتشين أوري قد انفجرا

(٤٠) De Tournon.

في قهقهات مدوية عندما تسلّما الأدلة النهائية ضد المارق سيرفيت بفضل الاجتهاد الودود لعدوّهم اللدود كبير الزنادقة كالفن، وكان واضحا أن ثمة إلحاح في التسليم. وبوسع المرء أن يفهم المزاج الرائق لأمراء الكنيسة آنئذ. ذلك أن بلاغة الرسالة المتذرعة بالورع لم تغط بإتقان عيوب كالفن الأخلاقية التي لا يمحوها الزمان، وإن انطلقت من الطيبة ودماثة الخلق والوفاء للصداقة لدى دو تري، فهي مع ذلك، أي نعم مع ذلك، تشي بأن قائد البروتستانتية سعى بأرقّ الشمائل إلى مساعدتهم، هم أمراء الكنيسة الكاثوليكية، لإحراق زنديق. مثل هذه اللياقات المهذبة والمجاملات، لم تكن معهودة البتّة بين الكنيستين اللتين تحاربتا بعنف في عموم بلدان الكرة الأرضية بالحديد والنار وبالمشانق وعجلات التعذيب. لكن ما إن انقضت تلك اللحظات البهيجة اللطيفة، حتى انكبّ رجال التفتيش فورا على العمل بحيوية. ألقي القبض على سيرفيت وأودع السجن وتم استجوابه بسرعة. الرسائل التي وصلت عبر كالفن، ولّدت دلائل مذهلة وصاعقة، على أن ميغيل سيرفيت هو ذاته ميشيل دو فيلنوف، هو ذاته مؤلف الكتاب، ولم يعد بوسعه أن يواصل الكذب. قضيته خاسرة. قريبا سوف تشعل المحرقة في فيينا.

لكن للمرة الثانية تبدو أحلام كالفن الجامحة في أن يقوم أعداؤه الألداء بتخليصه من عدوه اللدود، سابقة لأوانها. إذ إما أن سيرفيت، الذي يحظى كطبيب بمحبة رفيعة في فيينا ونواحيها، كان لديه معين جيد بصفة خاصة، وإما – وهذا هو الأرجح – أن السلطات الكاثوليكية طاب لها أن تبدي بهذه المناسبة بعض الإهمال، خصوصا وأن كالفن قد أظهر إلحاحا فائقا للغاية بشأن سوق ذلك الرجل إلى عمود المحرقة. ورأت أن ترك فرصة الهرب متاحة لزنديق غير مهم، أفضل ألف مرة من مجاملة أخطر منظّم وداعية لجميع أنواع الزندقة، الأستاذ كالفن القابع في جنيف! وعليه، ظلت الحراسة المفروضة على سيرفيت

مدهشة في استهتارها. بدلا من أن يبقى الزنديق محبوسا في زنزانة ضيقة ومقيدا بسلاسل حديدية إلى الحائط، سمح له بالقيام بنزهات يومية في الحديقة لكي يستنشق الهواء النقي. وفي السابع من نيسان/ابريل اختفى سيرفيت بعد إحدى هذه النزهات. لم يجد حارس السجن سوى قميص نومه والسلّم الذي استخدمه في تسلّق سور الحديقة. وفي ساحة السوق في فيينا تمّ إحراق رسم سيرفيت وخمس ربطات كتب بها نسخ من «تصحيح المسيحية»، بدلا من الرجل الحيّ نفسه. أما مخطط جنيف الذي تمّ تدبيره بمهارة، فلقد باء بالفشل الذريع. وكان يقضي أن يجري التخلص بدهاء من خصم شخصي وروحي عبر قوة غريبة متعصبة، فيبقى المرء محتفظا بالأيدي النظيفة. حتى إذا ما أقدم كالفن لاحقا على البطش بسيرفيت مصرّا على سلب حياة الرجل ورميه في أحضان الموت بسبب معتقداته، فينبغي أن يتحمل شخصيا المسؤولية، وأن يبقى الدم على يديه، وأن يلقى كراهية أنصار الإنسانية جميعا.

* * * * * *

قتْل سيرفيت

بعد هروبه من السجن ظلّ سيرفيت مختفيا بلا أثر لبضعة أشهر. ليس بوسع أحد أن يشهد على أو أن يتخيل أيّ متاعب نفسية عانى منها الشريد، إلى ذلك اليوم في شهر آب/أغسطس حين جاء ممتطيا فرسا مستأجرا إلى جنيف، إلى أخطر مكان عليه في العالم، وترجّل منه أمام نزل الوردة «لا روز».

حتى التالي لن يوضحه أحد: لماذا ذلك الرجل «المقود من نجمة شيطانية» كما قال عنه كالفن لاحقا، بحث عن إقامة في جنيف بالذات؟ هل كان في نيته أن يمضي هنا ليلة واحدة ليواصل الهرب في اليوم التالي بقارب عبر البحيرة؟ هل كان يأمل في محادثة شفهية مع عدوه اللدود لعلها أفضل في الإقناع من الرسائل؟ أم ربما كانت هذه الرحلة إلى جنيف أحد الأفعال غير المنطقية الصادرة عن أعصاب منهكة، عن متعة اللهو مع الخطر الشيطانية العذبة المحرقة التي تنتاب أحيانا الرجال وهم ضحايا اليأس العظيم؟ نحن نجهل الأجوبة، ولن نعرفها أبدا. كل التحقيقات والمحاضر لا تميط اللثام عن ذلك اللغز: لماذا اختار سيرفيت جنيف، وجنيف بالذات، حيث لم يكن عليه أن ينتظر من كالفن إلا أسوأ الأمور؟

لكن التعس يمضي قدما بجسارته المجنونة والمتحدية. ما كاد سيرفيت يصل إلى جنيف حتى ذهب يوم الأحد إلى الكنيسة، حيث الجماعة الكالفنية مجتمعة بكاملها. وتحديدا – وهذا جنون إضافي – اختار كاتدرائية سان بيار من بين كل الكنائس، حيث كالفن يلقي العظة، الرجل الوحيد الذي يعرفه

وجها لوجه منذ أيام الدراسة في تلك السنوات الخوالي في باريس. هنا ثمة تصرف صادر عن نفسية مُنَـوَّمة، يرفض كل معنى منطقي: هل كانت الأفعى تبحث عن النظرة في عين ضحيتها؟ أو بالأحرى، الضحية هي التي تبحث عن تلك النظرة الفولاذية الجذابة المرعبة؟ في كل الأحوال، ثمة قهر معين، ظل لغزا كبيرا، ساق سيرفيت إلى ذاك المصير.

وفي مدينة يُجْبر فيها كل موظف على أن يراقب شخصا آخر، حتما يثير وجود الغريب نظرات الفضول التام. وعلى الفور حدث ما هو متوقع: تعرّف كالفن على الذئب الضاري وسط قطيعه الورع، وعلى الفور أمر زبانيته باعتقال سيرفيت لدى خروجه من الكنيسة. بعد ساعة كان سيرفيت مكبلا بالقيود.

من المفهوم أن هذا الاعتقال خرق علني للقانون وانتهاك فاضح لحق الضيافة وللقانون الدولي المعترف به في كل الدول. سيرفيت أجنبي، مواطن إسباني، يطأ أرض جنيف لأول مرة، وبالتالي لم يرتكب فيها أيّ جناية تستوجب اعتقاله. كل الكتب التي ألـّفها مطبوع في الخارج، وبناء عليه لم يكن بوسعه أن يحرّض أحدا في جنيف أو أن يفسد نَفْسا تقيـّة بآرائه الهرطوقية. إضافة إلى ذلك، لم يكن لدى أيّ شخصية روحية «مبشـّرة بكلمة الله» السلطة، في كل الأحوال، أن تأمر باعتقال شخص في عموم جنيف وأن تودعه السجن من دون قرار سابق من المحكمة. وإذا نظرنا إلى اعتداء كالفن على سيرفيت، من أي زاوية كانت، فسيبدو فِعْلا تعسفيّا دكتاتوريا ذا وقع تاريخي عالمي، لا يعادله في استهزائه بكل القوانين والمواثيق، سوى اعتداء نابليون على دوق أنغان[٤١] واغتياله. هنا أيضا، بعد سلب الحرية المخالف للقانون، لا تبدأ دعوى قانونية ضد سيرفيت، وإنما عملية قتل مدبرة، لا يمكن أن تسترها أكذوبة تزعم أنها تريد الخير.

---

(٤١) Enghien.

من دون اتهام مسبق تم اعتقال سيرفيت وألقي به في السجن. لذلك ينبغي الآن على الأقل، تركيب ذنب ملحق. وكان المنطق يقضي بأن يتقدم بالإدعاء الشخصي، الرجل الذي تقع عملية السجن على عاتق ضميره، أو كالفن الذي اعترف بأنها تمّت بناء على أوامره. لكن وفق قانون جنيف، النموذجي حقا: على كل مواطن اتهم مواطنا آخر بارتكاب جريمة، أن يذهب مثله إلى السجن، وأن يبقى هناك إلى أن يثبت أن اتهاماته مسوّغة. وبناء عليه، ينبغي أن يضع كالفن نفسه بتصرف القضاء لكي يكون اتهامه سيرفيت قانونيا. رأى كالفن أن مقامه الرفيع، بوصفه المرجعية اللاهوتية لمنطقة جنيف، لا يناسب مثل هذه الإجراءات المزعجة: ماذا يمكن أن يحدث لو أثبتت الوقائع براءة سيرفيت فاعترف بها القضاء، وكان على كالفن في الأثناء البقاء في السجن إلى حين إثبات ذلك! أيّ كارثة تصيب سمعته وأيّ انتصار يحققه خصمه! لذلك أمر، وهو الدبلوماسي المعهود، بأن يؤدي سكرتيره نيكولا دو لافونتين هذا الدور غير المريح، دور المدّعي. وبهدوء توجّه السكرتير الشاطر إلى السجن بعدما سلّم السلطات لائحة الاتهام ضد سيرفيت، وقد تضمنت ثلاثا وعشرين مادة، من المفهوم أن كالفن هو الذي حررها. ملهاة تمهيدية سبقت المأساة المرعبة. على أنه، بعد ذلك الخرق الفاضح للقانون، ينبغي أن تُعطى المسألة الآن، ظاهريا على الأقل، طابع الدعوى القضائية. للمرة الأولى تمّ التحقيق مع سيرفيت، وعبر سلسلة من البنود سيُخْبَر بالاتهامات التي وجهها إليه المُدَّعي عليه. وعلى هذه الاتهامات والأسئلة أجاب سيرفيت بهدوء وذكاء. لم يستنفذ السجن طاقته بعد، وما زالت أعصابه متينة. رفض الاتهامات بندا بندا، وعلى سبيل المثال ردّ على الادعاء أنه في كتاباته قد هاجم شخص السيد كالفن بقوله إن ذلك تحوير للحقائق، لأن كالفن هو الذي هاجمه أولاً، ثم كتب هو من جهته أن كالفن أيضا، في بعض المجالات، ليس معصوما عن الخطأ. وإذا كان كالفن

قد اتهمه، هو سيرفيت، بأنه شديد المراس في تمسكه ببعض القضايا، فبوسعه هو أيضا أن يتهم كالفن بالعناد المماثل. كان الأمر بينهما متعلقا باختلافات في الرأي في مسائل لاهوتية التي لا يمكن أن يبتّ بها القضاء المدني، وإذا كان كالفن، بالرغم من ذلك، قد زجّه في السجن ، فليس ذلك سوى فعل انتقام شخصي. لا أحد سوى قائد البروتستانتية وشى به آنذاك لدى محاكم التفتيش الكاثوليكية. وإذا كان لم يُحرق منذ زمن طويل، فليس مردّ ذلك إلى ذاك المبشّر بكلمة الله.

حتى هذه النقطة، كانت صحة الوضع القانوني لسيرفيت غير قابلة للطعن، حتى أن الآراء في مجلس المدينة كانت قد مالت كثيرا لصالحه، وعلى الأرجح كان سيُكْتفى بعقوبة طرده من البلاد. لكن لا بد أن كالفن كان قد انتبه إلى بعض دلالات مفادها أن المسألة بالنسبة إلى سيرفيت ليست سيئة، وأن ضحيته يمكن أن ينفد مجددا في نهاية المطاف. فإذا به يظهر أمام مجلس المدينة يوم ١٧ آب/أغسطس، وعلى نحو مفاجيء يضع خاتمة لمهزلة عدم مشاركته المزعومة. الآن أظهر لونه بوضوح وصراحة. ولم يعد ينكر أنه المدّعي الحقيقي على سيرفيت، وطلب من المجلس أن يسمح له بالمشاركة في جلسات التحقيق اعتبارا من حينه بناء على الذريعة المنافقة «أنه سيتمكن من أن يثبت للمتهم أخطاءه بطريقة أفضل». وفي الحقيقة، كان من المفهوم، أنه كان يريد بحضوره الطاغي أن يحول دون خطر هروب ضحيته.

اعتبارا من هذه اللحظة، حيث فرض كالفن إقحام نفسه بين المتهم والقضاة، ساءت قضية سيرفيت جديا. رجل المنطق المحترف والقانوني الخبير كالفن يعرف كيف يقود الهجوم، بأفضل مما يؤديه السكرتير الصغير دو لافونتين. وبقدر ما يُظْهِر المتهِم قوته، تضعف طمأنينة المتهَم. الإسباني السريع الانفعال، فقد أعصابه لدى رؤية متهِمه وعدوه اللدود بلا أدنى شك، جالسا بجوار القضاة،

باردا قاسيا، يطرح الأسئلة في أجواء أراد أن يوحي بأنها موضوعية مطلقة، بيد أنها مزيفة، لكنه مصمم وبصلابة تامة – وهذا أحسّ به سيرفيت في أعماقه – أن يستدرجه عبر هذه الأسئلة إلى الاعتراف وأن يكتم صوته. ثمة رغبة شرسة في القتال وغضب مرير سيطرا على الأعزل، وبدلا من أن يلبث عند موقفه القانوني المضمون، استدرج إلى الانزلاق على أرضية النقاش اللاهوتي المخادعة، عبر الأسئلة الأفخاخ التي طرحها كالفن، وعرّض نفسه للخطر من خلال مكابرته الحماسية. إذ أن زعما واحدا من نوع «الشيطان هو أيضا جزء من مكونات الذات الآلهية» كان كافيا بالتمام، لإصابة القضاة الأتقياء برعدة في ظهورهم. لكن ما إن شعر سيرفيت بنفسه مطعونا في كبريائه الفلسفي، حتى أخذ يتوسّع من دون رادع في أكثر مواد الإيمان دقة وإحراجا، كما لو كانت هيئة القضاة التي يواجهها، مشكّلة من علماء لاهوت مستنيرين وبوسعه أن يتناقش أمامهم في شأن الحقيقة باطمئنان. لكن الخطاب الغاضب وشهوة الجدل الانفعالية جعلا سيرفيت مشتبها به في نظر القضاة، فبدأوا يميلون أكثر، وتصاعديا، نحو رأي كالفن. إن هذا الغريب ذا العينين الخافقتين وقبضة اليد المطبقة الذي يتكلم ضد علماء كنيستهم، لا بد وأن يكون مشاغبا خطيرا يهدد السلم الروحي، وهو على الأغلب زنديق غير قابل للشفاء. لكن يجدر بالمرء أن يقود تحقيقا جديا بشأنه. وعليه، تقرر أن يمدد بقاؤه في السجن، وفي المقابل أن يطلق سراح المدّعي عليه نيكولا دو لافونتين. نفّذ كالفن رغبته وكتب إلى صديق بغبطة يقول «أرجو أن يحكم عليه بالموت».

لماذا تمنّى كالفن بهذا الإلحاح أن يحكم على سيرفيت بالموت؟ لماذا لم يكتفِ بانتصار متواضع، كأن يصدر الأمر بطرد خصمه من البلاد، أو بإذلاله بالإهانة؟ للوهلة الأولى يولد انطباع بأن المسألة منبثقة من حقد خاص وشخصي. لكن كالفن في الحقيقة لا يكره سيرفيت في الإجمال أكثر من كرهه لكاستيليو

أو أيّ آخر تمرّد على سلطته: الحقد غير المشروط لديه، بالنظر إلى طبيعته الطغيانية، هو شعور غريزي مطلق، وهو موجّه ضد الذي يجرؤ على تعليم غير ما يعلّمه هو. لكن حين يحاول ضد سيرفيت بالذات، وفي اللحظة الراهنة بالذات، أن ينقضّ عليه بأقسى القسوة، وهو عليها قادر، لا تبقى المسألة شخصية، إنما ذات أسباب متعلقة بالسلطة السياسية. ينبغي على ميغيل سيرفيت المتمرد على سلطته، أن يدفع الثمن عن خصم آخر لعقيدة كالفن المتشددة، الراهب الدومينيكاني السابق هيرونيموس بولسيك[٤٢] الذي كان كالفن يريد أن يدينه هو الآخر بتهمة الزندقة، والذي هرب منه أيضا بطريقة مزعجة له للغاية. كان هيرونيموس بولسيك هذا، وهو الطبيب الخاص لأعرق العائلات في جنيف ويحظى بالتقدير العام، قد عارض علنا مذهب كالفن في أشد نقاطه ضعفا وقابلية للطعن، أي عقيدته الثابتة بشأن الجبرية، وبالحجج المماثلة التي ساقها إيرازموس ضد لوثر في المسألة المماثلة معتبرا النظرية عبثية القائلة بأن اللّه باعتباره مبدأ الخير كله، يمكنه عن دراية وعَمَد، أن يقدّر للإنسان وأن يقوده إلى أسوأ الأمور المنكرة. نحن نعلم كيف استقبل لوثر اعتراض إيرازموس بأدنى قدر من المودة، وبأي فيض من الشتائم رشق أستاذُ القدح المفكرَ العجوز الحكيم. لكن برغم الغضب المستعر والفظاظة والعنف، ظلّ جواب لوثر على إيرازموس في إطار المناقشة الفكرية، ولم يخطر في باله بأيّ حال أن يتهمه أمام محكمة مدنية بالزندقة، لمجرد أنه عارضه في نظريته حول الجبرية. لكن كالفن المنتفخ بجنون العصمة يعتبر كل متحدث معارض زنديقا ضمنا. أيّ اعتراض على تعاليمه الكنسية يراه معادلا في معناه لجريمة ضد الدولة. لذلك، بدلا من أن يردّ على هيرونيموس بولسيك كلاهوتي، جعلهم يلقون به في السجن.

---

(٤٢) Hieronymus Bolsec.

لكن على غير المتوقع، باءت فكرة جعل هيرونيموس بولسيك عبرة لمن يعتبر بالفشل الموجع. كثيرون هم الذين في جنيف يعرفون أن ذلك الطبيب العالم رجل يخاف الله، وتماما كما في حالة كاستيليو ساد الظن، أن كالفن يريد أن يُنْهي رجلا مستقل التفكير وليس تابعا له بالكامل، ليبقى الوحيد الأوحد في جنيف. في السجن كتب بولسيك قصائد شكوى صاغ فيها براءته، سرعان ما انتشرت نسخها في المدينة، من يد تلقفتها يد. وبرغم إلحاح كالفن القوي تخوف القضاة من النطق بالحكم بالزندقة كما هو مطلوب. ولكي يتجنبوا القرار المؤلم، أعلنوا أنهم غير جديرين في البتّ بالمسائل الروحية، ولذلك تمنعوا عن اتخاذ القرار كون القضايا اللاهوتية تتجاوز صلاحيات الحكم لديهم. ورأوا أنهم في هذه المسألة الصعبة، يجب أن يحصلوا أولاً على فتوى قانونية من الكنائس في المدن السويسرية الأخرى. وبهذه الاستشارات أنقذ بولسيك، لأن الكنائس الإصلاحية في زيوريخ وبرن وبازل كانت في أعماقها مستعدة لأن توجّه ضربة صغيرة إلى غرور العصمة لدى الزميل المتعصب، فصرّحت بالإجماع أنها لم تلحظ في آراء بولسيك التعبير عن نوايا زنديقة. وبناء عليه أطلق مجلس المدينة سراحه، وكان على كالفن أن يدعه لشأنه، وأن يكتفي برغبة القضاة أن يغادر بولسيك المدينة.

وحدها دعوى قضائية جديدة بتهمة الزندقة، من شأنها أن تقود تلك الهزيمة العلنية إلى مجاهل النسيان. سيرفيت يجب أن يدفع الثمن عن بولسيك. والفرص المؤاتية لكالفن أفضل بلا حدود في هذه المحاولة الجديدة. ذلك أن سيرفيت غريب أجنبي، إسباني، ليس لديه في جنيف - كما لدى كاستيليو أو بولسيك - أصدقاء ومعجبون ومعينون. أضف إلى أن سيرفيت مكروه منذ سنوات في كل الأوساط الروحية الإصلاحية بسبب هجومه الوقح على الثالوث الأقدس، وأسلوبه المستفز. ولسوف يكون صنع «العبرة لمن يعتبر» أسهل للغاية

بوساطة هذا الأعزل الذي لا سند له. ولذلك كانت هذه القضية من ساعتها الأولى سياسية في مجملها ومسألة سلطة بالنسبة إلى كالفن، واختبار قوة الاحتمال، بل واختبار قوة الاحتمال الحاسم بشأن فرض إرادته كدكتاتور روحي. لو لم يرغب كالفن بشيء إلا بالتخلص من خصمه الشخصي والروحي، لكانت الظروف سهلت له الأمر. إذ ما إن بدأت التحقيقات في جنيف، حتى ظهر موفد من العدالة الفرنسية يطالب بتسليم الطريد المحكوم عليه في فرنسا إلى فيينا حيث تنتظره المحرقة. يا للفرصة الفريدة لكالفن أن يلعب دور صاحب الصدر الرحب وأن يتخلص في الوقت نفسه من المتمرد الكريه! كان مجلس المدينة بحاجة إلى الموافقة على التسليم، لكي ترتاح جنيف تماما من قضية سيرفيت المزعجة. لكن كالفن عرقل التسليم. بالنسبة إليه، ليس سيرفيت إنسانا من لحم ودم، وليس موضوعا، بل قبل كل شيء أداة أراد أن يظهر بها للعالم وبوضوح، حرمة مذهبه. أعيد الموفد إلى السلطات الفرنسية خاوي الوفاض. في مجال سلطانه الخاص أراد دكتاتور البروتستانتية أن يمضي قدما بهذه الدعوى وأن يختمها، لكي يرفع فكرة «كلّ من حاول أن يناقضه، يغامر بحياته» إلى مستوى مادة في قانون الدولة.

في جنيف ما لبث الأصدقاء كما الأعداء، سواء بسواء، أن أدركوا أن حالة سيرفيت هي اختبار قوة سياسي. وبالتالي، فمن الطبيعي للغاية أن يبذل الأعداء كل ما بوسعهم لإفساد المثال الجميل الذي أراده كالفن. ومن المفهوم أن أولئك السياسيين ما لديهم أدنى اهتمام بسيرفيت الإنسان، فالرجل التعيس ليس بالنسبة إليهم سوى كرة للعب، رافعة صغيرة لتقلب سلطة الدكتاتور رأسا على عقب، أداة اختبار، وفي أعماقهم الأمر سيان، حتى لو تحطمت هذه الأداة في أيديهم خلال هذه المحاولة. وفي الواقع، لم يقدم الأصدقاء الخطيرون سوى أسوأ الخدمات إلى سيرفيت، كونهم زادوا من اهتزاز الثقة بالنفس لدى

الرجل الهستيري عبر شائعات خاطئة، ورسائل سرية بعثوا بها إليه في سجنه، وفيها أن عليه أن يقاوم كالفن بشكل حاسم. وكان في مصلحتهم الخاصة أن تبلغ الدعوى أقصى درجات الإثارة الممكنة وأن تغدو محط الاهتمام العام: كلما اعتد سيرفيت بنفسه بحيوية فائضة، كلما هاجم خصمه المقيت بضراوة، كان ذلك أفضل.

وللأسف، لم يكم من الضروري بذل الكثير لكي يغدو الأحمق أشد حماقة. فترة السجن الطويلة المرعبة فعلت فعلها المعهود، لكي تقود المنهوك إلى حالة من غضب لا رادع له، ذلك أن سيرفيت لقي معاملة قاسية، نُفّذت بوعي ودهاء (ولا بد أن كالفن كان على علم). منذ أسابيع احتُجز الرجل المريض، الفاقد الأعصاب حدّ الهستيريا، الذي يشعر بنفسه بريئا، مقيّد اليدين والقدمين مثل مجرم قاتل، مسجونا في زنزانة رطبة وباردة حدّ الصقيع. الثياب المهترئة تكسو الجسد المرتعش من البرد، ومع ذلك لم يسمح له بقميص جديد، وتمّ إهمال الشروط الصحيّة البدائية، ولا يجوز لأحد أن يقدم له المساعدة حتى في أدنى أنواعها. وفي معاناته البعيدة الغور توجّه سيرفيت إلى مجلس المدينة برسالة مؤثرة مطالبا بمزيد من الإنسانية: «تلتهمني البراغيث حيّا، اهترأ حذائي، لم يعد لديّ ثياب ولا ملابس داخلية».

لكن ثمة يدا – يعتقد المرء أنه يعرفها، تلك اليد القاسية، التي مثل حجر الرحى تعتصر كلّ معارضة بلا إنسانية – حالت دون أيّ تحسين لظروفه، بالرغم من أن مجلس المدينة كان قد بادر على الفور وأمر بإلغاء سوء الحال، استجابة لشكوى سيرفيت. كمثل كلب أجرب على أكداس السماد تُرك المفكر الشجاع والعالم ذو الذهن الحر، يذوي على مهل في حفرته الرطبة. بل إن صرخة الاستغاثة في رسالته الثانية بعد بضعة أسابيع، صكت الآذان بشكل مرعب، إذ ورد فيها حرفيا أنه يختنق بغائطه «استحلفكم باسم محبة المسيح، ألا تمنعوا

عني ما تكفلونه لأيّ تركي أو مجرم. من كل الأوامر التي أصدرتموها لم ينفذ شيء يبقيني نظيفا. إنني في حالة يرثى لها، لا مثيل لها. إنها وحشية عظيمة، إذ لا أعطى الإمكانية لكى أستوفي حاجاتي الجسدية الضرورية».

لكن شيئا لم يحدث! وبالتالي، هل من العجيب أن الرجل ينفجر غضبا جمّا في كلّ مرّة يستخرج فيها من حفرته الرطبة، وفيما هو مقيد القدمين بالسلاسل ذليلا بالخرق البالية ذات الرائحة الكريهة، يرى جالسا أمامه عند طاولة القضاة، بكامل قيافته بالروب الرسمي الأسود، الرجل البارد الأعصاب والهادىء، المستعد بشكل جيد والرائق ذهنيا، الذي يريد أن يبدأ معه جدلا بين فكر وفكر من عالِـم إلى عالم، والذي يؤذيه بالتعامل معه، أو بسوء التعامل معه، كمجرم؟ أوليس أمرا لا بد منه، أنه بعد الأسئلة والتلميحات الخفية الأشد خبثا ولؤما، والتي تبلغ أعماق حياته الخاصة السرية، أن يتوجع ويستثار، وأن يفقد الصواب والحذر، وأن يهجم من ناحيته على المرائي بأقذع الشتائم؟ كما ولا عجب أن سيرفيت المحموم من انعدام النوم في الليالي قد سدّ حلق الرجل المتسبب في كل هذه الهمجيات بالكلمات التالية: «هل تنكر أنك مجرم؟ سوف أثبت ذلك من تصرفاتك. فيما يتعلق بي أنا واثق في عدالة قضيتي ولست أهاب الموت. أما أنت فتصرخ كالأعمى في الصحراء لأن روح الانتقام تحرق قلبك. أنت كذبت، أنت كذبت، أيها الجاهل أيها النمام! يغلي الغضب في داخلك حين تطارد أحدا حتى الموت. كم أردت، لو أن كل شعوذتك ما زالت معك في بطن أمك، ولو أنني أعطيت الفرصة، أن أفضح أخطاءك كلها». تماما نسي سيرفيت التعس، والغضب بلغ الثمالة القصوى، أنه بلا حول ولا قوة، وأنه ما زال أسير قيده المصلصل، فراح الرجل المستعر والزبد يرغي على فمه، يطالب هيئة القضاة المكلفين بمحاكمته، أنهم بدلا من أن يصدروا حكما بحقه، أن يصدروه ضد خارق القوانين كالفن، دكتاتور جنيف.

«لذلك ينبغي على هذا المشعوذ، لا أن يعتبر مذنبا وأن يدان فحسب، بل وأن يطرد من هذه المدينة، وأن تؤول إليّ أملاكه تعويضا عن ملكي الذي فقدته بسببه».

من المفهوم أن هولا وحشيا تملك من القضاة الأفاضل لدى سماعهم مثل هذه الكلمات ورؤيتهم مثل هذا المنظر: هذا الرجل النحيل الشاحب المنهك القوى، ذو اللحية المشعثة المتداخلة، بعينين كالجمرتين وبلغة خارجة عن المألوف، تلفـّظ بعنف وأطلق الاتهامات المنكرة ضد قائدهم في المسيحية، لا بد وأنهم من الوهلة الأولى رأوا فيه رجلا مسكونا من الشيطان الذي يقوده. ومن جلسة تحقيق إلى أخرى، تزايدت الآراء السلبية بصدد سيرفيت. وفي الحقيقة أن الدعوى كانت بلغت ختامها تقريبا وكانت إدانة سيرفيت واقعة لا محال. لكن مجمل مصالح الأعداء السرّيين لكالفن، أرادت تمديد أجل الدعوى وتسويفها، لأنهم لا يريدون أن يجودوا على كالفن بالانتصار كونه جعل معارضه ينهار بحكم القانون. وعلى هذا الأساس، حاولوا مجددا إنقاذ سيرفيت، وذلك على غرار ما حدث مع بولسيك بأن يطلبوا من المجامع الإصلاحية السويسرية تقييمها لآراء سيرفيت، وهم ممتلئين بالأمل السري، أنهم هذه المرة أيضا وفي الساعة الأخيرة، سينتزعون من براثن كالفن ضحية دوغماتيته.

لكن كالفن يعرف جيدا، وللغاية، أن سلطته الآن على المحك. وهو لن يقبل إطلاقا التلاعب بها مرة ثانية. هذه المرة اتخذ إجراءاته في الوقت المناسب وبهمة. بينما ضحيته البائس يهتريء في زنزانته من دون دفاع، كتب الرسائل تلو الرسائل وبعث بها إلى رؤساء الكنائس في زيوريخ، بازل، برن وشافهاوزن، لكي يؤثر مسبقا في تقييمهم. أرسل موفدين في الاتجاهات الأربعة واستنهض همم الأصدقاء، لكي ينبهوا أخوته في رئاسة الكنيسة، أنه لا يجوز أن يحولوا دون أن ينال الزنديق المستحق العقاب، الحكم الصحيح! وكانت الضغوط

الأحادية الجانب في هذا الصدد مثمرة، لأن سيرفت نال شهرة كمثير للإزعاج في الشؤون اللاهوتية، ومنذ عهد تسفينغلي وبوسر لم يحظَ أحد في دوائر الكنيسة كافة بمثل ما ناله «الإسباني الوقح». وفي الواقع، أعلنت المجامع السويسرية بالإجماع أن آراء سيرفيت ضلال وتجديف. ولئن لم تعلن أيّ من الكنائس الأربع مطالبتها بإنزال عقوبة الإعدام، ولا حتى أعربت عن استحسانها لذلك، إلا أنها وافقت من حيث المبدأ على استخدام الصرامة التامة. كتبت زيوريخ: «نترك الأمر لحكمتكم بصدد العقوبة التي تفرضونها على هذا الرجل». برن توسلت إلى الله «أن يهب أهل جنيف الحكمة والقوة ليتمكنوا من خدمة كنيستهم والكنائس الأخرى، وليتخلصوا من هذا الطاعون». لكن الإحالة إلى هذا التخلص بالقوة، سوف يضعفها في الوقت نفسه التحذير التالي: «على النحو الذي يجعلكم تتمنعون في آن معا عن فعل ما يمكن أن يبدو غير لائق بحق قاض مسيحي». لم يشجع أحد كالفن صراحة على عقوبة الإعدام. لكن حيث أن الكنائس وافقت على إجراءات الدعوى ضد سيرفيت، شعر كالفن أنها ستوافق على الدعاوى التالية، ذلك أنها بكلماتها القابلة للتأويل، أطلقت له الحرية كاملة في اتخاذ القرارات. ودائما حين نعم بالحرية، ضرب بقسوة وحسم. أما الذين يعملون على مساعدة سيرفيت سرا، فما إن علموا بفحوى تقارير الكنائس، حتى حاولوا في اللحظات الأخيرة تأخير صدور الحكم المهدد، لكن من دون طائل. اقترح بيران[٤٣] وجمهوريون آخرون أن ترفع الدعوى إلى أعلى هيئة في الطائفة، أي مجلس المئتين. لكن أصبح الوقت متأخرا، وخصوم كالفن شعروا بخطورة المقاومة: في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر حكم على سيرفيت بالإجماع، أن يحرق حيّا، على أن يدخل هذا الحكم المرعب حيّز التنفيذ في اليوم التالي في ساحة شامبيل.

---

(٤٣) Perrin.

أسابيع تلو الأسابيع، عاش سيرفيت خلالها في سجنه معزولا عن العالم الحقيقي، فاسترسل في الآمال المفرطة في المبالغة. هو بطبعه مستثار بالفانتازيا، أضف إلى ذلك أن الوشوشات السرية التي أسرى بها إليه أصدقاؤه المزعومون زادت من جنونه، فانتشى دائما بحرارة من وهم مفاده أنه منذ زمن طويل أقنع القضاة بالحقيقة التي تتضمنها نظرياته، وأن المغتصب كالفن سوف يطرد من المدينة في غضون أيام بالعار والشنار. ولذا، كانت الاستفاقة مرعبة. بوجوه غامضة الملامح دخل موظفو السكرتارية في مجلس المدينة إلى زنزانته وبطريقة متكلفة حلّ أحدهم رقّا ليقرأ ما كُتب فيه. وقع الحكم على سيرفيت وقع الصاعقة. جامدا كما لو أنه لا يقوى على فهم تلك الأشياء الشنيعة، سمعهم يتلون الحكم، أنه سوف يحرق في اليوم التالي بوصفه مجدفا على الله. مرت دقائق وهو كالأصمّ والغائب عن الوعي. ثم انهارت أعصاب الرجل المعذب. وبدأ يتأوه ويندب وينتحب. مدوية انطلقت من حنجرته صرخة خوف مجنونه بلغته الأم، الإسبانية «الرحمة»[٤٤]. هذا النبأ المروع أصابه في الأعماق وفتت إباءه المشدود والمتوتر. إنسان محطم مقضي عليه، جمدت نظرات التعيس وهو يحدق أمامه في ذهول. وها هم القساوسة الدعاة المكابرون يعتقدون أن الساعة جاءت ليحققوا نصرا روحيا على سيرفيت بعد الانتصار الدنيوي، فينتزعوا منه في يأسه اعترافا بملء الإرادة بضلاله.

لكن، يا للروعة: بمجرد أن يلمس المرء تلك النقطة الحميمية في معتقد ذلك الإنسان المنهار وشبه المحتضر، أو أن يطلب منه أن ينكر طروحاته، حتى يتعالى تأجج عناده القديم بقوة واعتزاز. يمكن أن تتهمه، أن تعذبه، أن تحرقه، يمكن أن يقطعوا جسده إربا إربا، فهو لن يتزحزح قيد أنملة مبتعدا عن مفهومه

(٤٤) Misericordias.

الفكري، خصوصا وأن الأيام الأخيرة رفعت فارس العلم الجوال إلى مصاف أبطال الإيمان وشهدائه. بخشونه رفض إلحاح فاريل - الذي خفّ مهرولا من لوزان ليشارك كالفن الاحتفال بالنصر - وأوضح له: لا يمكن بحال من الأحوال أن يصلح حكم دنيوي كدليل على الإنسان إن كان في المسائل الدينية على صواب أم خطأ. القتل لا يعني أبدا الإقناع. إنهم لم يثبتوا له شيئا، إنهم يحاولون خنقه فقط. لا عبر التهديد ولا من خلال الوعود نجح فاريل في أن ينتزع كلمة إنكار واحدة من الرجل - الضحية المقيد بالسلاسل والقريب من عتبة الموت. لكن لكي يبرهن بوضوح أنه برغم تمسكه بقناعاته ليس كافرا، وإنما مسيحي مؤمن من واجبه التصالح مع أشد أعدائه إجراما، فقد أعلن سيرفيت أنه مستعد قبل موته بالترحيب بزيارة يقوم بها كالفن إليه في سجنه.

حول هذه الزيارة التي قام بها كالفن إلى ضحيته لا نملك سوى تقرير من طرف واحد: تقرير كالفن. لكن حتى وفق صياغته الذاتية، تبدو قساوة روح كالفن وصلابته الداخلية الرهيبة المنفرة، صريحة واضحة. هبط الجلاد إلى سجن ضحيته الرطب لا ليؤاسي بكلمة طيبة الرجل الذي كتب عليه الموت، ولا ليقدم تشجيعا أخويا أو مسيحيا إلى إنسان ينبغي أن يموت غدا بأشد ألوان التعذيب ضراوة. بهدوء وجدية افتتح كالفن الحديث متسائلا عن سبب دعوة سيرفيت إليه، وماذا لديه ليقول له. وكان يتوقع صراحة، أن يبادر سيرفيت بالركوع على ركبتيه وأن يبدأ في النواح لكي يقوم الدكتاتور صاحب السلطان الكامل بالغاء الحكم أوعلى الأقل بتخفيفه. لكن المحكوم عليه أجاب ببساطة تامة - وهذا بحد ذاته من شأنه أن يهزّ وجدان كل إنسان - أنه أرسل في طلب كالفن لغرض وحيد: أن يرجوه الغفران. الضحية يرجو من جلاده مصالحة مسيحية. ومع ذلك رفضت عيون كالفن المتحجرة أن تعترف للخصم السياسي والديني بأنه مسيحي، أو بأنه إنسان. ببرود الصقيع يقرأ المرء في تقريره: «على

ذلك اعترضت ببساطة. إنني لم أمارس أبدا، وهذا ما تعبر عنه الحقيقة أيضا، أي حقد شخصي ضده». إما أن كالفن لم يفهم، أو لم يشأ أن يفهم، الدلالة المسيحية في آخر تصرفات سيرفيت، فهو في الحالين رفض كل أنواع المصالحة الإنسانية بينهما. على سيرفيت أن يدع كل ما يخصّ شخصه جانبا، وأن يعترف فقط بخطيئته تجاه الله، وقد أنكر ثالوثه المقدس. بوعي أو من دون وعي، تمنّع الإيديولوجي الكامن في كالفن أن ينتبه إلى الأخوة عند ذلك الإنسان الـمُضَحَّى به، الذي سيلقى إلى النار غدا كمثل قطعة حطب. وكدوغماتي لا يرى في سيرفيت سوى ذلك المنكر لمفهومه هو عن الذات الإلهية، وبالتالي المنكر لله ذاته. بقيت الإشارة إلى شيء مهم لدى ذلك المسكون بالمكابرة: أن ينتزع من الرجل المشرف على الموت، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، الاعتراف بأنه، سيرفيت، كان على خطأ، وأنه هو، كالفن، على صواب. لكن سيرفيت استشرف أن ذلك المتعصب العديم الإنسانية يريد أن يقتلع منه الشيء الوحيد الذي ما زال نابضا في جسده الهالك، الشيء الوحيد الذي يبقى حيّا في وجدانه: قناعته أو معتقده. آنئذ تمرّد المتألم وبحسم رفض كل تنازل جبان. وبالتالي، بدت كل كلمة إضافية صادرة عن كالفن حشوا هباء. رجل لا يخضع له تماما في المسائل الدينية، لا يبقى في نظره أخا في المسيحية، وإنما خادم للشيطان، وخاطيء، وكل كلمة ودية تجاهه هدر. ماذا يجدي إبداء قدر حبة الخردل من الطيبة تجاه مارق؟ استدار كالفن بفظاظة وغادر ضحيته من دون أن ينبس ببنت شفة، وبلا نظرة ودية. خلفه صلصل المزلاج الحديدي. وبهذه الكلمات المرعبة عديمة المشاعر ختم ذلك المدعي المتعصب تقريره الذي سيدينه هو إلى الأبد: «حيث أني لم أنجح في مسعاي، لا بالنصح ولا بالتحذير، لم أرغب أن أكون حكيما بأكثر مما يسمح به سيدي. إنني أقتفي أثر قاعدة القديس بولس، فابتعد عن هذا الإنسان الزنديق الذي أدان نفسه بنفسه».

الموت على عمود المحرقة عبر الشواء على نار هادئة هو الأشد وحشية بين أنواع التعذيب كافة. حتى العصور الوسطى ذات السمعة السيئة بسبب وحشيتها، طبقت المحرقة في حالات نادرة في كامل سنواتها المديدة الفظيعة. وغالبا ما كان يتم اللجوء إلى خنق المحكومين أو تخديرهم وهم على عمود المحرقة قبل إشعال النار. بيد أن طريقة الموت هذه، البشعة المقيتة، هي التي صممت لأول ضحية زندقة في تاريخ البروتستانتية. ومن المفهوم أن كالفن، بعد الاستنكار الذي عمّ البشرية بأسرها، بذل كل ما في وسعه، متأخرا، متأخرا جدا، ليتملّص من مسؤوليته تجاه تلك الهمجية الخاصة المتمثلة بقتل سيرفيت. وقد روى كالفن أنه جهد ومعه سائر المجمع الديني، (وكانت جثة سيرفيت تحللت من مدة في الرماد) لكي يخففوا حكم الإعدام حرقا البالغ التعذيب المنفَّذ على إنسان حيّ، إلى حكم ألطف: قطع الرأس بالسيف، «لكن جهودهم ذهبت سدى». ولا يجد المرء في محاضر اجتماعات مجلس المدينة كلمة واحدة عن هذه الجهود المزعومة. ومن هو الساذج الذي يمكنه أن يصدق، أن كالفن بالذات، الذي وحده فرض هذه الدعوى فرضا، بل وهو الذي أكره مجلس المدينة السهل الانقياد على إصدار حكم الإعدام على سيرفيت، أن كالفن هذا ذاته، قد أصبح بين ليلة وضحاها شخصا عاديا بلا تأثير وبلا سلطة في جنيف، بحيث لم يتمكن من فرض إعدام بطريقة أكثر إنسانية؟ إذا أخذنا الكلام بمعناه الحرفي، فصحيح أن فكرة تخفيف أسلوب تنفيذ الإعدام راودت كالفن، على أن تطبّق في حالة واحدة لاغير (وهنا يكمن الالتواء الجدلي في زعمه) أن يطلب سيرفيت الاسترحام بإنكار آرائه في اللحظات الأخيرة. إذن كان كالفن لطيفا تجاه خصم – للمرة الأولى في حياته – لا من منطلق إنساني وإنما استنادا إلى حسابات سياسية صرف. يا للإنتصار الذي تحققه عقيدة جنيف، إذا أمكن المرء أن ينتزع من سيرفيت الاعتراف،

وهو قاب قوسين أو أدنى من عمود المحرقة، بأنه كان على ضلال وبأن كالفن على صواب! يا للإنتصار، إذا مُـنِـع المرتعب من الموت كشهيد في سبيل معتقده، بل وأجْبِـر في اللحظات الأخيرة وأمام الشعب بأسره بأن يعلن أن عقيدته هو خطأ، وأن عقيدة كالفن هي الوحيدة الصحيحة، هنا وفي العالم بأسره.

لكن سيرفيت يعلم تماما الثمن المطلوب تسديده. هنا الإباء مقابل الإباء، والتعصب ضد التعصب. من الأفضل الموت بعد عذاب لا اسم له في سبيل قناعاته الشخصية، على الموت الخفيف من أجل عقيدة الأستاذ جان كالفن. أفضل للمرء أن يعاني العذاب الفظيع نصف ساعة، لكن من بعد يربح صيت الشهيد، وفي الوقت نفسه يثقل كاهل عدوه بوصمة العار إلى الأبد بصفته عديم الإنسانية! رفض سيرفيت المقايضة بمضاء وتسلّح بفكرة أن يدفع ثمن إبائه المرير بكل ألوان التعذيب المتخيلة.

الباقي رعب. يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر في الحادية عشرة صباحا، استخرج السجين من سجنه وهو بأسماله البالية، متسخ الهيئة، منكوش اللحية. وللمرة الأولى منذ زمن طويل، رأت عيناه نصف المفتوحتين نور النهار، وستكون المرة الأخيرة وإلى الأبد. مشى المتهم المضنى وسط صلصلة القيود. وفي نور الخريف الساطع عكس انهيار ملامح وجهه الرمادي أثرا مخيفا. أمام درجات دار البلدية ألقى زبانية المجلس سيرفيت على ركبتيه بفظاظة وعنف، هو الذي نسي المشي منذ أسابيع وصار يترنح يمنة ويسرة بمشقة. برأس منحن كان عليه أن يستمع إلى الحكم الذي نطق به أحد أعضاء المجلس البلدي أمام الشعب المحتشد، والذي انتهى بالكلمات التالية: «نحكم عليك، ميغيل سيرفيت، أن تساق مكبلا إلى ساحة شامبيل، وأن تحرق حيّا، ومعك تحرق مخطوطة كتابك، وكتابك المطبوع، إلى أن يتحول جسدك إلى رماد. هكذا تنتهي أيام

عمرك، لتكون عبرة لمن يعتبر، درسا قيّما لكلّ من تسوّل له نفسه ارتكاب جريمة مماثلة».

انتابت المدان الرعشة والقشعريرة وهو يستمع إلى الحكم. في رهبة الموت جرّ نفسه على ركبتيه فدنا من السادة القضاة، وبتوسل حار رجاهم أن يمنحوه أدنى رحمة، فيتحول قرار إعدامه حرقا إلى قطع الرأس بالسيف حتى لا يقوده الألم المتضاعف إلى اليأس. لو أنه ارتكب الخطايا، فلم يكن ذلك بوعي منه. دائما اتبع فكرة واحدة: أن يكون سلوكه من أجل مجد الله. في هذه اللحظة ظهر فاريل بين القضاة والرجل الراكع. بصوت عال سأل الرجلَ المشرف على الموت ما إذا كان مستعدا لأن يجحد عقيدته التي تنكر الثالوث الأقدس وبهذا يحظى بميزة الإعدام اللطيف. لكن معنويات سيرفيت ارتفعت في اللحظات الأخيرة بالذات، فاشرأبت بُنْيته، هو المتوسط القامة، ورفض هذا العرض مجددا وقرر بحسم أن ينفّذ كلمته السابقة: إنه مستعد في سبيل قناعته أن يعاني من كل شيء.

هكذا لم يبق سوى السبيل المأسوي. انطلق الموكب الجنائزي. في المقدمة الرئيس – القيّم ومساعده، كلاهما مرتديا أوسمة الرتب، يحيط بهما رماة الأسهم. في الخلف تدافع حشد الفضوليين الأبديين. خلال الطريق كله عبر المدينة، وأمام عدد لا حصر له من الجمهور الصامت الخاشع، لازم فاريل المحكومَ عليه. وبشكل متواصل راح يكلم سيرفيت وهو يسير بجواره خطوة بخطوة ويطلب منه أن يتراجع عن ضلاله في اللحظات الأخيرة وأن ينكر آراءه الخاطئة. كانت إجابة سيرفيت ورعة، قال إنه سيتجرع عذاب الموت من دون وجه حق، لكنه مع ذلك يتضرع إلى الله لأن يكون رحيما بالذي اتهمه، فانتفض فاريل وصرخ في وجهه بغضب عارم: «ماذا؟.. أبعد ما ارتكبت الأقسى من الخطايا، تريد أن تبرر نفسك أيضا! إذا لبثت متشبثا هكذا،

تركتك لحكم الله، ولن أرافقك خطوة بعد، في حين كان من القدر ألا أتركك إلا بعد أن تسلّـم آخر أنفاسك».

لكن سيرفيت كفّ عن الجواب. تقزز من الجلاد ومن المجادل الشرس. لن يوجّه إليهما كلمة بعد. وبلا انقطاع راح الهرطوقي الكافر المزعوم يتمتم كما ليخدّر نفسه «يا إلهي، خلـّص روحي. يا يسوع، يابن الله الأبدي، ارحمني». ثم طلب من الحضور أن يصلوا معه، ومن أجله. حتى في موقع الإعدام، في مواجهة عمود المحرقة، ركع مجددا لكي يستغرق في الصلاة بورع. لكن خوفا من أن يترك هذا التصرف التقي الصادر عن زنديق مزعوم أثرا في الشعب، صرخ المتعصب فاريل مشيرا إلى الراكع المهيب «ها إنكم تشاهدون أيّ سلطان للشيطان حين يستحوذ على إنسان. هذا الرجل عالم كبير، وربما اعتقد أنه أحسن الصنع. لكنه الآن أسير سطوة الشيطان. هذا ممكن أن يحدث لأي واحد منكم أيضا».

في الأثناء بدأت عملية الاستعداد المقيتة. ها هو الخشب تكدس في المحرقة. ها هي مسموعة صلصلة السلاسل التي سيقيد بها سيرفيت إلى عمود المحرقة، ها هو الجلاد قد أوثق يديّ المحكوم عليه. وإذا بفاريل يدنو لآخر مرة من سيرفيت الذي تنهد بصوت خفيض: «يا رب، يا إلهي»، فوجّه إليه هذه الكلمات القاسية: «أما عندك شيء آخر تقوله؟» مرة أخرى بعد، أمل المكابر في أن يعترف سيرفيت وهو على عمود التعذيب بالحقيقة الوحيدة، حقيقة كالفن. لكن سيرفيت أجابه «ماذا بوسعي أن أفعل سوى أن أتكلم عن الله».

ابتعد فاريل عن ضحيته خائب الرجاء. الآن أصبح على الجلاد الآخر، جلاد الجسد، أن يؤدي مهمته الكئيبة. سوف يعلـّق سيرفيت على العمود بسلسلة حديدية، وسوف يلفّ الجسد المضنى بالحبل أربع أو خمس لفـّات، وبين الجسد الحيّ وحبل المشنقة الكريه دسّ أزلام التعذيب كتاب سيرفيت

وبعض مخطوطاته التي كان أرسلها آنذاك إلى كالفن بصفة «شخصي وخاص» لكي يحصل منه على رأيه الأخوي. أخيرا، وعلى سبيل الاستهزاء، وضعوا على رأس سيرفيت إكليلا من ورق شجر مغمسا بالكبريت. وبمثل هذه الاستعدادات المقززة للغاية انتهى عمل الجلاد. لم يبق أمامه سوى أن يشعل النار في كدس الخشب، حتى يبدأ القتل.

عندما ارتفعت ألسنة اللهب أطلق الرجل المعذب صرخة فظيعة، جعلت الحاضرين يغضّون الطرف لبضع لحظات وقد اقشعرت أبدانهم. ولن يلبث تضافر الدخان والنار أن يلفّ الجسد المشرئب من الألم العظيم. وبلا انقطاع وبصوت تتضاعف حدّته، سمع الناس الصرخات التي أطلقها المُعاني من عذاب لا يوصف من اللحم الحيّ المتآكل ببطء بفعل النار. وفي الختام ثقبت الآذان الاستغاثة الأخيرة بالدعاء الحار «يسوع، يابن الله الأبدي، إرحم نفسي». هذا الاحتضار الفظيع الذي لا يمكن وصفه، دام نصف ساعة. ثم انطفأت ألسنة اللهب مشبعة، وتبعثر الدخان. وعلى العمود المكتسي بالسواد تعلقت بالسلاسل التي أصبحت الآن جمرا متوهجا، كتلة سوداء ينبعث منها الدخان، متفحمة، هيئة هلامية مروعة، فقدت كل شبه بينها وبين الإنسان. ما كان بالأمس مخلوقا دنيويا مفكرا مستغرقا بشغف في البحث عن الأبدي، وما كان جزيئا متنفسا من الروح السماوية، أصبح الآن برازا مقززا، كتلة بشعة كريهة الرائحة، حتى أن هذا المنظر ربما جعل كالفن يتفكر ولو لمدة لحظة في مكابرته اللاإنسانية التي قادته إلى أن يتطاول فيجعل نفسه قاضيا وقاتلا لأخ له في البشرية.

لكن أين كان كالفن في تلك اللحظات الرهيبة؟ بدا وكأن لا علاقة له بالأمر، أو أنه آثر أن يصون أعصابه فلزم بيته حذرا، جالسا وراء النوافذ المغلقة في غرفة مكتبه، ملقيا على عاتق الجلاد، وأخيه في العقيدة المتوحش فاريل،

تنفيذ المهمة البشعة. أما حين استدعى الأمر أن يلاحق البريء، أن يتهمه، ويؤلب ضده ويقوده إلى المحرقة، تقدم كالفن إلى الصدارة بلا كلل. لكن وقت الإعدام، لم ير المرء سوى أزلام التعذيب المأجورين، لكن لم يرَ أحد المحرض الحقيقي الذي أراد هذا «القتل الورع» والذي أمر به. انتظر حتى يوم الأحد التالي، حيث اعتلى المنبر مزهوا بزيّه الرسمي، لكي يمتدح أمام أبناء الطائفة الصامتين حدثا وصفه بالعظيم والضروري والمحق، لكن لم يجرؤ هو بحرية وعلانية أن يراه شخصيا بأم العين.

* * * * * *

منشـور التسـامـح

البحث عن الحقيقة، والنطق بها، كما نعرفها،
لا يمكن أبدا أن يعتبر جريمة.
لا يجوز فرض قناعة ما على أحد.
القناعة قرار حر.
سيباستيان كاستيليو، ١٥٥١

اعتبرت عملية إحراق سيرفيت فور حدوثها، من الذين عاصروها، نقطة انحراف أخلاقي في تاريخ البروتستانتية. لا تعني عملية إعدام إنسان فرد بحد ذاتها، شيئا خارقا للعادة في ذلك القرن الذي اشتهر بالعنف من سواحل إسبانيا إلى أعالي بحر الشمال والجزر البريطانية، حيث أحرق عدد لا يحصى من المارقين باسم شرف المسيح. باسم الكنيسة الحقيقية، ونعني مختلف الكنائس والبدع، قُضي على الآلاف، العديد من الآلاف من البشر الذين لا حول لهم ولا قوة في مواقع التعذيب، حرقا أو سحلا أو غرقا أو طعنا أو بقطع الرأس. وفي كتابه عن الهرطقة قال كاستيليو: «لو كان الأمر يتعلق، لن أقول بالخيول، بل بالخنازير التي أعدمت، لكان كل أمير اعتبرها خسارة كبيرة». لكن الذين سحقوا بشر، بشر فقط، لذلك لم يفكر أحد في إحصاء عدد الضحايا. وأضاف كاستيليو متحسرا في يأس «لست أدري ما إذا كان مثل هذا الدم الغزير قد أهرق في عصور أخرى غير زماننا» (ولم يكن بوسعه طبعا أن يتخيل القرن العشرين، قرن الحروب العالمية).

لكن دائما في كل قرن ثمة جريمة بعينها من بين عدد لا يحصى من الجرائم، هي التي توقظ ضمير العالم الذي يبدو ظاهريا أنه نائم. لهيب محرقة سيرفيت أضاء على الجميع في عصره، بل إن جيبون[٤٥] اعترف بعد قرنين من الزمان بأن «هذه المقتلة صدمته في العمق أكثر مما أثرت فيه آلاف الحالات في محارق محاكم التفتيش». ذلك أن إعدام سيرفيت - استنادا إلى قول فولتير - كان أول «قتل ديني» داخل حركة الإصلاح وأول إنكار واضح للغاية لأفكارها الأساسية. أصلا، يعتبر مفهوم «المارق» بحد ذاته ضربا من العبث بحسب العقيدة الإنجيلية التي نادت بأن لكل فرد الحق في التأويل. وفي الحقيقة أنه منذ البدء أعرب لوثر وتسفينغلي وميلانكتون عن الاشمئزاز الواضح تجاه الإجراءات العنيفة بحق المستقلّين داخل الحركة أو حتى المتطرفين. بصراحة أوضح لوثر قوله: «قليلا ما أحب أحكام الإعدام، حتى للمستحقين، وما يخيفني في المسألة هو المثال المنشود منها. ولذلك لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أوافق حتى على إعدام الدعاة المزيفين». ثم في صياغة كثافتها تشد الانتباه: «لا يجوز إطلاقا أن يُكبت الهراطقة وأن يقمعوا بالعنف الظاهر، وإنما أن يتم النضال ضدهم بكلمة الله وحدها. فالهرطقة حالة روحية ليس بوسع أي نيران أو مياه على الأرض أن تغسلها». وبنفس الوضوح أعلن تسفينغلي رفضه لكل أنواع اللجوء إلى القضاة ولكل استخدام للعنف الوحشي».

لكن العقيدة الجديدة لن تلبث أن تدرك، لأنها في الأثناء قد أصبحت «كنيسة»، أنه لا يمكن الاحتفاظ بالسلطة على مدى زمني بعيد من دون اللجوء إلى العنف، وهذا ما أدركته الكنيسة القديمة من فترة بعيدة. لذلك اقترح لوثر تأجيل القرار الحتمي، واللجوء في البداية إلى التسوية التي يمكنه خلالها

---

(٤٥) مؤرّخ انكليزيّ شهير ولد ١٧٣٧ وتوفي ١٧٩٤ Eduard Gibbon.

التمييز بين «العاتبين» و«المتمردين». بين أولئك «العاتبين» الذين لهم رأي مخالف عن الكنيسة الإصلاحية في المسائل الروحية، وبين «المتمردين» الذين يريدون تغيير النظام الاجتماعي إضافة إلى تغيير النظام الديني. ضد هؤلاء الأخيرين فقط – والمقصود أيضا «مجددو المعمودية»– أباح لوثر للسلطات حق استخدام القمع. أما بالنسبة إلى الخطوة الحاسمة، أي تسليم أصحاب الرأي الحر والمخالف إلى الجلاد، فهذا قرار لا يريد أيّ من قادة الكنيسة الإصلاحية اتخاذه. ما زالت ذكريات ذلك الزمان حيّة في وجدانهم، أيام كانوا الثوريين الفكريين ونهضوا ضد البابا والقيصر، وكانوا يعتبرون القناعة الذاتية أقدس حقوق الإنسان. ولذلك بدا لهم من غير الممكن أن يدعوا هم إلى قيام محاكم تفتيش جديدة، بقيادة بروتستانتية.

هذه الخطوة التاريخية على الصعيد العالمي اتخذها كالفن إذ أحرق سيرفيت. بصدع واحد هشم ما ناضلت حركة الإصلاح من أجله، أي الحق في «حرية الإنسان المسيحي». وبقفزة واحدة تجاوز الكنيسة الكاثوليكية، التي يحسب لصالحها، أنها انتظرت على الأقل ما يزيد عن ألف عام قبل أن تقدم على إحراق إنسان وهو حيّ بسبب آرائه الذاتية في المسائل الدينية المسيحية. لكن كالفن جلب العار على الحركة الإصلاحية وهو لما يزل في العقد الثاني من عهده في السلطة، وذلك بالفعل العديم الرحمة الذي أنتجه استبداده الفكري، والذي بالمعنى الأخلاقي يعتبر الأشد فظاعة والأسوأ من جرائم محاكم التفتيش الإسبانية. فالكنيسة الكاثوليكية إذا طردت مارقا من طائفتها وسلّمته إلى المحكمة المدنية، فهي بالتالي لا تعني إطلاقا أن هذا سلوك ناتج عن حقد شخصي، وإنما من حيث هي تحرّرُ الروح الأبدية من جسدها الدنيوي الدنس، فهي تقوم بعملية تطهير، وخلاص تجاه الله. فكرة التكفير هذه تغيب تماما عن عدالة كالفن الباردة. هو لم يكن معنيا على الإطلاق بخلاص روح سيرفيت،

إذ إن عمود المحرقة في المحصلة اشتعل في شامبيل من أجل التأكيد على عصمة التفسير الكالفني للذات الالهية. ليس كملحد مات سيرفيت تلك الميتة المريرة، وهو لم يكن كذلك أبدا، بل لأنه أنكر بعض نظريات كالفن فحسب. لذلك تبدو الكلمات المنقوشة في النصب التذكاري الذي أقامته مدينة جنيف الحرة بعد عدة قرون تخليدا للمفكر الحر سيرفيت كأنها تخفف العبء عن كالفن إذ قالت عن سيرفيت «شهيد عصره». لكن ليس زيغ العصر أو جنونه - في تلك الأيام عاش مونتانيْ وكاستيليو أيضا - قد قادا سيرفيت إلى عمود المحرقة، وإنما استبدادية كالفن الذاتية وحدها، وحدها فقط. ما من اعتذار يمكن أن يصلح كفارة محاكم التفتيش البروتستانتية عن هذا الفعل. وقد يكون الكفر والخرافات متجذرة في عصر ما، لكن دائما وأبدا، يبقى المسؤول عن جريمة معينة، الإنسان الذي ارتكبها.

كان تصاعد الإثارة حول التضحية المرعبة بسيرفيت جليّا من الوهلة الأولى، حتى دو بيز[٤٦] مساعد كالفن اللاهوتي شبه الرسمي، توجّب عليه أن يكتب: «لم يكن رماد المسكين قد برد بعد، حتى انهمرت الأسئلة: هل ينبغي معاقبة المارقين؟ رأى البعض أن قمعهم واجب لكن ليس بعقوبة الإعدام. ورأى بعض آخر أن تحديد نوعية العقوبة ينبغي أن يترك لحكم الله دون سواه». حتى ذلك الممجد لمجمل أعمال كالفن بلا قيد أو شرط، اكتسب في صوته فجأة نبرة غضب واضحة، ومثله كثر من أصدقاء كالفن. إلا أن ميلانكتون، الذي كان سيرفيت فيما مضى هاجمه شخصيا بأقذع الشتائم، كتب إلى أخيه الحبيب كالفن يقول: «تقول لك الكنيسة شكرا، وستقول لك شكرا في المستقبل أيضا. لقد تصرفت كشخصية إدارية تصرفا صحيحا، حيث حكمت على ذلك

(٤٦) De Beze.

الكافر بالموت». بل قد وجد أيضا – ضمن «خيانات القساوسة» الأبدية – باحث في علم البلاغة ذو حماسة بالغة يدعى موسكولوس، نظم أغنية احتفالية ورعة، احتفاء بهذه المناسبة. وما عدا ذلك، لم يسمع أحد تأييدا حقيقيا. زيوريخ، شافهاوزن والمجامع الأخرى لم تعبّر عن رأيها بالحماسة الكبيرة بصدد إعدام سيرفيت كما كانت جنيف تأمل. حتى لو رحبوا بترهيب «المتعصبين» من الناحية المبدئية، فلقد غمرتهم السعادة بلا شك، كون أول محرقة بروتستانتية نفذت ضد مارق لم تجرِ ضمن أراضيهم، وكون جان كالفن هو الذي سيتحمل تبعات هذا القرار المرعب غير المحمود أمام التاريخ.

في الوقت نفسه ارتفعت أصوات أخرى بأسلوب مختلف تماما. بيار بودان[٤٧] أكبر أستاذ للقانون في عصره، أصدر علانية فتواه القانونية الحاسمة: «في رأيي، أن كالفن لم يكن لديه الحق في أن يقود ملاحقة جزائية بسبب مسألة خلاف في شؤون دينية». ولم يكن المفكرون الأحرار في عموم أوروبا المذعورين الغاضبين الوحيدين، بل تعاظمت أصوات الاعتراض داخل الدوائر الروحية البروتستانتية. وعلى بعد ساعة من أبواب جنيف، في منطقة الفاد[٤٨] التي هي تحت سيادة برن وبحراسة أزلام كالفن، ندد القساوسة من منابر الكنائس بتصرف كالفن ضد سيرفيت واعتبروه مخالفا للدين والقانون. حتى في مدينته، اضطر كالفن إلى قمع المنتقدين بقوة الشرطة. سيدة قالت علنا إن سيرفيت شهيد يسوع المسيح، ألقي بها إلى السجن، ومثلها طابع كتب بسبب زعمه أن القضاة أدانوا سيرفيت من أجل سعادة رجل وحيد. بعض العلماء الأجانب الممتازين هجروا المدينة بشكل علني، حيث أنهم ما عادوا يشعرون بالأمان على مدى طويل، منذ أن أصبحت حرية التفكير مهددة باستبدادية الحكم على النوايا.

---

(٤٧) Pierre Boudin.

(٤٨) وعاصمتها لوزان وبالفرنسيّة Pays de Vaud منطقة تسمّى بالألمانيّة Waadland.

ولن يلبث كالفن أن يدرك أن سيرفيت الميت ضحية، أشد خطرا عليه بكثير، مما كان عليه في حياته وبكتاباته.

يستمع كالفن إلى الاعتراضات بأذن عديمة الصبر متوترة الأعصاب. لا يسعف المرء في جنيف أن يحذر متخوفا من الكلام علانية، لأن كالفن يشعر عبر الجدران والنوافذ بفورات الغضب المضبوطة بمشقة. لكن ما حدث قد حدث ولم يعد بالوسْع إلغاؤه. وحيث أن كالفن لم يعد قادرا على الهرب من المسؤولية، لم يبقَ أمامه شيء سوى أن يتحملها علنا. من دون أن يدري، وجد نفسه في هذه الظروف التي بدأها هو بمتعة الهجوم، مضطرا إلى الدفاع. سانده كل أصدقائه بالإجماع قائلين إنه الوقت المناسب للغاية لكي يبرر أخيرا عملية الإحراق، الحدث الذي كان محط الإهتمام العام. وفي الواقع، قرر كالفن في الختام وضد إرادته، أن «ينير» العالم بصدد سيرفيت، الذي كان هو شخصيا كتم صوته بعناية، وأن يحرر دفاعا بشأن فعله.

لكن كالفن سيء الضمير في مسألة سيرفيت. ومن يكتب من ضمير سيء يغدو أسلوبه سيئا هو الآخر. ولذلك جاء دفاعه المطبوع، أضعف مؤلفاته على الإطلاق. وجعل عنوان الكتيب «بيان من أجل تثبيت الإيمان الحقيقي بالأقانيم الثلاثة في إله واحد الذي يتمسك به المسيحيون جميعا، بقلم جان كالفن. ضد الأخطاء المنكرة للإسباني ميغيل سيرفيت». وقد قال كاستيليو عن بيان كالفن الدفاعي إنه «كتبه ودم سيرفيت ما زال على يديه». كالفن نفسه أقر أن صياغته «بلبلة» خطّها بتعجل وتوتر. والدليل على الاضطراب الذي شعر به في دفاعه الإجباري هذا، أنه جعل قساوسة جنيف جميعا يوقعون معه البيان، حتى لا يتحمل المسؤولية وحده. وبدا واضحا أن الأمر أصبح مزعجا له، أن يعتبر هو القاتل الحقيقي لسيرفيت، ولهذا يجد المرء في هذا البيان اتجاهين متقابلين بلا لباقة، فاختلط الحابل بالنابل. من جهة يريد كالفن، وقد حذره الاستياء العام،

أن يرفع المسؤولية عن كاهله ويلقي بها على السلطات المدنية، ومن جهة أخرى عليه أن يثبت أن القضاة حين قضوا على ذلك «الغول»، تصرفوا بشكل صحيح. في البداية، لكي يعرض نفسه في صورة الرجل اللطيف وخصوصا الذي هو في أعماقه عدو العنف بكل أشكاله، ملأ ذلك الجدلي المحترف قسما كبيرا من صفحات كتابه ضد وحشية محاكم التفتيش الكاثوليكية التي حكمت على المؤمنين من دون أن تعطيهم فرصة الدفاع، ونفذت أحكام الإعدام بأبشع الطرق («وأنت؟» أجابه كاستيليو لاحقا «لمن سمحت بالدفاع عن سيرفيت»؟). ثم يفاجيء القاريء بالمعلومة التي تذهله: «ما توقفت أبدا عن بذل كل ما بوسعي، في السرّ، لكي أردّه إلى مشاعر أكثر نقاء». إذًا بحسب هذا الزعم، فالقضاة وحدهم هم الذين فرضوا عقوبة الإعدام، بل بأشنع الطرق، برغم ميل كالفن نحو التسامح. لكن جهود كالفن هذه المزعومة تجاه سيرفيت، القاتل تجاه الضحية، كانت مع ذلك «سريّة»! كما لو أن أي إنسان يمكن أن يمنح هذه الأسطورة المكتشفة بعد الأوان مصداقية ما. بيد أن كاستيليو يثبت الوقائع بازدراء: «أول الإنذارات التي وجهتها كانت الشتائم، وثانيها السجن ولم يغادره سيرفيت إلا ليعلّق على عمود المحرقة وليحرق حيا».

على أن كالفن، إذ يبعد عن نفسه بيده اليمنى مسؤوليته عن تعذيب سيرفيت، فهو باليد اليسرى يلقي كامل تبعات هذا الحكم على كاهل «السلطات». وفورا حين يتعلق الأمر بتبرير الظلم يغدو كالفن فصيحا. راح يجادل قائلا «لا يتعلق الأمر بمنح الحرية لكل إنسان ليقول ما يشاء، وإلا ستتغدو أفكار الأبيقوريين والملحدين والمحتقرين الذات الالهية موضع ترحيب». ينبغي التبشير بالعقيدة الحقة (الكالفنية) وحدها. مثل هذه الرقابة لا تعني بأي حال الحدّ من الحريات – دائما يردد الدكتاتوريون هذه الذرائع غير المنطقية ذاتها – وبحسب كالفن «لا تصبح الكنيسة طغيانية إذا منعت الكتّاب ذوي

النوايا السيئة من نشر ما يدور في أذهانهم على الملأ». حين يمارس المرء تكميم أفواه الآخرين الذين لا يشاركونه الرأي ذاته، فهو في رأي كالفن وأمثاله، لا يمارس أي قهر، وإنما هو يتصرف بطريقة صحيحة ويخدم فكرة سامية، هي هذه المرة «مجد الله».

لكن ليس القمع الأخلاقي للزنادقة هو النقطة القابلة للأخذ والرد التي ينبغي على كالفن أن يتصدى للدفاع عنها – منذ فترة اتفق البروتستانتيون بشأنها – لكن السؤال الحاسم هو: هل يحق للمرء أن يقتل المخالفين له في الفكر، أو أن يأمر بقتلهم؟ وبما أن كالفن في حالة سيرفيت قد ردّ على السؤال سلفا بالإيجاب نظرا لفعلته، فعليه الآن أن يبررها لاحقا. ولكي يغطيها بحث بطبيعة الحال عن سند في الكتاب المقدس لكي يبدو أنه إذا كان قد قضى على سيرفيت، فهو مجرد منفّذ «لتكليف سام» وإنسان مطيع «لأمر سماوي». ثم بحث في التعاليم الموسوية (لأن في الأناجيل وصايا كثيرة «أحبوا أعداءكم») عن أمثلة بها إعدامات زنادقة، لكنه لم يظفر بشيء مقنع يروي الغليل، فالكتاب المقدس لم يأت على ذكر الزنادقة، لكنه أتى على ذكر «المجدفين» والناكرين وجود الله. في حين أن سيرفيت الذي هتف باسم المسيح وهو بين ألسنة اللهب، لم يكن ملحدا على الإطلاق. لكن كالفن الذي يستند دائما على الكتاب المقدس ويختار منه النص الذي يريحه، أعلن مع ذلك، أن إقدام السلطات على سحق المخالفين فكريا واجب «مقدس»، وقال: «تماما مثلما لا يشهر رجل عادي سيفه حين يتلوث بيته بالوثنية أو حين يعصى أحد أنسبائه الله، فكم سيغدو الجبن ذا دلالة قوية إذا كان صادرا عن أمير غضّ الطرف إزاء التجريح الذي تعرّض له الدين». لقد أعطي السيف لكي يدافع عن «مجد الله» (دائما يبتذل كالفن هذا التعبير في ندائه من أجل العنف). كل فعل ينطلق بـ«حماسة مباركة» مبرر سلفا. إن الدفاع عن الإيمان القويم

والرأي المستقيم يلغي - بحسب كالفن - كل روابط الدم وكل وصايا الإنسانية. حتى أقرب الأقرباء يجب أن يمحقهم المرء إذا دفعهم الشيطان إلى إنكار الدين «الحقيقي» وإذا جدفوا بحق الله «أننا لا نقدم للرب الشرف الذي يتوجب علينا تجاهه، إذا كنا لا نفضّل خدمته على كل نظرة إنسانية. وعلينا أن نستغني عن روابط القربى والدم وعن الحياة وأن نضع الإنسانية جانبا إذا تعلقت المسألة بالنضال من أجل مجد الرب».

كلمة مرعبة ودليل مأسوي يثبت إلى أي درجة يمكن أن يعمي التعصب إنسانا صافي الفكر! ذلك أنه وفقا للحقيقة العارية المرعبة كما قيلت في العبارة السابقة، فالإنسان التقي - وفق معيار كالفن - هو الذي من أجل «العقيدة» - عقيدته هو - يميت في داخله كل «نظرة إنسانية»، أي كل شعور بالإنسانية، الذي بملء إرادته يسلم محاكم التفتيش زوجة أو أقارب، أخا أو أحدا من العشيرة، بمجرد وجود رأي عن الإيمان القويم مخالف للمجمع الديني ولو في نقطة، أو حتى نقيطة. وحتى لا ينازع أحد هذه النظرية المتعطشة لسفك الدماء، يستنجد كالفن بذريعته الأخيرة المفضلة: الترهيب! أعلن أن كلّ من دافع عن مارق أو وجد له العذر، يصبح هو شخصيا مذنبا يستحق العقاب. وحيث أن كالفن لا يطيق الاعتراض، أراد أن يرعب مسبقا أي معترض، وفي مصير سيرفيت التهديد الكافي: إما أن يخرس ويمتثل، وإلا يجد نفسه على عمود المحرقة! كالفن يريد أن يغلق إلى الأبد باب المناقشة المؤلمة حول قتل سيرفيت.

لكن أيّا كان حجم الغضب والعنف في صرخة التهديد التي أطلقها كالفن إلى العالم، يرفض صوت القتيل الاتهامي أن يقاد إلى الصمت. ونص مرافعة كالفن الذي طالب فيه بمطاردة الزنادقة ترك أسوأ الانطباعات. تملك التقزز من البروتستانتيين الخُلّص إذ شاهدوا وسمعوا في كنائسهم الإصلاحية المطالبةَ بمحاكم التفتيش ممهورة بخاتم أرفع السلطات الروحية. ورأى البعض أنه كان

من الأنسب أن يدافع مجلس المدينة عن مثل هذه القضية الدموية، بدلا من أن يتولى ذلك داعية إلى كلمة الله، خادم للمسيح. تسركينتيس[٤٩] أمين مجلس مدينة برن، الذي أصبح لاحقا صديق كاستيليو الوفي وحاميه، كتب إلى كالفن يردّ عليه بحسم رائع: «أعترف صراحة أنني أنتمي إلى أولئك الذين يريدون الحدّ من عقوبة الإعدام بحق خصوم المعتقد بأقصى درجة ممكنة، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ضلالهم باختيارهم. وليست الفقرات الواردة في الكتاب المقدس التي يمكن المرء أن يقتبسها ضد استخدام العنف وحدها التي جعلتني أحسم أمري، إنما بصفة خاصة أيضا النموذج الدال على كيفية السلوك في هذه المدينة تجاه «مجددو المعمودية». أنا شخصيا شاهدت امرأة في الثمانين من عمرها، يقودونها إلى منصة الإعدام، ومثلها ابنتها وهي أم لستة أطفال، وهي لم ترتكب جريمة سوى أنها رفضت تعميد أطفالها. تحت وطأة مثل هذا المثال يجب عليّ أن أخشى أن السلطات المدنية لم تضع القضاء عند حدوده التي أنت شخصيا تريد أن تحصره داخلها، وأن الأخطاء الصغيرة تلقى عقابا مماثلا لما يفرض على الجنايات الكبيرة. لذلك فمن المرغوب فيه التفكير في أنه من الأفضل أن تعتبر السلطات العليا نفسها مذنبة بسبب المبالغة في الفطنة واللطف، على أن تقرر استخدام السيف والعنف. فيما يخصني، أفضل أن يهراق دمي، على أن أتلوث بدماء إنسان ما كان يستحق الموت على الإطلاق».

هكذا تكلم في حقبة التعصب موظف صغير غير معروف، ومثله يفكر كثيرون، لكنهم يكتفون بطرح أفكارهم في صمت. وهذا الفاضل تسركينتيس يشعر مثل معلمه إيرازموس بالخجل من جدالات العصر، وهو نقل خجله بإخلاص إلى كالفن معلنا أنه يخبره برأيه المخالف عبر الرسالة فقط، وأنه علانية يريد أن يلزم الصمت: «لن أصعد إلى الحلبة، ما دام ضميري لم يلزمني

---

(٤٩) Zerchintes.

بذلك. وبدلا من أثير المناقشات وأمرض أحدا ما، أفضل أن أبقى صامتا طالما ضميري يسمح بذلك». دائما يستسلم أصحاب السجايا الإنسانية بسرعة، ويسهلون بذلك لعبة أهل العنف، ويتصرفون جميعا مثل ذلك البارع لكن غير المناضل تسركينتيس. يصمتون ويصمتون، الإنسانيون والمفكرون والعلماء، بعضهم عن اشمئزاز من المشاحنات الصاخبة، وبعضهم عن خوف، من أن يتهموا هم ذاتهم بالزندقة إذا لم ينافقوا ويمتدحوا إعدام سيرفيت بوصفه فعلا يستحق الثناء. وهكذا يبدو أن مطالبة كالفن المنكرة بالاضطهاد العام للمخالفين في الفكر، ستبقى بلا اعتراض. عندئذ ارتفع صوت فجأة – يعرفه كالفن ويمقته – لكي يدين علنا الجريمة المرتكبة ضد ميغيل سيرفيت، باسم الإنسانية المهانة. إنه صوت كاستيليو الصافي، الذي لم يرهبه أبدا مرتكب العنف المقيم في جنيف، والذي قرر بلا تردد أن يعرّض حياته للخطر، لكي ينقذ حيوات عدد لا يحصى من البشر.

في الحروب الفكرية ليس الذين يبدأون المنازعات بخفة وشغف هم أفضل المناضلين، وإنما الذين يترددون طويلا وينشدون السلام في أعماقهم. وفي هذا الإطار ينضج العزم ببطء ثم القرار. لا يذهبون إلى الحرب الدفاعية التي لا مناص منها، إلا بعد أن يستنفذوا كل إمكانيات التفاهم، وبعد أن يستوعبوا الجانب الإلزامي في هذا القتال. يذهبون بقلب مثقل وحزين. لكن أولئك الذين لا يقررون الذهاب إلى المعركة إلا بثقل، هم الذين يصيرون الأكثر عزيمة وحسما. هكذا كاستيليو. باعتباره إنسانيا حقا، لم يولد مجادلا وليس مقتنعا بالنزاع بالفطرة، بل إن المودة والتسامح والتصالح الملحّ تعبّر بشكل أدق عن طبعه الدمث والمتعمق للغاية في الدين. مثل سلفه الروحي إيرازموس أدرك التعددية في الشكل وفي المضمون في الحقائق الدنيوية والسماوية. وليس من قبيل المصادفة أنه جعل أحد أهم مؤلفاته بالعنوان التالي «فنّ الشكّ». لكن

هذا الشك الذاتي ومثله الامتحان الذاتي، لم يجعل كاستيليو متشككا باردا على الإطلاق، بل إن حذره علّمه التساهل فقط إزاء الآراء الأخرى جميعا، وهو فضّل الصمت على التسرع في زجّ نفسه في نزاعات غريبة. ومنذ أن استغنى بملء إرادته عن الوظيفة ومحاسنها من أجل الاحتفاظ بحريته الذاتية، انسحب تماما من المشهد السياسي الراهن ليخدم الإنجيل بأفضل ما يمكن، بإبداع فكري، عبر ترجمته الكتاب المقدس إلى اللاتينية والفرنسية. وأصبحت مدينة بازل، آخر جزيرة للحرية الدينية، موطنه الهادىء. هنا ما زالت الجامعة تضم إرث إيرازموس. ولهذا لاذ بآخر المدن الحرّة والملجأ الوحيد للإنسانية الأوروبية، المهاجرون الذين عانوا من ملاحقة الدكتاتورية الكنسية. هنا يعيش كارلشتاد الذي طرده لوثر من ألمانيا، وبرناردو أوكينو المطارد من محاكم التفتيش الكاثوليكية الإيطالية، وكاستيليو المبعد من جنيف بسبب كالفن، وليليو سوتشينو وكوريوني، وهنا يعيش أيضا متخفيا باسم مستعار أحد أقطاب «مجددو المعمودية» الهولندي دافيد دو جوريس[٥٠]. الاضطهاد ذاته والمصير ذاته جمعا هؤلاء المهاجرين معا، بالرغم من أنهم، على أيّ حال، ليسوا موحدين في الاقتناع بكل المسائل اللاهوتية. لكن أصحاب الطباع الإنسانية لا يحتاجون أبدا إلى تماثل منهجي في النظرة إلى العالم بأدق التفاصيل لكي يعقدوا فيما بينهم روابط صداقة إنسانية. كل هؤلاء الذين رفضوا أخلاقيا خدمة دكتاتور، يعيشون في بازل حياة فكرية خاصة بلا ضجيج. لا ينهالون على العالم بالمنشورات والمناشير، ولا يخطبون بإطناب في المحاضرات، ولا يحتشدون معا في اتحادات وطوائف. بيد أن ثمة أسى واحدا مشتركا يربط بين هؤلاء «العاتين» (هكذا سيدعى لاحقا الذين رفضوا الإرهاب الفكري المتجمد) موحّدين بأخوة هادئة، من جراء تعاظم الروح التنظيمية والثكناتية.

---

(٥٠) Bernardo Ochino, Lelio Socino, Curione, David de Joris.

من المفهوم أن المفكرين المستقلين يعتبرون إحراق سيرفيت والمنشورالدفاعي المتعطش للدماء الذي أصدره كالفن، بمثابة إعلان الحرب. هذا التحدي الجريء ملأهم بالذعر والغضب. على الفور أدرك الجميع أن اللحظة الراهنة حاسمة: إذا ظل مثل هذا الفعل الطغياني بلا ردّ، فلسوف يتنازل الفكر الحرّ في أوروبا عن وجوده، ولسوف يصبح العنف شرعيا. هل يسقط الناس في الظلمات حقا «بعدما عرفوا الأنوار مرة» وبعدما حملت حركة الإصلاح إلى العالم المطالَبَة بحرية الضمير؟ هل ينبغي في الواقع، كما يطالب كالفن، إبادة المسيحيين الذين يخالفوننا الرأي بالسيوف والمشانق؟ أليس من الواجب الآن في أشد اللحظات خطورة، وقبل أن تأخذ آلاف المحارق لهيبها من محرقة شامبيل، أن يعلن بوضوح أنه لا يجوز أبدا مطاردة البشر الذين لهم رأي مختلف في الأمور الروحية كما تطارد الوحوش الضارية، أو أن يعذبوا بعنف كما اللصوص والقتلة؟ الآن وفي آخر اللحظات ينبغي أن يعلن للعالم بالصوت العالي وبمنتهى الوضوح: اللاتسامح مضاد للمسيحية، وحين يدعو إلى العنف فهو مضاد للإنسانية. شعر الجميع أنه آن الأوان ويجب القول بالصوت العالي الواضح، كلمة لصالح المضطَهَدين وكلمة ضد المضطهِدين.

بالصوت العالي الواضح! ولكن كيف يكون ذلك ممكنا في تلك الأزمنة؟ ثمة أحيان تحتاج فيه أبسط الحقائق الإنسانية وأنصعها إلى أغطية وضباب لكى تصل إلى الناس. فأقدس الأفكار وأكثرها إنسانية تقنع وتتموه وتتسلل عبر الأبواب الخلفية كاللصوص لأن الباب الكبير المفتوح مرصود من الموظفين والأتباع. ودائما تتكرر تلك الحقيقة العبثية وهي أنه فيما تتاح الكلمة الحرة لدى تحريض شعب ضد شعب أو عقيدة ضد عقيدة، تعتبر اتجاهات الغفران والمُثُل السلمية والتصالحية مشبوهة وتقمع، بذريعة أنها تشكل خطرا ما (في كل مرة خطر آخر) على السلطة الحكومية أو الربانية، كونها إنهزامية تضعف

بنزعاتها الإنسانية معنويات المؤمنين والحمية الوطنية. وهكذا في ظل الإرهاب الكالفني ليس بوسع كاستيليو وأنصاره التحرك، أو عرض وجهة نظرهم علانية وبوضوح. «منشور التسامح» أو نداء للإنسانية كما خططوا لإصداره، سيقع من اليوم الأول تحت خطر المصادرة من قبل الدكتاتورية الفكرية. إذًا، فالعنف لا تمكن مواجهته إلا بالحيلة. أعطي الناشر اسما مستعارا «مارتينوس بيليوس»، وأعطي مكان الطبع موضعا مختلقا (ماغدبورغ بدلا من بازل) على الغلاف، وبصفة خاصة النداء لإنقاذ المضطهدين الأبرياء الذي ورد في النص ذاته، تقنّع بالعمل العلمي واللاهوتي، أريد له أن يبدو مجرد بحث أكاديمي تناقش فيه علماء رفيعو المستوى من الكنيسة ومرجعيات أخرى حول السؤال: «هل ينبغي ملاحقة الزنادقة وكيف ينبغي أن يتصرف المرء إزاءهم.. كتب التقارير مؤلفون عديدون قدامى وحديثون». وفي الحقيقة، حين يقلّب المرء الصفحات بسرعة يتبادر إلى ذهنه للوهلة الأولى أنه فعلا يتصفح بحثا تقيّا، يتضمن أقوالا مأثورة لأشهر آباء الكنيسة، من القديس أوغسطينوس والقديس يوحنا فم الذهب وهيرونيموس وهي تتجاور أخويا مع تصريحات مختارة من أكبر المرجعيات البروتستانتية مثل لوثر وسباستيان فرانك[٥١] أو من الإنسانيين المحايدين مثل إيرازموس. مجرد أنطولوجيا سكولائية، مختارات من أقوال قانونية – لاهوتية لفلاسفة من تيارات مختلفة جمعت هنا لتتيح الفرصة للقارىء لكي يصدر حكمه الشخصي المتحرر من التأثيرات بشأن السؤال الصعب المطروح. لكن عندما يدنو المرء بالنظر أكثر فأكثر، فسيرى أن النص بمجمله عبارة عن تقارير خبراء منتخبة تعتبر عقوبة الإعدام بحق الزنديق حرامًا. الحيلة الفكرية الوحيدة، وهى نقطة المكر الوحيدة في هذا الكتاب ذي الجديّة الرهيبة، أنه من بين المختارات التي تناقض كالفن، ثمة واحدة لا بد وأن مضمونها سيزعجه

---

(٥١) Sebastian Frank.

بصفة خاصة، لأن كاتبها ليس سوى كالفن! إن نصه، القديم الذي يرجع إلى الفترة التي كان ما زال مضطهدا فيها، يناقض بحدة دعواته الحالية إلى استخدام السيف والنار. وبكلماته يمكن أن يعتبر قاتل سيرفيت، أن يعتبر كالفن ذا سلوك غير مسيحي بقلم كالفن ذاته، والنص هنا مطبوع ويحمل توقيعه: «يعتبر سلوكا غير مسيحي عندما تضطهد الكنيسة بالسلاح الذين طردتهم من صفوفها، وعندما تحرمهم من الحقوق الإنسانية».

لكن الكلمة الواضحة الصياغة هي التي تعطي كتابا ما قيمته لا الكلمة ذات المعنى المتخفي. هذه الكلمة قالها كاستيليو في المقدمة المهداة إلى الدوق فون فورتنبيرغ. ووحدها الكلمات التمهيدية والختامية جعلت الأنطولوجيا اللاهوتية تتجاوز زمانها. فمع أنها لا تتجاوز دزينة من الصفحات، ففيها للمرة الأولى مطالبة بأن يكون لحرية الفكر حق الإقامة المقدس في أوروبا. وفيما كتبت أساسا لصالح حماية الزنادقة، فهي في الوقت نفسه نداء استباقي إلى الجميع الذين في أزمنة لاحقة سيعانون من اضطهاد دكتاتوريين آخرين بسبب الإرادة الاستقلالية في الآراء السياسية أو في النظرة إلى العالم. افتتح النضال، ليبقى على مرّ العصور، ضد الخصم اللدود للعدالة الفكرية، ضد التعصب الضيق الأفق الذي يريد أن يقمع كل الآراء ما عدا الصادرة عن حزبه هو، وليواجهه ظافرا بفكرة هي الوحيدة القادرة على تحرير الأرض من البغضاء: فكرة التسامح.

طوّر كاستيليو نظريته بمنطق خال من الانفعال، واضح، يتعذر دحضه. وطرح السؤال: هل ينبغي ملاحقة الزنادقة ومعاقبتهم بالإعدام على جنحة ذات طابع فكري؟ وقد استبق كاستيليو هذا السؤال بآخر حاسم. في الواقع، من هو الزنديق؟ على من يطلق المرء هذه الصفة من دون أن يكون ظالما؟ يجادل كاستيليو في تصميمه الجريء على النحو التالي: «لا أعتقد أن كل الذين

يطلق الناس عليهم زنادقة هم زنادقة بالفعل. لقد أصبح هذا التعريف اليوم مشينا، رهيبا، مزريا، مخيفا، حتى إذا أراد أحدهم أن ينهي خصما شخصيا يجد أمامه طريقا مريحا، أي أن يتهم عدوه بالزندقة. ما إن سمع به الآخرون، حتى شعروا بالهول إزاء لقب الزنديق، فسدّوا آذانهم وبغضب عارم لاحقوا الزنديق، بل وكل من يقول فيه كلمة طيبة أيضا.

بيد أن كاستيليو لا يريد أن يصدر حكمه انطلاقا من مثل هيستيريا الملاحقة. إنه يعرف أنه في كل حقبة يتم اختيار مجموعة من التعساء لكي يفرغ عليهم الحقد الجماعي المختزن. في كل مرة تختار مجموعة صغيرة وضعيفة، سواء بسبب دينها، وأحيانا بسبب لون البشرة، أو العرق، أو الوطن الأم، أو المثل الاجتماعية، أو نظرتها للعالم، فتفرغ فيها المجموعة الأقوى طاقة الإلغاء الكامنة فيها. تتغير الكلمات وتتغير المناسبات، لكن منهج التجريح والاتهام والإلغاء يبقى ذاته. لكن مثل هذه الكلمات لا ينبغي أبدا أن تفقد رجلَ فكرٍ بصره الثاقب، ولا يجوز له أن ينجرّ وراء صخب غرائز الجماهير. بل عليه في كل مرة أن يبحث عن الحق مجددا بعدالة وهدوء. ولذلك تمنع كاستيليو عن إبداء رأيه في مسألة الزنديق قبل أن يكون قد تغلغل في أعماق معنى هذه الكلمة المقيتة.

إذًا، من هو الزنديق؟ دائما يبسط كاستيليو السؤال أمام نفسه وأمام القاريء. وبما أن كالفن وجماعة محاكم التفتيش الآخرين يستندون إلى الكتاب المقدس باعتباره كتاب القانون الوحيد الصالح، بحث هو أيضا فيه صفحة صفحة. لكنه لم يرَ هذه الكلمة إطلاقا ولا المفهوم الدال عليها. في البدء يجب أن توجد العقيدة وتطبيقها الصارم وتعاليمها الموحّدة، حتى يُبتكر المفهوم. وقبل أن يتمرد المرء على الكنيسة، يجب أن تكون الكنيسة قد أنشأت كمؤسسة. الكتب المقدسة تتكلم عن الكفر والعقوبات اللازمة له. بيد أن الزنديق ليس بالضرورة

أبدا كافرا، وحالة سيرفيت أثبتت ذلك. وبالعكس، فإن الذين يطلق عليهم زنادقة، وبصفة خاصة «مجددو المعمودية» يزعمون أنهم المسيحيون الحقيقيون الصادقون ويعتبرون يسوع أسمى وأحبّ مثال يجب أن يُمَجَّد. وحيث لا يمكن نعت التركي أو اليهودي أو الوثني بالزنديق، فيجب أن تكون الزندقة جريمة محصورة في المسيحية فقط. إذا بصياغة جديدة: الزنديق هو برغم كونه مسيحيا، لا يلتزم بالمسيحية «الحقة»، وإنما يتشبث في بعض النقاط بالذات بانحراف عن العقيدة «الصحيحة».

ظاهريا، كان من الممكن القول إنه تمّ العثور على التعريف الصحيح. لكن - والسؤال تخشى مغبته - ما هي المسيحية «الحقّة» وسط كل هذه التأويلات المختلفة؟ وما هو التفسير «الحقيقي» لكلمة الله؟ أهو الذي يعتمده الكاثوليك؟ اللوثريون؟ أتباع تسفينغلي؟ أم أنصار يان هوس؟[٥٢] أو مجددو المعمودية؟ أم الكالفنيون؟ هل يوجد حقا يقين مطلق في المسائل الدينية؟ وهل حقا كلمة الكتاب المقدس واضحة دائما؟ لدى كاستيليو - بعكس المكابر كالفن - الشجاعة الكافية ليقول لا بتواضع. رأى في الكتاب المقدس ما هو مدرك تماما بجوار ما هو عصيّ على الإدراك. وكتب من أعماق روح دينية «إن حقائق الدين من حيث طبيعتها أقرب إلى الغموض، وقد ولدت، وما زالت بعد ألف سنة، مادة نزاع لا ينتهي، ينسكب فيه الدم بلا توقف مادام الحب لم يغمر النفوس بالنور، ولم تكن لديه الكلمة الأخيرة». كلّ من يأوّل كلام الله يمكن أن يخطيء وأن يقع في الضلال، ولذلك فالتسامح المتبادل هو أول الواجبات. «لو أن الأمور كانت واضحة وشفافة، كما وجود الله الواحد واضح، لكان من السهل على جميع المسيحيين أن يكون لهم رأي واحد في هذه الأمور،

(٥٢) Jan Hus مفكّر تشيكي ومصلح في أمور الدين، عارض الكنيسة الكاثوليكيّة ورفض عصمة البابا - فاتهمته الكنيسة بالزندقة وأعدم حرقًا عام ١٤١٥.

مثلما جميع الأمم متفقة على الاعتراف بوجود الله الواحد. لكن بما أن كل شيء معتم وملتبس فلا يجب على المسيحيين أن يدين بعضهم البعض الآخر على الإطلاق. ولو كنا أكثر حكمة من الوثنيين، لأصبحنا أفضل منهم وأكثر عطفا».

مرة ثانية تقدم كاستيليو في أبحاثه خطوة: الزنديق إذا، هو الذي يعترف بالقوانين الأساسية للمعتقد المسيحي، لكن ليس بالشكل المفروض رسميا في البلد الذي يعيش فيه. الزندقة إذًا – وأخيرا الفصل المهم – ليست مطلقة وإنما هي مفهوم نسبي. من المفهوم أن أيا من أتباع كالفن هو في نظر الكاثوليكي زنديق، والحال نفسه إذ يعتبر الكالفني أتباع «مجددو المعمودية» زنادقة. والإنسان نفسه الذي يعتبر في فرنسا صحيح الإيمان هو في جنيف زنديق، وبالعكس أيضا. الذي يعدم حرقا في بلد ما هو شهيد في البلد المجاور. «بينما تعتبر أنت في مدينة أو مقاطعة ما مؤمنا حقيقيا، لذلك سوف يشتبه بك كزنديق في المدينة التالية. حتى أنه إذا اراد أحد أن يعيش اليوم بلا مضايقة، فينبغي أن يكون لديه من المعتقدات والديانات بقدر عدد المدن والبلدان». وهكذا يصل كاستيليو إلى آخر صياغاته وهي الأجرأ «عندما أبحث عمن هو زنديق فعلا، فإنني لا أجد سوى أننا جميعا سنطلق صفة الزنديق على كل من لا يوافقنا رأينا».

تبدو الكلمة في غاية البساطة، بل وببداهتها أقرب إلى أن تكون تافهة. لكن الكلام ببساطة وصراحة، كان يعني آنذاك جرأة أخلاقية هائلة. إذ أن ذلك يعني أن إنسانا بلا سلطة صفع عصرا بأسره بقادته وأمرائه وقساوسته، الكاثوليكيين منهم واللوثريين، كون مطاردتهم المقيتة للزنادقة عبثا وجنونا قاتلا. وكون هؤلاء لم يرتكبوا إطلاقا أيّ جرم ضد الله أو الدولة، فإن ما تعرّض له آلاف، بل عشرات الآلاف من دون ذنب اقترفوه، من ملاحقة وإعدام وحرق

وغرق، أمر ضد القانون. إنهم لم يختلفوا عن الآخرين في المجال الواقعي للفعل، وإنما في الجانب غير المرئي من الفكر فحسب. إذًا من يملك الحق في أن يحكم على أفكار إنسان ما، وأن يعتبر قناعته الداخلية الخاصة جناية ضد الحق العام؟ لا الدولة ولا السلطات. إذ وفق كلمات الإنجيل، فإن قيصر له ما له فحسب. وبوضوح أورد كاستيليو كلام لوثر حين قال إن المملكة الأرضية لها سلطة على الجسد فقط، أما بشأن الروح فلم يُرِد الله أن يكون لأي قدرة دنيوية الحق في التحكم بها. بوسع الدولة أن تأمر رعاياها بالتزام النظام الخارجي والسياسي. لكن تدخّل أي سلطة كانت في العالم الداخلي في شؤون القناعات الأخلاقية والدينية – ونضيف إليها الفنية/الأدبية – طالما أنها لا تشكّل ثورة جليّة ضد كيان الدولة (ولنقل تمردا سياسيا)، يعني إذًا سطوا على حق العصمة للشخصية الإنسانية وانتهاكا له. لا أحد يتحمل مسؤولية عن عالمه الداخلي تجاه أيّ هيئة في الدولة، بل هو غير قابل للمسؤولية أساسا ذلك أن «كلاًّ منا عليه أن يقود بنفسه أشياءه الخاصة أمام الله». سلطة الدولة لا صلاحية لها في موضوع القناعات. لماذا إذًا ذلك الغضب الكريه والزبد يغطي الشفاه، إذا كان لدى الآخر قناعات أخرى؟ لماذا رفع العقيرة بالصياح لاستدعاء شرطة الدولة؟ لماذا هذا الحقد القاتل؟ من دون إرادة تصالح تغدو الإنسانية الحقة مستحيلة. ذلك أنه فقط «عندما نسيطر على دواخلنا نستطيع أن نعيش معا بسلام، وحتى لو كنا أحيانا على اختلاف في الرأي، فإن أحدنا يفهم الآخر على الأقل، ونبقى نتبادل المحبة ورابط السلام إلى أن نتوصل إلى الوحدة في الإيمان».

إن ذنب تلك المذابح البشعة والاضطهادات الهمجية التي تشين الإنسانية لا يقع على عاتق الزنادقة الذين لا ذنب لهم (من يمكن أن يكون مسؤولا عن أفكاره، عن قناعاته؟). في نظر كاستيليو، إن المسؤول، المسؤول الأبدي عن هذا الجنون القاتل والاضطراب الوحشي في عالمنا، يبقى التعصب وانعدام

التسامح لدى العقائديين الذين يريدون أن يفرضوا أفكارهم ودينهم ومفهومهم للعالم. وبشراسة ندد كاستيليو بهذا الافتراض المجنون: «إن الناس مقتنعون للغاية بآرائهم الذاتية أو ربما بالمعلومة المغلوطة التي لديهم عن آرائهم، فيزدرون الآخرين بعجرفة. من هذا التكبّر تنجم الفظاظة والاضطهاد إلى درجة أن أحدا لا يطيق الآخر بمجرد أنه لا يوافقه رأيه، بالرغم من أنه يوجد اليوم من الآراء العديدة المختلفة بقدر ما يوجد من أناس. وبرغم ذلك لا توجد اليوم طائفة واحدة لا تدين الطوائف الأخرى، وتريد أن تسود عليها وحدها. وهذا مصدر كل الأفعال: الإبعاد، النفي، السجن، الحرق، الشنق والحنق الدنيء المؤدي إلى عمليات التعذيب والإعدام الممارسة كل يوم، لا لشيء سوى أن بعض الآراء لا تعجب السادة الكبار، بل وغالبا ما تمّ كل ما سبق من دون سبب محدد. وحده التشبث العنيد يولّد ما لا يصدقه عقل. وحده انعدام التسامح، ذاك الانتشاء الوحشي، سبب ارتكاب الفظائع. اليوم يرى المرء البعض، وقد أثيروا للغاية بالأراجيف المحرّضة، يستشيطون غضبا إذا كان أحد الذين أرسلوهم إلى منصة الإعدام قد مات خنقا من البداية، وليس بالتعذيب الكامل بالحرق على نار هادئة.

لذلك يرى كاستيليو شيئا واحدا فيه خلاص الإنسانية من هذه الهمجيات: التسامح. في الكون فضاء يتسع لحقائق عديدة وليس لواحدة فقط. إذا أراد الناس فبوسعهم أن يعيشوا معا «ليتقبّل أحدنا الآخر، ولا يدين الواحد عقيدة الآخر». إذاً فالصرخة البشعة المتّهِمة بالزندقة هذر هباء، والاضطهاد في المسائل الروحية لا لزوم له. وبينما يحضّ كالفن في كتاباته الأمراء أن يستخدموا السيوف لسحق الزنادقة بلا هوادة، يتضرع إليهم كاستيليو قائلا: «أجدر أن تميلوا صوب اللطف ولا تصغوا إلى الذين يحرضونكم على القتل. لأنهم لن يقفوا إلى جانبكم معينين يوم يتوجب عليكم تقديم الحساب أمام الله، إذ

سيكونون منشغلين بما فيه الكفاية بالدفاع عن أنفسهم. صدقوني، لو أن المسيح كان هنا، فلن ينصحكم أبدا بأن تقتلوا الذين يعترفون باسمه، حتى لو أخطأوا في أحد التفاصيل أو حتى لو ضلّوا الطريق».

بتجرّد، كما ينبغي في القضايا الروحية، محّص سباستيان كاستيليو في العمق المسألة الخطيرة الخاصة بمن يقال عنه الزنديق، ومدى ذنبه وبراءته. بحثها وزانها بدقة. وإذا كان انطلاقا من قناعة داخلية طالب للمطاردين والمحرّض عليهم بالحرية وبالإقامة في مدينة حرة فكريا، عرض رأيه للآخرين، تقريبا بتواضع، بالرغم من اليقين الذاتي. بينما يدلل الطائفيون المتعصبون على عقيدتهم على غرار باعة السوق بالزعيق العالي والضجيج، وبينما لا يملّ أيّ عقائدي ضيق الأفق من الصراخ من منبر الكنيسة أنه، وأنه وحده، يختصر النقاء والعقيدة الحقّ، وأن إرادة اللّه - ومثلها كلمته - لا تتجلّى إلا عبر صوته، قال كاستيليو ببساطة: «إنني لا أخاطبكم مثل نبي مرسل من اللّه، ولكن كرجل من بين الناس، يستفظع النزاعات ويرجو أن يبرهن الدين عن ذاته لا عبر المشاحنات بل عبر الحب المتبادل، لا من خلال الطقوس الخارجية، إنما من داخل القلب». دائما يخاطب العقائديون الآخرين وكأن هؤلاء تلاميذ أو خدم، بينما يخاطبهم ذوو النزعات الإنسانية من رجل إلى رجل، من إنسان إلى إنسان.

لكن إنسانا إنسانيا لا يمكنه أن يبقى من دون أن يستثار حين يشهد أحداثا لا إنسانية. قلم كاتب شريف لا يمكن أن يخطّ كلمات في العموميات بلا عاطفة، حين ترتعد روحه من جنون عصره، ولا يمكن أن يبقى صوته معتدلا حين الغيظ المشروع يحرق أعصابه. ولم يكن من الممكن أن يبقى كاستيليو على هذا النحو طويلا وأن يكتفي بالأبحاث الأكاديمية في مواجهة محرقة شامبيل التي ذاق عندها إنسان بريء التعذيب حتى الموت، إنسان أخرق وهو حيّ بناء

على أوامر أخ روحي، عالم بأمر عالم، لاهوتي بأمر لاهوتي، وكل ذلك باسم دين المحبة. وظلت صورة سيرفيت المعذب والاضطهاد الجماعي المقيت للزنادقة ماثلة في وجدان كاستيليو، فصرف النظر عما كتبه إلى حينه من صفحات، وبحث عن المحرّضين على هذه الفظائع، الذين عبر خدمة الله بتقوى يريدون أن يجدوا العذر لعدم تسامحهم، لكن من دون جدوى. وحين صاغ كاستيليو صرخته بالعبارة التالية كانت عيون كالفن القاسية أمام ناظريه «وبالرغم من أن هذه الأشياء شنيعة للغاية، فإن الجناة يرتكبون ذنبا أفظع حين يحاولون تغطية الأمور المنكرة بثياب المسيح، ويزعمون أنهم بذلك ينفذون إرادته». وهو يعلم، أنه في كل زمان، يحاول مرتكبو العنف تزيين هذا العنف بأيما مثاليات دينية أو فلسفية. لكن الدم يلوث كل فكرة، كما يحط العنف من قدر كل رأي. لا، لم يحرق ميغيل سيرفيت بناء على أوامر المسيح، بل بناء على أمر جان كالفن، وإلا كانت المسيحية كلها الموجودة في الكون قد تدنّست. ويواصل كاستيليو تحذيره «من يريد اليوم أن يغدو مسيحيا حين يقضى على الذين يعترفون بالمسيح بالحديد والنار ويعاملون بالعنف كما اللصوص والقتلة؟ من سيقبل أن يخدم المسيح حين يرى اليوم إنسانا يحرق حيّا باسم يسوع، لأنه في تفصيل ما لم يوافق أحد الذين خطفوا القوة والسلطة رأيه، وذلك بالرغم من أنه من وسط لهيب النار هتف بالصوت العالي معترفا أنه يؤمن بالمسيح؟».

لذلك شعر هذا الرجل الإنساني الشريف أنه يجب وضع حدّ نهائي لهذا الجنون الذي يتيح تعذيب البشر وقتلهم لا لشيء إلا لأنهم يخالفون أصحاب السلطة الراهنة الرأي. وإذ رأى أن أصحاب السلطان مستمرون في استغلال السلطة، وأنه وحده تقريبا في هذه الدنيا يدافع عن المضطهدين والمطاردين، هو الضعيف، الوحيد، الصغير، رفع صوته اليائس إلى السماء، وبكل ما تحمل الرحمة من لوذ انتشائي ختم بيانه: «أيها المسيح، خالق العالم ومِلكه،

هل ترى هذه الأشياء؟ هل تغيرت حقا وصرت غير ما كنت عليه؟ فظيعا وعدوانيا مناقضا لما كنت عليه؟ عندما كنت في الأرض ما كان فيها من هو أرقّ وأعذب. لا أحد تحمل إهانات قدر ما تحملت وغفرتها بلطف. شتموك، بصقوا عليك، استهزؤا بك، كللوا هامتك بالمسامير، بين لصّين صلبوك، وأنت من عمق الإذلال صليّت من أجل الذين ألحقوا بك هذه الإهانات والحقارات. أحقا أنك تغيرت كثيرا هكذا؟ أستحلفك باسم أبيك الأقدس: هل أنت حقا أمرت بأن يضطهد أولئك الذين لم يعملوا تماما بوصاياك وأوامرك بحسب ما تفرضه ديانتك، وبأن يعدموا غرقا، وأن تمزق أجسادهم وتنتزع أحشاؤهم بالكماشة، أن يخضبوا بالملح وأن تقطع رؤوسهم بالسيوف، وأن يتم شواؤهم على نار هادئة ببطء ليطول تعذيبهم قبل الموت؟ هل توافق حقا أيها المسيح على هذه الأشياء؟ هل هم وكلاؤك حقا الذين يرتكبون هذه المذابح التي تهرس الناس وتقطعهم إربا؟ هل أنت هو حقا ذاك الذي يستشهدون باسمه في مثل هذه المجازر الفظيعة، كما لو أن بك جوع لالتهام لحم البشر؟ أذا كنت أنت حقا أيها المسيح الذي أمر بهذه الأشياء، فماذا بقي للشيطان أن يفعل؟ يا للكفر الشنيع! أن تفعل أنت مثل فعله! يا لوقاحة البشر الخسيسة إذ يلقون تبعة هذه الأشياء على المسيح، بينما هي من بدع إبليس وإرادته!».

لو أن سباستيان كاستيليو لم يكتب سوى هذه المقدمة لكتابه «مقالة في الهرطقة»، ولم يكن فيها سوى تلك الصفحات، لتوجب أن يخلد اسمه في تاريخ الإنسانية. إذ كم رفع صوته منفردا، وكم ضئيل هو الأمل بأن تلقى مناشدة كاستيليو المؤثرة أذنا صاغية في عالم تطغى فيه صلصلة الأسلحة على الكلمات وتخطف الحروب القرار الأخير. وبالرغم من أن الديانات والعلوم نادت بالمطالب الإنسانية جميعا مرات لا تحصى فمن الواجب تذكير الإنسانية النسّاءة بها من دون انقطاع. وبتواضع يعلن كاستيليو: «من دون شك لست

أقول ما لم يقله الآخرون من قبل. وليس من المبالغة في شيء أن نقول دائما ما هو حق وما هو عدل، وأن نكرر القول حتى تفرض القيم اعتبارها». وحيث أن العنف يعود إلى الوجود في كل حقبة تاريخية بأشكال جديدة، ينبغي أن يجدد رجال الفكر النضال ضده دائما أيضا. ولا يجوز لهم أن يتهربوا متذرعين بأن العنف الراهن قوي للغاية إلى حد لا يعقل معه أن يقاوم بالكلمة، ذلك أن الكلام الضروري لا يقال دائما بما فيه الكفاية، وقول الحقيقة لا يمكن أن يكون من دون جدوى. حتى لو لم تنتصر الكلمة فهي تثبت وجودها الأبدي، ومن يخدمها في مثل هذا الوقت الحرج، فهو يثبت بذلك من جانبه أن لا سلطة للإرهاب على النفوس الحرة، وأنه حتى في العصور العديمة الإنسانية بضراوة، ما زال هناك مجال لصوت الإنسانية.

* * * * * *

ضمير ينهض ضد العنف

بعض الناس لا يراعون حقوق الآخرين ويحاولون مجابهة آرائهم بالعنف، لكن حين يتعلق الأمر بهم تجدهم الأكثر حساسية تجاه أي اعتراض. وهكذا كالفن أيضا. اعتبر الأمر ظلما منكرا أن العالم سمح لنفسه بأن يجعل إعدام سيرفيت موضوع مناقشة بدلا من أن يحتفي به بالمديح بوصفه فعلا ورِعا يُرضي الله. بمنتهى الجدية، طالب الرجل، الذي بلا رحمة أودى بحياة إنسان آخر حرقا على نار هادئة حتى الموت بسبب اختلاف مبدئي في الرأي، أن يكون التعاطف معه وليس مع الضحية. كتب إلى صديق يقول: «لو اطلعت على عُشْر الإهانات والهجومات التي استهدفتني لتعاطفت مع حالتي المحزنة. لاحقني نباح الكلاب من كل صوب وتراكمت عليّ كل أنواع الشتائم المتخيلة. أبشع من الخصوم المعروفين من جماعة البابا، هم الحساد والحاقدون من صفوفنا، الذين يهاجمونني الآن». بانزعاج أدرك كالفن، أنه برغم الاستعارات من الكتاب المقدس والحجج التي أوردها، لم يكن الناس مستعدين لالتزام الصمت إزاء قتل سيرفيت، وما لبث توتر الأعصاب الناجم عن تأنيب الضمير أن تصاعد إلى نوع من الهلع، خصوصا حين نمى إلى علمه أن كاستيليو وأصدقاءه في بازل، يهيؤون نصًا مضادا لنصه.

أول ما يخطر في بال الشخصية ذات الطبع الاستبدادي هو القمع، الرقابة، وخنق الآراء المضادة. بمجرد أن سمع كالفن أول نبأ حتى هرع الى القمطر وقبل أن يعرف شيئا على الإطلاق عن كتاب «مقالة في الهراطقة»، وقبل

صدوره، ضغط على المجامع الكنسية السويسرية مطالبا أن تمنع هذا الكتاب في كل الأحوال. لا مناقشة بعد اليوم، فقد قالت جنيف كلمتها. كل ما سيقال بعد الآن بصدد حالة سيرفيت يجب أن يعتبر مقدما، ضلالا وعبثا وكذبا وزندقة وكفرا، إذ هو يناقض كالفن. وباجتهاد راح قلمه يخطّ. في ٢٨ آذار/مارس ١٥٥٤ كتب إلى بولينغر[٥٣] أنه في بازل تم طبع كتاب باسم مستعار، وفيه يريد كاستيليو وكوريوني أن يثبتا أن المرء لا ينبغي أن يقضي على الزنادقة بالعنف. مثل هذه النظرية الخاطئة يجب ألا تنتشر، لأن ذلك يعني «الضرر، إذ الدعوة الى التساهل تؤدي إلى رفض العقوبة ضد الهرطقة والتجديف». إذاً فلتختنق رسالة التسامح في مهدها! «إن شاء اللّٰه يتنبّه قساوسة تلك الكنيسة، ولو متأخرا، حتى لا يتوسع انتشار هذا الشر». لكن كالفن لم يكتفِ بهذا النداء وحده، ففي الأيام التالية حذر ثيودور دو بيز، وهو صوت سيده، بإلحاح: «لقد طبعوا اسم ماغدبورغ بجوار عنوان الكتاب، لكن ماغدبورغ هذه تقع، كما أعتقد، على ضفاف الراين[٥٤]. كنت أعرف منذ مدة طويلة أنهم هناك يتهيأون بعناية لفعل شنيع. إني أسأل فقط، ماذا يتبقى حقا من الديانة المسيحية إذا تساهلنا إزاء ما تقيّأ به هذا المنحط في مقدمته».

لكن الوقت أصبح متأخرا، وفي الأثناء سبق صدور المنشور الاستنكار. وحين وصلت النسخ الأولى إلى جنيف تأججت حرائق الذعر المدمرة. كيف؟ كيف اتفق وجود أناس وضعوا الإنسانية أعلى من السلطة؟ أيجب رعاية المخالفين فكريا والتعامل معهم كأخوة بدلا من سوقهم إلى المحرقة؟ أيحق لكل مسيحي، وليس كالفن وحده، أن يأوّل الكتاب المقدس على هواه؟ لكي تغدو الكنيسة بذلك في خطر، ومن المفهوم أن كالفن يعني كنيسته؟ وبعد إشارة واحدة انطلق

(٥٣) Bullinger.

(٥٤) يقصد بازل.

التنديد بالزندقة في جنيف. وصاح أتباع كالفن في كل الأنحاء أن زندقة جديدة تمّ اكتشافها، زندقة خاصة جدا وخطيرة تدعى «البلينوسية» – اللقب الذي أطلقوه على عقيدة التسامح في الدين نسبة الى الاسم المستعار لكاتبها كاستيليو – وفقا لرسولها مارتينوس بيليوس. وبسرعة نادوا إلى إطفاء هذا الحريق الجهنمي قبل أن يعمّ الأرض. وبغضب جنوني صرخ دو بيز ضد مطالب التسامح التي نودي بها لأول مرة، قائلا: «لم يسمع أحد مثل هذا الكفر منذ بدء المسيحية!».

على الفور تشكّل مجلس حربي في جنيف. هل ينبغي الرد أم عدم الرد؟ بولينغر، خليفة تسفينغلي، ثناهم عن ذلك بذكاء، وكان جماعة جنيف رجوه بإلحاح أن يمنع طباعة الكتاب في الوقت المناسب. من زيوريخ أرسل يقول إن الكتاب سيقود نفسه إلى النسيان، ولذلك فمن الأفضل ألا يقوم المرء بشيء ضده. لكن فاريل، ومثله كالفن، وقد ارتفعت حرارة نفاذ الصبر لديه، طالب بالرد العلني. أما كالفن فقد فضل أن يبقى في الصف الخلفي، جراء خبرته المريرة في الدفاع السابق، وكلّف أحد أنصاره الشباب، ثيودور دو بيز، أن يثبت جدارته في علم اللاهوت وأن يكسب امتنان سيده الدكتاتور، بهجوم مدوٍّ ضد عقيدة التسامح «الشيطانية».

شخصيا، كان ثيودور دو بيز رجلا تقيّا وقويم الخلق. ومكافأة لسنوات عديدة أمضاها في خدمة متفانية، سيغدو لاحقا خليفة كالفن. الآن تجاوز كالفن – كما دائما يتجاوز مؤيدُ الفكرة مبدعَها – في حقده المسعور على كل وهن تجاه الحرية الفكرية. إنه مبتدع تلك العبارة المرعبة التي أثقلت اسمه في تاريخ الفكر بصفة الساعي إلى الشهرة بأي ثمن: «حرية الضمير عقيدة شيطانية». لا للحرية! إنهاء البشر بالسيف والنار أفضل بكثير من التساهل تجاه استكبار الفكر المستقل. وقد زعق دو بيز وهو يرغي ويزبد: «أن يكون لدينا طاغية،

وليكن من أقسى الطغاة، أفضل من السماح لكل امريء بالتصرف على هواه.. والزعم بأنه لا يجب معاقبة الزنادقة، يشبه القول بعدم جواز إعدام قاتل أبيه أو أمه، علما بأن الزندقة أشد جرما من سواها بألف مرة». بعد هذه الديباجة يمكن للمرء أن يتخيل درجة الجنون التي بلغها ضيق الأفق المتزمت في ذلك المنشور الناري ضد «البلينوسية». كيف؟ أيتم التعامل في النهاية مع أولئك الغيلان المتنكرين في زي بشر بالإنسانية؟ لا! الانضباط أولا ومن ثم تأتي الإنسانية! عندما يتعلق الأمر «بالعقيدة» لا يجوز للقائد أن ينساق وراء انفعالات الإنسانية، بأي حال من الأحوال وبأي ثمن كان، إذ أن مثل هذه الرحمة شيطانية وليست مسيحية. إنها المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي نلتقي فيها بهذه النظرية النضالية: الإنسانية — الضارية كما يسميها دو بيز — جريمة ترتكب ضد الجنس البشري الذي لا يمكن قيادته صوب أهداف إيديولوجية إلا بالانضباط الحديدي والقسوة التي لا هوادة فيها. «لا يحق لأحد أن يحمي بضعة ذئاب مفترسة مع المخاطرة بتسليمهم القطيع المسيحي بكامله. خسئت تلك الشفقة المزعومة التي هي في الحقيقة أفظع الفظائع» هكذا صاح دو بيز في هجومه المتعصب على البلينوسيين وناشد السلطات «أن تضربهم بالسيف لأجل الفضيلة».

هذا الرب نفسه الذي ناشده كاستيليو بحرارة الإيمان الرحمة من أجل أن تنتهي المجازر الوحشية، توسل إليه قسيس جنيف بحقده بحرارة مماثلة، من أجل ألا تتوقف المذابح «أن يهب أمراء المسيحية ما يكفي من الصلابة وكبر النفس لكي ينهوا وجود الجناة تماما». لكن حتى سحق المخالفين فكريا، يبدو غير قاس بما فيه الكفاية في نظر دو بيز المتعطش للثأر الروحي. لا يكفي قتل الزنادقة، بل يجب أن يكون إعدامهم بأشد التعذيب الممكن. ومسبقا يجد دو بيز الأعذار لكل عمليات التعذيب المتخيلة الآتية بالإشارات الورعة التالية: «إذا

كان من الواجب أن يكون عقابهم على قدر جرائمهم، فإنني أعتقد أن المرء لن يجد وسيلة تعذيب تناسب الحجم الهائل للآثام التي ارتكبوها».

ما أبشع أن تستعاد أناشيد الرعب هذه، ومثل تلك الذرائع الشرسة المضادة للإنسانية! ومع ذلك، فمن الضروري أن يتم تحديدها وتسجيلها حَرْفيا، لكي يتم إدراك الخطر الذي كان من الممكن أن يتعرض له العالم البروتستانتي، لو أنه ترك نفسه ينساق فعلا وراء نهم الحقد لدى المتعصبين في جنيف نحو محاكم تفتيش جديدة، ولكي يقدّروا أيضا مدى الشجاعة والرزانة اللتين تحلى بهما أولئك الذين وقفوا عائقا في وجه المسكونين بجنون الزندقة، والحق يقال مجازفين بحياتهم. ولكي يتم «إبطال أذى» فكرة التسامح في الوقت المناسب، وضع دو بيز في منشوره الهجائي المطالب الجبروتية وهي أن كل صديق للتسامح، كل محام عن «البلينوسية» سيتمّ التعامل معه على أنه زنديق «عدو للديانة المسيحية»، وهذا يعني أنه سيحرق. «يجب أن تطبق بحقهم مادة في العقيدة هي التي أسوّغها هنا، ومفادها أن كل زنديق وكافر يجب أن تعاقبه السلطات». ولكي يكون واضحا أمام كاستيليو وأصدقائه، ماذا ينتظرهم إذا استمروا في دفاعهم عن الملاحقين بسبب نواياهم، لوّح دو بيز بقبضته مهددا أن الأسماء المستعارة ومكان الطباعة المزعوم الملفق لن «تخلّصهم من الملاحقة، لأن كل واحد يعرف من أنتم وما هي نواياكم. إنني أحذركم في الوقت المناسب، أنت يا بلينيوس وأنت يا مونفور وسائر الرهط التابع لكما».

الأمر واضح: هجائية دو بيز تبدو ظاهريا نقاشا أكاديميا، بيد أن المعنى الحقيقي فيها يكمن في ذلك التهديد. يجب أن يعلم المدافعون المقيتون عن الحرية الروحية أنهم في كل دعوة إلى الإنسانية يعرضون حياتهم للخطر. وفي لهفته إلى جعل رئيسهم سباستيان كاستيليو يفقد الحذر، استفزّ دو بيز أشجعَ الرجال متهما إياه بالجبن. قال مستهزئا: «إن الذي عادة يتصرف بمنتهى

الشجاعة والإقدام، يبدو في هذا الكتاب الذي لا يتكلم سوى عن الرحمة والرأفة، هو جبان لدرجة أنه يخاف أن يطل برأسه مكشوفا، ولا يتحرك إلا متنكرا ومتقنعا». لعله أمل في أن كاستيليو إزاء خطر افتضاح اسمه وأمره سوف يتوارى حذرا. لكن كاستيليو قبل التحدي. الرجل الشغوف بمحبة السلام اضطر إلى اقتحام الحرب المفتوحة، خصوصا وأن جماعة المتزمتين في جنيف تريد أن ترفع فعلها الذميم إلى مستوى العقيدة والممارسة. أدرك أن الساعة الحاسمة قد حانت. إذا لم تبلغ جريمة مقتل سيرفيت إلى محكمة الإنسانية جمعاء في أعلى درجاتها من أجل القرار الأخير، فلسوف ينطلق اللهب من هذه المحرقة إلى مئات بل آلاف المحارق الأخرى. وما اعتبر حتى اليوم جريمة قتل وحيدة، سيتحول إلى مبدأ قانوني للقتل ثابت كالصخر. بحسم رمى كاستيليو شغله الأدبي والفكري جانبا، لكي يكتب نصا مماثلا لـ«إني أتهم» في زمانه[٥٥] وفيه يتهم جان كالفن بنيّة القتل الديني المرتكب في ساحة شامبيل ضد ميغيل سيرفيت. هذا الاتهام العلني، برغم أنه موجّه ضد شخص واحد بعينه، كالفن، فهو بفضل قوته الأخلاقية سيغدو واحدا من أروع نصوص النضال ضد كل محاولة لاستخدام العنف ضد الكلمة بسلاح القانون، وضد النوايا بسلاح العقيدة، وضد الضمير المولود حرا إلى الأبد باستخدام العنف المهين الأبدي.

منذ أعوام يعرف كاستيليو خصمه جيدا، وبالتالي يعرف مناهجه. ويعلم تماما أن كالفن سوف يفسّر كل هجوم على شخصه على أنه ضد «عقيدة» الدين بل وضد الله. لذلك حرص كاستيليو منذ البداية على أن يوضح أنه في نصّه «معارضة منشور كالفن الهجائي» لن يتناول نظريات سيرفيت بالدفاع ولا بالإدانة، وأنه في كل الأحوال لا يريد الانزلاق إلى المسائل الدينية أو التأويلية،

(٥٥) إشارة إلى نص أميل زولا الشهير.

إنما يريد فقط إقامة الدعوى ضد رجل، جان كالفن، قتل رجلا آخر، ميغيل سيرفيت. وبتصميم ثابت على ألا يسمح من البداية بأدنى تشويه مصطنع للحقائق، عرض، كما رجل القانون، القضية التي ينوي التبحر فيها بدءا من الكلمات الأولى في المقدمة. بدأ نصه الاتهامي قائلا: «يتمتع جان كالفن اليوم بسلطة كبيرة، وأتمنى له أن تكون أكبر، بيد أني أريد أن أراه ممتلئا بالخلق اللطيف. لكن فعله الأخير كان إعداما دمويا وتهديدا للعديد من البشر الأتقياء. لذلك أخذت على عاتقي، أنا الذي يمقت هدر الدماء، أن أميط اللثام عن نواياه أمام العالم وبعون الله، وأن أعيد - على الأقل - بعض الذين قادهم إلى الضلال بآرائه الخاطئة، إلى الطريق القويم.

في السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر من العام الماضي، **١٥٥٣**، تم إعدام الإسباني ميغيل سيرفيت حرقا في جنيف بسبب قناعاته الدينية، وذلك بتوجيه من كالفن قسيس الكنيسة القائمة هناك. أثار هذا الإعدام احتجاجات عديدة، خصوصا في إيطاليا وفرنسا. وكإجابة على هذا التذمر، بادر كالفن إلى إصدار كتاب يبدو ظاهرا فيه تزويق المعلومات ببراعة، إذ هو يهدف إلى أن يبرر أفعاله بنفسه، وأن يكافح سيرفيت، وفوق هذا وذاك، أن يثبت أنه كان يستحق عقوبة الإعدام. هذا الكتاب أريد أن أتناوله بالتمحيص النقدي. وكما هي عادته، ربما أطلق كالفن عليّ أني تلميذ سيرفيت، لكن لا يخدعنّ ذلك أحدا. أنا لا أدافع أبدا عن نظريات سيرفيت، لكني أهاجم نظريات كالفن الخاطئة. تماما أضع جانبا كل مناقشة حول الثالوث الأقدس والمعمودية، وكل المسائل التي من هذا النوع. إلى ذلك، فأنا لا أملك كتب سيرفيت لأن كالفن أحرقها، وبالتالي فأنا لا أعرف الأفكار التي تضمنتها. إنما في نقاط أخرى لا ترتبط بمثل اختلافات الرأي المبدئية هذه، سوف أعرض أخطاء كالفن، وبوسع كل امرىء أن يرى من هو هذا الرجل الذي أفقده الدم

صوابه. لن أتصرف تجاهه كما تصرف هو إزاء سيرفيت الذي أودى به إلى الحرق حيّا ومعه كتبه، والآن والرجل قد مات، راح يذمّه أيضا. وإذا كانت لديه الوقاحة، بعدما أحرق المؤلف وكتبه، أن يحيلنا إلى هذه الكتب وقد استشهد ببعض صفحاتها، فإن هذا التصرف يشبه سلوك مشعل الحرائق الذي، بعدما أحال البيت كله إلى رماد، يطالبنا بأن نعاين الأثاث في بعض الغرف. فيما يخصنا لم نحرق أبدا مؤلِّفا، ولا كتابا. الكتاب الذي نناهضه، بوسع أيّ كان أن يقرأه. متوفر منه طبعتان، واحدة باللاتينية والثانية بالفرنسية. وحتى لا يصبح الاعتراض ممكنا، سوف أرقّم دائما كل فقرة سوف أوردها، وسأضع أمام جوابي عليها الرقم المماثل ذاته».

لا يمكن للمرء أن يدير مناقشة بطريقة أصدق من ذلك. كالفن عرض في كتابه المطبوع وجهة نظره بوضوح. هذه الوثيقة التي في متناول الجميع استخدمها كاستيليو كما يستند قاضي التحقيق على محاضر أقوال المتهم. أعاد كتابة كتاب كالفن بكامله كلمة كلمة، حتى لا يمكن لأحد أن يزعم أنه في مكان ما زوّر رأي خصمه أو حتى بدّله. ولكي ينتزع الشك من ذهن القاريء مسبقا في أنه شوّه نص كالفن عبر اختصارات متعمدة، أعطى لكل جملة في كتاب كالفن رقما. وهكذا فإن الدعوى الروحية الثانية في مسألة سيرفيت سوف تدار بطريقة أصدق بكثير من الأولى التي تمت في جنيف، حيث قبع المتهم مرتعشا مسجونا في قبو وقد حرم من أيّ محام أو شاهد. بحرية وتحت أنظار العالم الإنساني بأسره سوف يتمّ البتّ في قضية سيرفيت هنا بقرار أخلاقي.

الوقائع واضحة وغير قابلة للنزاع. الإنسان الذي أعلن بالصوت المسموع فيما ألسنة اللهب اندلعت في جسده أنه غير مذنب، قد أعدم بطريقة فظيعة بناء على توجيهات كالفن وأوامر مجلس مدينة جنيف. والآن يطرح كاستيليو

الأسئلة الحاسمة : أيّ ذنب ارتكب ميغيل سيرفيت حقا؟ كيف جاز لجان كالفن، الذي لا يشغل منصبا رسميا، وإنما روحيا فقط، أن يحيل قضية لاهوتية صرفة إلى مجلس المدينة؟ هل لمجلس المدينة الحق في إدانة سيرفيت بسبب ذلك الخطأ المزعوم؟ استنادا إلى أيّ سلطة ووفق أيّ قانون تمّ النطق بحكم الإعدام على ذلك اللاهوتي الأجنبي؟

بشأن السؤال الأول، بحث كاستيليو في المحاضر، وفي تصريحات كالفن، لكي يتبيّن في البداية بأيّ ذنب اتهم كالفن ميغيل سيرفيت. لم يجد أيّ اتهام سوى أن سيرفيت في رأي كالفن «أقدم بطريقة وقحة على تأويلات للإنجيل وانساق وراء رغبة لا تفسَّر لإجراء التجديدات». إذًا كالفن لا يتهم سيرفيت بأيّ جريمة أخرى سوى أنه مارس طريقة إستقلالية ومتحررة في تفسير الإنجيل وبالتالي توصل إلى نتائج أخرى غير المنصوص عليها في تعاليم كنيسته هو. هنا بادر كاستيليو إلى التصدي. هل كان سيرفيت الوحيد في مجال الكنيسة الإصلاحية الذي مارس مثل هذا التفسير المتحرر للأناجيل؟ ومن يجرؤ على الزعم أنه بذلك وقف في وجه المعنى الحقيقي للعقيدة الجديدة؟ ألم يكن التأويل الذاتي أحد المطالب الأساسية للإصلاح؟ وهل فعل قادة الكنيسة الإنجيلية شيئا سوى ممارسة ذلك التفسير الجديد بالقول والكتابة؟ أوليس هو كالفن، وكالفن بالذات مع صديقه فاريل، الذي كان الأجرأ والأكثر حسما إبان عملية التحول وإعادة البناء في الكنيسة؟ «ليس فقط أنه استرسل في التجديدات بإفراط حقيقي، وإنما أيضا، أنه فرضها بطريقة معينة تجعل مخالفته من الخطورة بمكان. في الواقع، أحدث تجديدات خلال عشر سنوات، فاقت ما قامت به الكنيسة الكاثوليكية في ستمئة سنة». وإذا كان يحق لأحد في الكنيسة البروتستانتية أن ينعت التفسير الجديد بالجريمة وأن يدينه، فمن المؤكد أنه ليس كالفن، الأجرأ بين الإصلاحيين.

لكن انطلاقا من عصمته عن الخطأ التي يعتبرها من البديهيات، اعتبر كالفن آراءه هي الصحيحة وكل الآراء الأخرى خطأ. هنا بادر كاستيليو بالسؤال الثاني: من نصّب كالفن قاضيا يبتّ في أمر الحق والباطل؟ «طبعا كالفن ينعت الكتاب الذين لا يرددون عقيدته من ورائه كالببغاوات بأصحاب النوايا السيئة. ولذلك طالب بإعاقة كتاباتهم وكلامهم أيضا، حتى يغدو هو المالك الوحيد للحق في أن يفصّل ما يراه صحيحا». وهذا ما يريد كاستيليو أن يعارضه الآن وإلى الأبد، أي أن يكون بوسع أيّ إنسان أو حزب إدعاء القول: نحن وحدنا لدينا الحقيقة، وكل رأي عدا ذلك، ضلال. كل الحقائق، خصوصا الدينية، لها عدة معان وهي قابلة للنزاع. لذلك فمن الوقاحة بمكان أن يتنازع الناس بمثل هذه المكابرة حول الأسرار التي هي ملك الله وحده، وكأن لدينا اطلاع على مخططاته الخفية، وهي الغطرسة بعينها والغش أن نتظاهر بأننا نملك اليقين بشأن أشياء لا نعرف عنها شيئا من الأساس. منذ بدء العالم جاء الأذى من العقائديين الذين يقولون من دون تسامح إن آراءهم ومفاهيمهم هي الجديرة الوحيدة. وحدهم أولئك المتعصبون أحاديو التفكير وأحاديو التدبير يربكون السلام في الكون عبر لذة النزاع الاستبدادية، ويحوّلون التجاور الطبيعي للأفكار إلى تضاد وإلى نزاع قاتل. الآن يتهم كاستيليو كالفن باعتباره محرّضا على عدم التسامح الروحي: «كل طائفة تبني عقيدتها على كلام الله، وكل واحدة تعتبر أن عقيدتها هي الصحيحة. وبحسب مفهوم كالفن، ينبغي أن تضطهد كل طائفة، الأخرى. ومن المفهوم أن كالفن يعتبر عقيدته هي الصحيحة. والآخرون يزعمون الشيء ذاته. يقول إن الآخرين يخطئون، والآخرون يقولون الشيء نفسه عنه. كالفن يريد أن يكون الحكَم، والآخرون أيضا. كيف يمكن إذًا اتخاذ القرار؟ لكن من الذي نصّب كالفن كبير القضاة يحكم على الآخرين وله الحق الحصري في فرض عقوبة الإعدام؟ على أيّ

شهادة يستند في احتكاره القضاء؟ هل يملك كلمة الله؟ الآخرون يزعمون ذلك أيضا. أم لأن عقيدته غير قابلة للجدل؟ في أعين من؟ عينيه هو، كالفن؟ لماذا إذاً كتب العديد من الكتب ما دامت الحقيقة التي يبشّر بها هي، في الحقيقة، جليّة تماما؟ لماذا لم يكتب كتابا واحدا ليثبت مثلا أن القتل، أو الزنى، جريمة؟ لأن هذه الأشياء واضحة للجميع. إذا كان كالفن قد اخترق كل الحقائق الروحية وأماط اللثام عنها، فلماذا لا يجود على الآخرين بقليل من الوقت لكي يدركوها بدورهم؟ لماذا يقمعها إذاً ويسلبهم إمكانية التعلّم؟

الآن ثمة نقطة أولى وحاسمة قد تمّ تحديدها: كالفن استباح لنفسه سلطة قضائية في المسائل الفكرية والدينية وهو لا يملك الحق في ذلك البتة. وكان من المفترض أن يأخذ على عاتقه، إذا اعتبر أن آراء سيرفيت خاطئة، مهمة التنوير والهداية إلى طريق الصواب. لكن بدلا من المناقشة الودية، بادر فورا بممارسة العنف. «أول فعل قمت به السجن. حبست سيرفيت واستبعدت من جلسات الدعوى لا أصدقاء سيرفيت فحسب، بل كل الذين ما كانوا على خصام معه أيضا». لقد مارس مناهج الجدل العتيقة التي كان العقائديون يستخدمونها عندما ينزعجون: يسدّون آذانهم ويكممون أفواه الآخرين. لكن هذا الاختباء الذاتي وراء الرقابة يشي بالتأكيد بانعدام الطمأنينة لدى الأفراد أو النظام. وكأنما استشعر قدره الذاتي، دعا كاستيليو كالفن إلى تحمل المسؤولية الأخلاقية «أسألك يا سيد كالفن، إذا كنت مع شخص ما في دعوى بشأن قضية ميراث، وحصل خصمك من القاضي أن يدعه يتكلم وحده بينما يمنعك أنت من ان تنبس ببنت شفة، أما كنت ثرت ضد الظلم؟ لماذا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعله الآخرون بك؟ نحن هنا في نقاش حول الإيمان، فلماذا تغلق أفواهنا؟ هل أنت مقتنع للغاية من ضعف قضيتك؟ أتخاف كثيرا من أن تهزم وأن تخسر سلطتك كدكتاتور؟».

وبهذا تكون صياغة لائحة الاتهام المبدئية ضد كالفن قد تمّت. لقد أخذ الدعم من السلطة المدنية واستباح لنفسه الحق في أن ينفرد باتخاذ القرار في المسائل الدينية والأخلاقية والمدنية. عدا ذلك، ارتكب سطوا على الحق الالهي الممنوح للبشر والذي قضى بأن يستخدم الإنسان عقله في التفكير المستقل، وفمه في الكلام، وضميره كآخر المراتب الأخلاقية الذاتية. كما أنه ارتكب سطوا آخر على الحقوق المدنية، كونه اضطهد إنسانا وعامله كمجرم شرير لا لشيء سوى اختلاف الرأي.

هنا يتوقف كاستيليو في دعواه لحظة ليستدعي شاهدا. لاهوتي ذائع الصيت سيواجه الداعية جان كالفن ليؤكد أنه من غير المسموح لأيّ سلطة سياسية – بحسب القوانين الآلهية – أن تلاحق الجنايات الروحية. هذا العالم الكبير الذي يعطيه كاستيليو الكلمة الآن، هو – وا وجعتاه – جان كالفن ذاته، ما غيره. تم إقحام هذا الشاهد في النقاش ضد رغبته: «إذ يلاحظ أن كل شيء مضطرب، يسرع كالفن في اتهام الآخرين حتى لا يشتبه به أحد. لكن من الواضح، أنه وحده الذي أوجد هذا الاضطراب خصوصا بسلوكه كمضطهد للآخرين. وحقيقة الأمر، أنه أدّى إلى إدانة سيرفيت، كانت مصدر قلق لا في جنيف وحدها، وإنما في عموم أوروبا، وأربكت كل الدول. والآن يحاول أن يلقي الذنب – الذي ارتكبه هو شخصيا – على عاتق الآخرين. لكن عندما كان هو ضمن الذين عانوا من الاضطهاد، تبنّى كلاما آخر. آنذاك كتب صفحات ضد مثل هذا الاضطهاد. ومنعا للريبة، أنسخ هنا صفحة من كتابه (تعاليم الديانة المسيحية)».

ويورد كاستيليو بعض العبارات من كتاب «التعاليم». عبارات كتبها كالفن المنتمي إلى ذاك الزمان، وبسببها ربما كان كالفن الحالي دعى إلى إحراق مؤلفها. ذلك أن النص الذي كتبه كالفن آنذاك، لا يختلف عن الطرح الذي

يتبناه كاستيليو ضده الآن، في أدنى فاصلة أو نقطة. وفي الطبعة الأولى من «التعاليم» ورد ما نصه حرفيا: «قتل الزنادقة جريمة. جعلهم يموتون بالحديد والنار يعني إنكار كل مباديء الإنسانية». طبعا، بمجرد أن وصل إلى السلطة بادر كالفن إلى شطب شهادة الإيمان بالإنسانية هذه من كتابه. في الطبعة الثانية من «التعاليم» تغيرت وتلاشى التزامها الواضح الحاسم، تماما مثلما حدث في زمن لاحق مع نابليون إذ أصبح قنصلا ثم امبراطورا، فحرص أدق الحرص على أن تفقد إلى الأبد نسخة المنشور ذي الانتماء اليعقوبي الذي كان كتبه في شبابه، ومع زعيم الكنيسة الذي ما إن تحول من حالة المضطهَد إلى حالة المضطهِد، حتى أخفى آثار شهادته السابقة. لكن كاستيليو لا يدعه يهرب. يستعيد أسطرا من «التعاليم» بحرفيتها ويشير إليها بالبنان. «الآن عندما يقارن المرء هذه الشهادة الأولى لكالفن بكتاباته وأفعاله الراهنة، يكتشف أن ماضيه وحاضره مختلفان تماما أحدهما عن الآخر كالنور والظلمة. أما وقد أودى بحتف سيرفيت فهو يريد اليوم أن يقضي على كل الذين يخالفونه الرأي. أنكر القوانين التي سنّها وطالب بالموت... أيعجب المرء الآن من أن كالفن يريد الموت للآخرين خشية أن تُفتَضَح تقلباته وتراجعاته؟ لأنه تصرف بسوء، يخشى الوضوح».

هذه الشفافية هي ما يريده كاستيليو بالذات. ينبغي على كالفن أن يقدم للعالم الآن، ومن دون لبس، وهو الذي كان المدافع عن حرية الرأي، على أي أساس أودى بحياة ميغيل سيرفيت حرقا بأفظع ألوان التعذيب في ساحة السوق العامة في شامبيل. وبلا هوادة يستأنف الاستجواب.

تمّ البتّ بمسألتين. أولا، أن ميغيل سيرفيت لم يرتكب سوى جناية فكرية. ثانيا، إن الانحراف عن التفسير الصالح لا يمكن أن يعتبر جرما عاما. ويسأل كاستيليو، لماذا في مسألة نظرية وتجريدية صرف، دعا كالفن، القسيس في

الكنيسة، السلطات المدنية أن تقمع الرأي المخالف؟ بين العلماء، لا تحلّ الأشياء الفكرية إلا بالأسلوب الذهني. «لو كان سيرفيت حاربك بالسلاح، لكان من حقك أن تطلب عون مجلس المدينة. لكن بما أنه حاربك بالقلم فقط، فلماذا هجمت على كتاباته بالحديد والسيف؟ لماذا اختبأت وراء مجلس المدينة؟». لا سلطة للدولة على الإطلاق في مسائل الضمير الذاتية. «ليس من صلاحيات مجلس المدينة أن يدافع عن النظريات اللاهوتية، وليس للسيف شأن بالعقيدة، فالعقيدة قضية تخصّ العلماء. ولا يجب على مجلس المدينة أن يوفر للعلماء حماية أكثر من التي يوفرها للعامل أو الحرفي أو الطبيب أو أيّ مواطن يتعرض لظلم مادي. إلا إذا كان سيرفيت قد أراد أن يقتل كالفن، ففي هذه الحالة كان مجلس المدينة أحسن التصرف بدفاعه عن كالفن. وحيث أن سيرفيت لم يستخدم في النضال سوى الكتابة والحجج العقلية، فلم يكن من الجائز تحميله المسؤولية إلا بالكتابة والحجج العقلية».

الآن يرفض كاستيليو، بطريقة قاطعة لا تُردّ، محاولات كالفن تبرير فعله بأوامر آتية من العلو، من السماء. في رأي كاستيليو، لا توجد أبدا وصية ربّانية أو مسيحية تأمر بقتل إنسان ما. وإذا كان كالفن يحاول في كتابه أن يستند إلى القانون الموسوي الذي يطالب بأن يقضي المرء على المضللين في الإيمان بالسيف والنار، فإن كاستيليو ينبري للرد عليه بحدة: «لكن بحق الله، كيف سيطبق كالفن ذلك القانون الذي استحضره؟ ألا يتوجب عليه إذًا أن يدمر البيوت والمواشي والأدوات المنزلية في كل المدن؟ وإذا توفرت لديه ذات يوم قوة عسكرية كافية، أفلا ينبغي عليه أن يجتاح فرنسا وكل الأمم التي يعتبرها مارقة، وأن يسّوي مدنا بالأرض، وأن يقضي على البشر، أن يقتل أطفالا ونساء، وحتى أجنّة في أحشاء الأمهات؟». واذا كان كالفن، من أجل تبرير موقفه، يقول إن المرء إذا لم يمتلك الشجاعة لكي يبتر العضو الفاسد، فهذا

يعني فساد هيكل المسيحية، فإن كاستيليو يرد عليه: «إن فصل غير المؤمنين من الكنيسة قضية تخصّ القسيس، وهذا يعني إلقاء الحَرْم على الزنديق وطرده من الطائفة، لكن لا يعني أبدا أخذ روحه». «مثل هذا المطلب، اللاتسامح، لا يوجد في الأناجيل ولا في أي من كتب الأخلاق في العالم. أتريد أن تقول في النهاية، إن المسيح قد علّمك ذبح البشر؟». العبارة الأخيرة رماها في وجه كالفن «الذي كتب منشور الدفاع اليائس هذا ودماء سيرفيت على يديه». وحيث أن كالفن يصرّ على أن يكرر القول دائما إن حرق سيرفيت كان ضروريا من أجل الدفاع عن العقيدة وحماية كلمة الله، ويحاول دائما ودائما، كما كل ممارسي العنف، أن يستدعي مصالح عليا تتجاوز الأفراد والنظام، لكي يبرر عنفه، يردّ عليه كاستيليو بكلمات خالدة: «قتل إنسان لا يعني أبدا الدفاع عن عقيدة، وإنما: قتل إنسان. عندما أعدمت سلطات جنيف سيرفيت، لم تدافع عن العقيدة، بل هي ضحّت بإنسان. ولا يعترف الإنسان بعقيدته إذ هو يحرق إنسانا آخر، بل عندما يرضى بأن يُحرَق فداء لها».

«قتل إنسان لا يعني أبدا الدفاع عن عقيدة، وإنما: قتل إنسان». كلمات خالدة مفعمة بالإنسانية، رائعة في حقيقتها وصفائها. بهذه العبارة اللاذعة في انتقادها نطق كاستيليو حكم اضطهاد الفكر الصالح لكل الأزمنة. كل الذرائع المقدمة أو الملفقة سواء كانت أخلاقية، منطقية، قومية أو دينية من أجل تبرير عملية تصفية إنسان، لا يمكن أن تعفي مرتكب الفعل أو الذي أصدر الأمر من مسؤوليته الشخصية. دائما ثمة مذنب عن إراقة الدم، وليس بوسع أيّ نظرية أن تبرر جريمة. يتوسع انتشار الحقائق لكنها لا تُفرَض عنوة. ما من عقيدة تصبح أصحّ وما من حقيقة تغدو أصدق بالصراخ والتحمّس، ولا هي تسمو بتصنع فوق مجال كينونتها الذاتي عبر عنف الدعاية. بل إن عقيدة ما، ينتقص قدرها حين تضطهد أناسا لا ترضيهم نظريتها. الاقتناع تجارب وأحداث شخصية

لا يتبع إلا الفرد الذي ينتمي إليه. لا يمكن لأحد أن يقتنه أو يجسّده. يمكن لإحدى الحقائق أن تقول إنها تنتمي إلى الله وأن تزعم ألف مرة بأنها مقدسة، فلا شيء يجيز لها البتة أن تقضي على حياة إنسان، هو من مخلوقات الله المقدسة. وفيما يبدي كالفن الدوغمائي المتحزب القليل من الاكتراث إذا هلك أناس، وهم مخلوقات عابرة في الوجود، باسم فكرة يعتبرها هو خالدة، يعتبر كاستيليو كل إنسان يعاني ويموت من أجل الإيمان، ضحية بريئة. وهو يرى السخرة في المسائل الروحية ليست جريمة فحسب، إذ هي جهد لا طائل منه أيضا: «لا نعاملن أحدا بالعنف! فالإرغام لم يجعل الناس أفضل أبدا. الذي يريد أن يرغم الناس على اعتناق عقيدة ما، يتصرف بطريقة لا معقولة، تماما كالذي يريد أن يدخل الطعام إلى فم المريض بالعصى». فلينته قمع آراء الآخرين إلى الأبد. «اسحب أخيرا من رجال الإدارة الحق في استخدام العنف والاضطهاد! أعط كل واحد الحق في الكلام وفي الكتابة، كما أراد القديس بولس، ولن تلبث أن تدرك كم من الأشياء يمكن أن تحققها الحرية على الأرض ما إن تتحرر من السخرة!».

بعدما محّص كاستيليو الوقائع كافة وأجاب على الأسئلة جميعا، نطق بالحكم باسم البشرية المقهورة، ووضع التاريخ توقيعه بالموافقة. رجل يدعى ميغيل سيرفيت، باحث عن الله، طالب يدرس الكتاب المقدس، تم قتله. المتهمون بهذا القتل: كالفن لكونه الأب الروحي لهذه الدعوى، ومجلس مدينة جنيف باعتباره السلطة التنفيذية. أما وقد تمّ فحص الحالة بالمراجعة الأخلاقية، فلقد تبيّن أن المحكمتين الروحية والمدنية قد تجاوزا صلاحياتهما. مجلس المدينة مذنب بسبب هذا الانتهاك، إذ النطق بشأن ارتكابات روحية ليس من مهماته. والأفدح ذنبا هو كالفن الذي كلّفه هذه المسؤولية. «لقد قتل مجلس المدينة إنسانا بناء على شهادتك وشهادات المتواطئين معك. ولم يكن

لدى المجلس الكفاءة للفصل أو التمييز في هذه الحالة، كما لا يقدر الأعمى على التمييز بين الألوان». كان ذنب كالفن مضاعفا: مذنب بسبب التحضير والتنفيذ في هذه الجريمة الفظيعة. وأيًّا كانت الدوافع التي جعلته يلقي بهذا الإنسان إلى المحرقة، فإن فعله كان جريمة. «إما أنك دفعت إلى قتل سيرفيت لأنه يفكّر في ما يقوله، أو لأنه وفقا لقناعته الذاتية يقول ما يفكر به. فإذا كنت أهلكته لأنه عبّر بالقول عن قناعته الداخلية فأنت قتلته بسبب الحقيقة، لأن الحقيقة تعني أن يقول المرء ما يفكر به حتى لو كان خطأً. أما إذا كنت قتلته بسبب قناعته الخاطئة، فلقد كان من واجبك أن تحاول أن تكسبه إلى القناعة الصحيحة، أو أن تثبت له والنص في يدك، أنه يجب إعدام كل الذين على خطأ في الإيمان». كالفن قتل، بوعي قضى على معارض، لذلك هو مذنب، مذنب، مذنب بصدد القتل العمد.

مذنب، مذنب، مذنب، قيلت ثلاثا في الحكم الذي تم نطقه ليدوم في الزمان، وكان لها رنين الأبواق المعدني القوي. الإنسانية، أعلى درجات المحاكم الأخلاقية، أصدرت قرارها. لكن ماذا يجدي إنقاذ شرف الميت، إذ لا توجد كفّارة يمكن أن تبعثه حيًّا. يجدر إنقاذ الأحياء، فعندما يستهجن المرء الفعل اللاإنساني، يحول دون تكرار مثله عددا لا يحصى من المرات. لا يكفي أن يُدان جان كالفن الإنسان وحده، بل يجب إدانة كتابه أيضا ونظريته المرعبة بشأن الإرهاب والقمع. ويوجّه كاستيليو الكلام حادا إلى المذنب: «ألا ترى إلى أين يقود كتابك وأفعالك؟ ثمة كثيرون يزعمون أنهم يدافعون عن شرف الله، لكنهم إذا أرادوا أن يقتلوا الآن بشرا، فسيكون بوسعهم الركون إلى شهادتك. وما تخشى عواقبه، أنهم سيصبحون مثلك، بالدم ملوثين. ومثلك سيقودون إلى الإعدام كل الذين لديهم آراء مخالفة. «ليس المتعصب الفرد خطيرا بحد ذاته، بل روح التعصب المريضة. لا يكفي أن يناضل المفكرون ضد البشر المكابرين

والمتعطشين للدماء، بل ضد كل فكرة إذا كان سلوكها إرهابيا (رأي متنبيء قبيل اندلاع حرب الأديان التي دامت مئة عام). «حتى أفظع الطغاة لم يسفكوا بمدافعهم من الدماء، أكثر مما أهدرتم أنتم من خلال تحريضكم الوحشي، ولسوف تهدرون المزيد في المستقبل، إلا إذا رأف الله بالبشر وفتح عيون الأمراء والسلطات لكي يرفضوا في النهاية الأشغال الدموية». وكما خلال دعوته الرقيقة إلى التسامح، لم يتمالك كاستيليو أن يبقى هادئا تجاه آلام المطرودين والمطاردين، فرفع صوته إلى الله في صلاة يائسة راجيا المزيد من الإنسانية على الأرض، تصاعدت الكلمات في كتابه النضالي إلى لعنة مؤثرة ضد كل الذين دمروا السلام في الأرض بحقدهم المكابر. وبعاصفة الغضب النبيل ضد كل ألوان التعصب، ختم كتابه بنشيد الوداع الكبير: «هذا الاضطهاد الديني الشائن أثار الزوابع في عصر دانيال. وإذ لم يجدوا شيئا في سلوكه اليومي يمكن أن يدينوه على أساسه، قال أعداؤه: إذاً فلنهاجمه في قناعته. هكذا بالضبط يتصرفون اليوم. إذا لم يجد المرء مأخذا على عدوه في سلوكه الأخلاقي، فإنه يلجأ إلى «العقيدة»، وفي هذا دهاء. لأن السلطات إذ لا تملك في هذه الحالة حكما خاصا، تغدو سهلة التأثر. بهذه الطريقة يقمع المرء الناس الأكثر ضعفا، فيما يطلق كلمات «العقيدة المقدسة» بالرنين العالي. آه من «عقيدتكم المقدسة». كم سوف يستفظعها المسيح يوم الحساب الأخير! سوف يطالب بكشف حساب عن نمط العيش لا عن العقيدة. فإذا قلتم له «سيدنا.. كنا معك، وعلّمنا بحسب مفهومك»، سيجيبكم قائلا: «أغربوا عن وجهي، أيها المجرمون!».

يا عميان البصر والبصيرة، أيها المتعطشون للدماء والمنافقون بلا أمل في الشفاء! متى ينتهي بكم الأمر إلى أن تعترفوا بالحقيقة، ومتى يتوقف القضاة المدنيون عن هدر دماء البشر عملا بطاعة عمياء لجبروتكم؟!».

* * * * * *

العنف يقضي على الضمير

نادرة هي الكتابات المناهضة الحاسمة ضد طاغية روحي. وربما لم تكن إحداها بمثل زهو الشغف الذي صاغ به كاستيليو نصّه «معارضة منشور كالفن الهجائي». بوضوحها وصدقها ينبغي أن تعلم اللامبالين في زمانهم أن حرية الفكر في البروتستانتية، وبالتالي في الروح الأوروبية، ستغدو مفقودة إذا لم يتخلصوا في الوقت المناسب من محاكم التفتيش على الرأي التي تديرها جنيف. ومع أخذ الاحتمالات كافة بعين الاعتبار، كان من المتوقع أنه بعد الأدلة التي يتعذر دحضها بشأن حالة سيرفيت والتي قدمها كاستيليو، أن العالم الأخلاقي سيوقّع بالموافقة، وبالإجماع، على حكم الإدانة. الرجل الذي أُمسك به من خناقه وطرحه أرضا، يبدو منتهيا إلى الأبد. كما بدا منشور كاستيليو بمثابة ضربة قاضية لعناد كالفن وتزمّته.

في الواقع، لم يحدث شيء. نصّ كاستيليو الباهر ونداؤه الرائع من أجل التسامح لم يكن لهما أدنى تأثير في العالم الواقعي، لسبب بسيط وفظيع وهو أن «معارضة منشور كالفن» لم يكتب له أن يُطبع أساسا. لأن الرقابة أجهضت هذا الكتاب مسبقا بأمر من كالفن، قبل أن يتسنى له أن يوقظ ضمير أوروبا من رقاده.

لم تكد بعض المقاطع تنتشر في دوائر موثوق بها للغاية في بازل، حتى كان قرار منع الطباعة قد صدر. في اللحظات الأخيرة تبلغ أصحاب السلطان في جنيف من زبانيتها أن كاستيليو يهيء هجوما على السلطة. على الفور بدأ الهجوم عليه دفعة واحدة. وفي مثل هذه المناسبات يتجلّى بشكل مخيف

التفوق الساحق لتنظيم الدولة ضد الفرد الواحد. يبقى مسموحا لكالفن، الذي ارتكب فعلا لاإنسانيا، إذ سام رجلا مخالفا لرأيه أفظع أنواع التعذيب ثم أحرقه حيّا، أن يدافع عن جريمته بفضل انحياز الرقابة، بينما يصبح كاستيليو الذي يريد أن يرفع صوته باسم الإنسانية، ممنوعا من الكلام. على أنه لم يكن لدى مدينة بازل أي سبب لتمنع مواطنا حرا وأستاذا في جامعتها من الجدل الأدبي. لكن كالفن، القدير في التكتيك والتطبيق، استخدم الرافعة السياسية ببراعة. حيكت قضية دبلوماسية: ليس كالفن بما يمثل شخصيا، وإنما مدينة جنيف، هي التي تقدمت بشكوى رسمية بشأن اعتداء على «العقيدة». وبهذا أصبح مجلس مدينة بازل، وجامعتها، أمام اختيار مؤلم: إما أن يمنعوا كاتبا حرا من التعبير وإما أن يخوضوا صراعا دبلوماسيا مع مدينة جنيف القوية. وكما دائما، تفوز الاعتبارات السياسية على الأخلاق. فضّل أعضاء المجلس التضحية بالإنسان الفرد وأصدروا قرارا بمنع أيّ كتاب من النشر إذا لم يكن مطابقا حرفيا للعقيدة. وبذلك منع كتيب كاستيليو «معارضة منشور كالفن الهجائي» من الصدور، وأصبح بوسع كالفن أن يهلل قائلا: «من حسن الطالع، أن الكلاب التي تنبح خلفنا، لم يعد بمقدورها أن تعضّنا».

كما سيرفيت بالمحرقة، كذلك كاستيليو أخمد صوته بالرقابة. مرة أخرى أنقذ الإرهاب «السلطة». عُطّلت يد كاستيليو الفاعلة. لم يعد مسموحا للكاتب أن يكتب. بل وثمة ما هو أكثر ظلمة وأكثر ظلما: لم يعد ممكنا أن يدافع عن نفسه إذا هاجمه الغضب المضاعف من خصومه المزهوين بالنصر. كان على كتيب «معارضة منشور كالفن الهجائي» أن ينتظر نحو مئة سنة حتى تتم طباعته لأول مرة. وما كان كاستيليو قاله في كتيبه أصبح حقيقة مرعبة: «لماذا تفعل بالآخرين ما لا تسمح بأن يفعله الآخرون بك؟ نحن هنا في قضية حول الإيمان، فلماذا تغلق أفواهنا؟».

بيد أن ضد الإرهاب لا قانون ولا قضاة. حيث سيطر العنف مرة لا درجة استئناف للمهزومين، فالإرهاب هو درجة البداية وهو درجة التمييز النهائية. توجّب على كاستيليو أن يرتضي بالاستسلام المأسوي وأن يكابد الظلم. لكن التعزية التي تبقى في كل تلك العصور التي تفوّق فيها العنف على الفكر، تتمثل في الاحتقار الكلي الذي أبداه لهم : «كلماتكم وأسلحتكم هي خاصة الطغيان الذي به تحلمون، وهي زمنية زائلة وليست روحية، كما أنها ليست مؤسسة على محبة الله وإنما على الإكراه. من جهتي لا أحسدكم على سلطتكم ولا على أسلحتكم. لدي سواها : الحقيقة، والشعور بالبراءة، واسم الذي يعينني ويسبغ عليّ الرحمة. وحتى لو قمعت الحقيقة لفترة زمنية من القاضي الأعمى، الذي هو العالم، فلا يملك أحد أن يمارس العنف عليها. لندع جانبا حكم هذا العالم الذي قتل المسيحية ولا نولينّ اهتماما بمحكمته التي لا يربح أمامها إلا قضية العنف. إن مملكة الرب الحقيقية ليست من هذا العالم».

مرة أخرى انتصر العنف. وما يجعل الأمر أكثر مأسوية، أن سلطة كالفن تجاه الغير لم تتزعزع بسبب فعله الشنيع، بل أضحت أقوى بطريقة مذهلة. ولا فائدة ترجى من البحث في مجال التاريخ عن الأخلاق الورعة والعدالة المثيرة للدموع كما يقرأ المرء في الكتب المدرسية. يجب أن نخضع : التاريخ، الظل الدنيوي للفكر العالمي، لا يتعامل أخلاقيا أو لاأخلاقيا. لايعاقب السيئات ولا يكافيء الحسنات. ولأنه بالنتيجة يستند على العنف وليس على الحق، فهو يحيل الامتيازات في أغلب الأحيان إلى أصحاب السلطة. وفي الصراعات الراهنة، لا تغدو القرارات الوحشية والوقاحة التي لا رادع لها أشياء مزعجة ، بقدر ما تصبح مزايا لصالح المذنبين أو المجرمين.

حتى كالفن، الذي هوجم بسبب قساوته، أدرك أن شيئا واحدا يمكن أن ينقذه، ألا وهو المزيد من القسوة، والعنف بلا هوادة. دائما تثبت تلك القاعدة

العامة صحتها، وهي أن الذي مارس العنف مرة عليه أن يستمر في الممارسة، وأن من بدأ الإرهاب ليس عنده إمكانية أخرى سوى أن يصعّده. المقاومة التي لقيها كالفن، أثناء قضية سيرفيت وبعدها، قّوت القناعة الموجودة لديه بأن القمع القانوني والترهيب الصرف للخصوم غير كافيين لتأمين الحكم السلطوي، أما الشيء الوحيد الذي يضمن شمولية السلطة فهو التصفية الكاملة لكل معارضة. في البداية، كان كالفن مكتفيا بكونه شلّ الأقلية الجمهورية في مجلس مدينة جنيف بالطرق الشرعية، حيث أنه طوّع النظام الانتخابي لصالحه بأسلوب غير مرئي. في كل جلسة لمجلس الطائفة كان بروتستانتيون لاجئون جدد من فرنسا – وهؤلاء مرتبطون ماديا ومعنويا بكالفن أيّما ارتباط – يصبحون مواطنين في جنيف، وبالتالي تنضم أسماؤهم إلى لوائح الناخبين. وجلّ الوظائف أسند إلى الموالين بطاعة عمياء، وبالتالي أعدم تأثير النبلاء الهرمين الجمهوريين. لكن هذا الميل إلى التغليب المنهجي للغرباء لن يلبث أن يكون واضحا تماما لعيان أهل جنيف الأقحاح. الديمقراطيون الذين سكبوا دماءهم من أجل حرية جنيف، بدأوا – ولو متأخرا – يقلقون. عقدوا الاجتماعات السرية، وتشاوروا فيما بينهم كيف يمكنهم أن يصونوا البقية الباقية من الاستقلال في مواجهة شهوة السلطة لدى الطهريين. تملك الغيظ من آراء الناس وأخذ في الازدياد. في الشوارع اندلعت مشاجرات عنيفة بين أبناء جنيف المولودين فيها وبين اللاجئين، تطورت إلى اشتباكات بالأيدي. على أي حال أسفرت خناقة صغيرة عن جريحين، فقط لاغير، أصيبا إثر قذف الحجارة.

لكن كالفن لم يكن لينتظر سوى مثل هذه الذريعة. الآن أصبح بوسعه أخيرا أن ينفّذ الانقلاب الذي خطط له من أمد بعيد، والذي يضمن له شمولية السلطة. فورا سوف تتحول خناقة الشارع الصغيرة إلى «مؤامرة مرعبة» لم تفشل إلا بفضل «العناية الآلهية». (دائما في مثل هذه الممارسات المقيتة

تستخدم الأخلاق المزيفة والتظاهر بالتدين المصحوب بالنظرات الخاشعة). دفعة واحدة اعتُقل قادة الحزب الجمهوري، الذين لم يكن لهم أيّ شأن بهذا الاشتباك، وذاقوا التعذيب الوحشي إلى أن أدلوا جميعا بإفادات، يحتاج إليها الدكتاتور لبلوغ هدفه: كانت هناك خطة لتنفيذ ليلة بارتولومية، فيها يغتال كالفن وجماعته وتقتحم الفرق الأجنبية المدينة. وبناء على هذه «الاعترافات» التي انتزعت بالتعذيب الفظيع حول «التمرد» المخطط له، وعلى «خيانة الوطن» المفبركة، أصبح بوسع الجلاد أن يبدأ عمله. كلهم أعدموا، حتى الذين لم يبدُ منهم سوى اعتراض بسيط. ولم ينجُ إلا الذين لاذوا بالفرار. كانت ليلة واحدة كافية، ومن بعدها لم يبقَ في جنيف أي حزب آخر سوى الكالفني.

بعد هذا الانتصار المطلق، وبعد هذا الإلغاء الراديكالي لآخر معارضيه في جنيف، أصبح بوسع كالفن الآن أن يكون مطمئنا وأن يتكارم بالتساهل إزاء الآخرين. لكننا نعرف أنه منذ ثيوقليدس واكزينوفون وبلوتارخ، وفي كل الأزمنة، تزيد درجة عدم التسامح عند الأوليغارشيين بعد الانتصار. وهي مأساة كل الطغاة إذ يظلون يخشون الإنسان المستقل حتى بعدما يخمدون صوته، وبعدما يفقدونه القدرة السياسية. لا يكفيهم أنه صمت وأنه ملزم بالبقاء صامتا. بمجرد أنه لا يقول «نعم»، ولا يخدم ولا ينحني، وأنه لم يصطف بحيوية ضمن جماعتهم الخدم والمداهنين، فإن وجوده الحالي والتالي يصبح مزعجا لهم. ولأن كالفن منذ الانقلاب العنيف صفّى خصومه السياسيين جميعا، لم يبقَ سوى ذلك الخصم الفكري، لذلك حوّل كامل ولع الكفاح لديه، وبكل قواه المتنوعة، ضد سباستيان كاستيليو.

في هذا الهجوم، تمثلت الصعوبة الكبرى في جعل العالِم المحبّ للسلام، يخرج من صمته الأكيد. وكان كاستيليو من جهته قد تعب من هذا النزاع المفتوح. الإنسانيون والمتأثرون بإيرازموس ليسوا من المناضلين الدائمين. في

نظرهم، يبدو الإلحاح الذي يميّز الحزبيين المتعصبين وأنصارهم الدعاة المثابرين، غير جدير بالمثقفين. إنهم يعرّفون بالحقيقة كما يرونها. وبمجرد أن يعلنوا نظريتهم، تصبح الرغبة في إقناع العالم بهذه الحقيقة، وبأنها الوحيدة والصحيحة، وبأسلوب الدعائية المعتمد على الإعادة والتكرار، مبالغة لا طائل منها في نظرهم. في قضية سيرفيت قال كاستيليو كلمته، وتولّى الدفاع - برغم المخاطر كافة - عن المضطهدين، وعارض بحسم تام استخدام العنف ضد الضمائر، ولم يكن له نظير في ذلك بين معاصريه. لكن الوقت لم يكن مؤاتيا بعد لقول كلمته الحرة، لأنه رأى أن العنف قد انتصر أقلّه لفترة من الزمن. لذلك قرر أن ينتظر الفرصة المناسبة ليكون بدء الصراع فيها بين التسامح واللاتسامح ممكنا. محبطا حتى الأعماق - لكن من دون أن يحيد عن قناعاته - عاد إلى أشغاله السابقة. أخيرا، أسندت إليه الجامعة مهمة التدريس، وأخيرا دنا من الانتهاء من مشروع عمره، أي ترجمة الكتاب المقدس إلى لغتين (اللاتينية والفرنسية). وفي عامي ١٥٥٥ و١٥٥٦ لزم كاستيليو الصمت التام وكفّ عن الجدل بعدما انتُزع سلاح الكلمة من يده.

عبر العملاء نما إلى علم كالفن وحاشيته في جنيف أن كاستيليو يعرض آراءه الإنسانية في أوساط ضيقة في الجامعة، وأنه بعد منع يده من الكتابة لم يغلق فمه. وبمرارة لاحظ قادة حملة اللاتسامح أن مطالب كاستيليو المقيتة بالتسامح، وحججه التي لا تقبل الجدل بشأن نظرية الجَبْرية (الكالفنية) تلقى تجاوبا متزايدا من الطلبة. والإنسان ذو الأخلاق العالية يغدو مؤثرا بمجرد وجوده، كون شخصيته بحد ذاتها تبتكر مجالا مقنعا. وحتى لو كان، في الظاهر، محصورا في دائرة ضيقة، ينزرع هذا التأثير ويمتد إلى أبعد مدى، كالموجة من دون أن يلاحظ أحد حركتها ومن دون أن يوقفها أحد. وحيث أن كاستيليو يبقى هكذا خطيرا ولا يريد الخضوع فلا بد من تحطيم تأثيره في الوقت المناسب. بكثير

من الحيل تم نصب الفخاخ له بقصد إيقاعه في شرك معركة مكافحة الزندقة، وتطوّع أحد زملائه في الجامعة ليكون العميل المستفزّ. توجّه إلى كاستيليو برسالة ودية للغاية كما لو أن الأمر يتعلق بمسألة لاهوتية صرفة، ورجاه أن يشرح له رأيه في عقيدة الجبرية. أعرب كاستيليو عن استعداده للنقاش العلني العام. لكن ما إن بدأ كلماته الأولى حتى نهض من بين الحضور مستمع اتهمه بالزندقة. وأدرك كاستيليو على الفور النيّة المبيّتة. بدلا من الخوض في السؤال المطروح والدفاع عن نظريته (وبهذا يحصلون على مواد كافية للإتهام) قطع المناقشة وحال زملاؤه في الجامعة دون اتخاذ إجراءات ضده. بيد أن جنيف لم تترك الأمور تمر ببساطة هكذا. بعد فشل هذه الحيلة الغادرة، تمّ تغيير المنهج بسرعة. ولما كان كاستيليو لم ينزلق إلى استفزاز النقاش بدأت محاولة استثارته من طريق الشائعات والمناشير. ثمة من سخر من ترجمته للكتاب المقدس، وثمة من جعله مسؤولا عن منشورات مهينة مجهولة المؤلف، ثمة من نشر الوشايات المقيتة في الأنحاء كافة، وكل ذلك انهال عليه دفعة واحدة من الاتجاهات جميعا كأنما وفقا لإشارة واحدة.

لكن هذه المبالغة في الاندفاع بالذات جعلت كل المحايدين يدركون في الأثناء أن ذلك العالِم الكبير الصادق الورع، بعدما سلبوه حرية الكلام يتجهون الآن إلى سلبه حياته. هذا الاضطهاد الغادر يجلب للمضطهد أصدقاء من كل صوب. فجأة وعلى غير انتظار وقف ميلانكتون، أبو الإصلاح في ألمانيا إلى جانب كاستيليو بطريقة بيّنة. هو أيضا، كما إيرازموس في الماضي، تقزز من هذه المؤامرات التي يحيكها كل أولئك الذين لا يرون معنى الحياة في التصالح بل في النزاع. وبعفوية كتب إلى كاستيليو رسالة قال فيها: «حتى الآن ما كتبت لك شيئا، ذلك أنني وسط المشاغل التي يثقل كاهلي تعددها وغلاظتها، لا يبقى لي سوى القليل من الوقت لمثل هذه المراسلات التي تعجبني كثيرا.

إضافة إلى ذلك، فالذي أحْزنني كوني إذ أرى سوء التفاهمات الفظيعة بين أولئك الذين يقولون إنهم أصدقاء الحكمة والفضيلة، أشعر بنفسي مغمورا بحزن هائل. إلا أنني قدّرتك دائما بالنظر إلى أسلوبك في الكتابة. وإنني أريد أن تكون هذه الرسالة إليك شاهدة على تأييدي ودليلا على تعاطفي الحقيقي. ولتوحّد بيننا صداقة أبدية.

إنك عندما تشجب ليس فقط الخلافات في الرأي وإنما ذلك الحقد الوحشي الذي يلاحق به البعض أصدقاء الحقيقة، فأنت تضاعف لديّ حزنا أحمله بصفة مستمرة. تقول الأمثولة الأسطورية إن العمالقة يولدون من دم الجبابرة. هكذا من بذور الرهبان نما السفسطيون الجدد الذين يبحثون على التسيّد في البلاط وفي العائلات ولدى الشعب ويعتقدون أن أصحاب العلم يعيقونهم. لكن الله يعرف كيف يصون بقية القطيع.

هكذا علينا أن نتحمل بحكمة ما لا نستطيع أن نغيّره. بالنسبة إليّ، الشيخوخة تلطّف آلامي. آمل أن أذهب قريبا إلى الكنيسة السماوية بعيدا جدا من العواصف الجياشة التي تزعزع كنيسة الأرض بطريقة مروعة. إذا بقيت على قيد الحياة، فإنني أرغب في الكلام معك في مسائل كثيرة. وداعا».

هذه الرسالة التي وضعت أساسا لتكون وسيلة دعم لكاستيليو، سرعان ما انتشرت نسخ منها من يد إلى يد، كانت في الوقت نفسه بمثابة تحذير لكالفن أن يكفّ أخيرا عن الملاحقة العبثية لذلك العلامة الكبير. وفي الواقع كان لكلمات ميلانكتون الداعمة تأثير قوي في الأوساط الإنسانية كافة في العالم. حتى أقرب أصدقاء كالفن أصبحوا يضغطون عليه من أجل السلام. وهكذا كتب إليه العالم الكبير بودوان: «لعلك رأيت الآن كيف أدان ميلانكتون بشدة الضراوة التي يُلاحَق بها ذاك الرجل، وكم كان بعيدا عن تأييد مفارقاتك. وبعد ذلك، أمن المنطقي أن يُعامَل كاستيليو كشيطان ثان وأن يُبَجَّل ميلانكتون كملاك؟».

لكن من الخطأ التصور بأنه بوسع المرء أن يجعل المتعصب يغير رأيه أو أن يهدأ! ومن المفارقة – أو المنطق – أن رسالة ميلانكتون الداعمة تركت لدى كالفن الأثر المناقض. ذلك أنه في الواقع، كلما نال خصمه تقديرا، تنامى معه حقده. وكالفن يدرك جيدا أن هؤلاء العلماء دعاة السلم أشد خطرا على دكتاتوريته المناضلة من روما، أو لويولا واليسوعيين التابعين له. ذلك أنه في مواجهة هؤلاء تقف العقيدة ضد العقيدة والكلمة ضد الكلمة والنظرية ضد النظرية. أما هنا، في مطالب كاستيليو بالحرية، فلقد شعر كالفن بأن المبدأ الأساسي لإرادته وعمله، فكرة السلطة الأحادية ومعنى الثبات في العقيدة، قد أصبح على المحك. ودائما في كل الحروب يعتبر دعاة السلم في الصفوف الذاتية أشد خطرا من الخصوم المقاتلين. وعليه، فلأن رسالة الدعم التي حررها ميلانكتون رفعت من مقام كاستيليو في نظر العالم، لم يعد لدى كالفن من هدف آخر سوى أن يعدم اسم كاستيليو. اعتبارا من هذه اللحظة بدأ النضال الحقيقي، النضال حتى الرمق الأخير.

في الحقيقة، يثبت اقتحام كالفن الساحة شخصيا أن الأمر يتعلق الآن بالنضال حتى الموت. وكما في حالة سيرفيت حين أصبحت الضربة الأخيرة القاضية ضرورية، أزاح صنيعته نيكولا دو لافونتين وشهر السلاح بذاته، ها هو الآن استغنى عن خدمات مساعده دو بيز. بالنسبة إليه، لم يعد الأمر متعلقا بالحق أو الظلم، بكلمة الإنجيل أو تأويلها، بالحقيقة أو الضلال، بل اقتصر على شيء واحد فقط: بسرعة وبلا هوادة، ينبغي سحق كاستيليو إلى الأبد. بيد أنه لا يوجد في الوقت الراهن سبب لمهاجمته، كون كاستيليو انزوى في إطار أشغاله الأدبية. لكن إذا كان العثور على مناسَبَة غير ممكن، فلتصطنع وليضرب بها المقيت كما بالعصا الغليظة وعلى غير هدى. وجد كالفن الذريعة في نشرة هجائية مجهولة المؤلف عثر عليها أحد جواسيسه عند تاجر أجنبي. ولم يكن

في النشرة أدنى ظل لدليل يثبت أن كاتبها هو كاستيليو. والواقع أن كاستيليو لم يكن أبدا المؤلف، لكن سحقه واجب. وعليه، استخدم كالفن ذلك الكتاب الذي لم يؤلفه كاستيليو كدليل مادي، لكي يغلظ له القول بأقذع الشتائم وأفظعها. ومنشوره الذي يحمل عنوان «أراجيف وغد» ليس نصّ لاهوتي ضد لاهوتي، لكنه مجرد انفجار غاضب وفيه نعت كاستيليو باللص والوغد والكافر وبشتائم لا يوجهها سوي سوقي إلى نظير له. لم تُلقَ على الأستاذ في جامعة بازل تهم أقل من مثل سارق الحطب في وضح النهار. ومن صفحة إلى صفحة في ذلك المصنَّف الوجيز تصاعد الحقد الثمل لينتهي بصرخة غضب فائضة «ليسحقك الله أيها الشيطان!».

نص كالفن هذا المليء بالسباب، يمكن أن يعتبر نموذجا يعبّر عن غضب الحزب ومدى الانحطاط الذي يمكن أن يبلغه إذ يهين مفكرا رفيع المستوى. وهو في الوقت نفسه يطرح تحذيرا ينبّه إلى تصرف رجل السياسة بطريقة غير سياسية حين لا يعرف كيف يمسك بزمام أهوائه. وإزاء الظلم البغيض الذي عانى منه الرجل الوقور، رفع مجلس إدارة جامعة بازل حظر الكتابة عن كاستيليو. جامعة من مستوى أوروبي رفيع، لا يمكن لها أن تجد نفسها منسجمة مع كرامتها حين يتهم أحد أساتذتها الرسميين أمام عموم المجتمع الإنساني العالمي بسرقة الحطب وأنه وغد ومتشرد. وحيث أن المنشور هنا لا يتعلق بنقاش حول «العقيدة» وإنما هي تهم ذات صفة شخصية وذات علاقة بسلب الشرف، نال كاستيليو من مجلس الشيوخ الموافقة الصريحة لكي يتولىّ الردّ علانية.

شكّل رد كاستيليو الخطي نموذجا لائقا رفيع المستوى للجدل الإنساني. وليس بوسع أفظع أنواع الحقد أن يسمم بالحقد ذلك الرجل المؤمن بالمتسامح في أعمق أعماقه، ولا يمكن لدناءة أن تجعله دنيئا. جاءت مقدمة نصه على إيقاع غاية في الهدوء والسمو: «من دون حماسة أمضي في طريق الجدل

العلني هذا. وكم كنت أتمنى لو أنني تمكنت من النقاش الأخوي معك في ظل روحية المسيح وليس بالأسلوب الغليظ المبني على الشتائم التي لا يمكن إلا أن تلحق الضرر باحترام الكنيسة. أما وقد جعلت أنت وأصدقاؤك حلمي في عيش سلمي مستحيلا، فإنني أعتقد، أن قيامي بالرد المعتدل على هجومك الإنفعالي أمر لا يتعارض مع واجبي المسيحي». في البدء عرض كاستيليو سلوك كالفن غير الأمين، إذ أنه في النسخة الأولى من كتابه «أراجيف وغد» وصفه علانية بأنه مؤلف هذا المنشور، لكنه في النسخة الثانية – من دون شك أدرك خطأه في الأثناء – لم يأت على ذكره كمؤلف بكلمة واحدة، ومن دون أن تدعوه الأمانة إلى أن يعترف حقا بأنه اتهم كاستيليو البريء. ثم حشر كاستيليو كالفن في الزاوية بهجوم قاس: «قل، نعم أم لا، أكنت تدري أنك بطريقة ظالمة نسبت إليّ نصا؟ أنا شخصيا لا أستطيع أن أقرر. لكن إما أنك سقت اتهاماتك في وقت كنت تدرك فيه أنها غير صحيحة، إذاً فهذا هو الخداع بعينه. وإما أنك لم تكن تدري، إذا فأقل ما يمكن أن يقال عن الاتهامات أنها رعناء. وفي كلا الحالين لم يكن سلوكك جميلا، فكلّ ما خطّه قلمك كذب. لستُ مؤلف هذا المنشور ولم أرسله أبدا إلى باريس للطباعة. وإذا كان ذيوعه يعتبر جريمة، فأنت المتهم بهذا الجرم لأنك أول من نشره على الملأ».

بعدما عرّى كاستيليو طرق استخدام الذرائع الواهية التي هاجمه بها كالفن، تحول الآن ضد فظاظة الشكل في هجومه هذا: «أنت خصبٌ في الشتائم وشفتاك تنطقان بما أترع به قلبك. في نشرتك الهجائية اللاتينية نعتّني على التوالي بأنني: مجدف على الله، نمّام، جان شرير، كلب نباح، مخلوق بلا حياء ممتليء جهلا ووحشية، زنديق مفسد الكتابات المقدسة، مهرج يسخر من الله، محتقِر الدين، شخص وقح، مرة أخرى كلب قذر، مخلوق مخز وداعر، ذو خُلُق ملتوٍ ومفسد للأخلاق، متشرد، ورجل سيء. في ثماني

مرات نعتّني بالوغد. كا هذه النوايا السيئة بسطتها بلذة في ملزمتين وأعطيت كتابك العنوان التالي: «أراجيف وغد» وختمته بالعبارة التالية «فليسحقك اللّه أيها الشيطان». وبين العنوان والخاتمة ينتمي النص إلى الأسلوب ذاته. هل يُفترَض أن يكون ذلك منهج رجل ذي جدية رسولية وخلق مسيحي دمث؟ يا لبؤس الشعب الذي تقوده أنت إذا كان يسمح لمثل هذه الأفكار أن تغدو ملهمته، وإذا صدق القول بأن تلاميذك يشبهون أستاذهم تماما. أما أنا فلا تهزني هذه المسبّات إطلاقا... ذات يوم سوف تُبْعث الحقيقة المصلوبة. وأنت يا كالفن ستغدو ملزما بتقديم الحساب أمام اللّه عن الإهانات التي انهلت بها على إنسان مات المسيح من أجله أيضا. ألا تشعر بالعار فعلا؟ ألا تشعر نفسك بكلمات المسيح هذه: «إن كلّ من غضب على أخيه باطلا يستوجب المحاكمة» و«من قال له يا أحمق يستوجب نار جهنم». وبأسلوب أقرب إلى المرح وبمشاعر الثقة الناجمة عن البراءة، فنّد كاستيليو المزاعم الاتهامية التي أطلقها كالفن ضده بأنه سرق الحطب في بازل، وقال هازئا: «في الواقع، إذا كان الأمر صحيحا، فهي جريمة خطيرة تلك التي ارتكبتها. لكن الافتراء هو الجريمة الخطيرة المماثلة. لنفترض الآن أن ذلك صحيح وأنني سرقت فعلا (هنا إحالة باهرة إلى نظرية كالفن في الجبرية) «فلأن ذلك كان مقدورا عليّ، كما تبشّر أنت، فلماذا إذًا تدينني؟ أما كان ينبغي عليك أن تتعاطف معي لأن اللّه جعلني مجبورا بهذا القَدَر بحيث أصبح مستحيلا ألاّ أسرق؟ لماذا ملأت الكون زعيقا بأمر لصوصيتي؟ ألكيّ أكفّ عن السرقة في المستقبل؟ أما وأني أسرق بناء على إجبار وتبعا لما قدّره اللّه، فقد أصبح لزاما عليك أن تبرأني في كتاباتك بالنظر إلى الجبرية التي تقيّدني. وفي مثل هذه الحال، كانت إمكانية الامتناع عن السرقة ضئيلة للغاية كمثل استحالة إضافة بوصة إلى قامتي».

الآن بعدما سرد كاستيليو هذا القذف الخالي من المعنى، عرض مجرى

الأحداث الحقيقي. مثل مئة آخرين أثناء فيضان نهر الراين، صاد بخطّاف ألواحَ خشب طاف مع التيار، الشيء الذي من البداهة القول إنه ليس سلوكا مسموحا به قانونيا فحسب، إذ من المعروف في كل مكان أن الخشب الطافي ملكية حرة، بل هي رغبة واضحة وصريحة من مجلس المدينة كون ألواح الخشب هذه التي يجرفها الفيضان تهدد الجسور. حتى أنه بوسع كاستيليو أن يثبت أنه – مثل «اللصوص» الآخرين – تلقى من مجلس مدينة بازل مبلغا ماليا (حوالي ربع قطعة نقود ذهبية) كمكافأة على تلك «اللصوصية» التي كانت في الواقع خدمة إنقاذ لا تخلو من تعريض الحياة للخطر. وبعد إثبات الوقائع هذا لم يعد أحد، حتى رهط جنيف، يكرر مثل هذه الافتراءات التي لا تسيء إلى كاستيليو، بل تسيء إلى كالفن وحده.

هنا لا ينفع الإنكار أو التزويق: حاول كالفن بفضيحته هذه أن يقضي بأي ثمن على عدو إيديولوجي وسياسي، وبمثل الجسارة حاول أن يزيّف الحقيقة كما في حالة سيرفيت. ولم يوفّق في مرّة في العثور على أدنى عيب في سلوك كاستيليو الإنساني. وبإمكان الأخير أن يرد على كالفن بهدوء: «بوسع الجميع أن يحكموا على ما كتبت، ولست أخشى رأي أي إنسان ما دام يحكم من دون حقد. يمكن لأي من عرفني منذ طفولتي أن يشهد على حالة الفقر التي طبعت حياتي الخاصة، وإذا لزم الأمر أقدر أن أضع بتصرفكم عددا لا يحصى من الشهود. لكن، هل هذا ضروري فعلا؟ ألا تكفي شهادتك المنجزة وشهادات أتباعك؟ بل إن تلاميذك ذاتهم اعترفوا غير مرة أنه ليس بوسع أحد أن يساوره أدنى شك بشأن التقشف في مسلك حياتي. وبما أن نظريتي تختلف عن نظريتك، اكتفوا بالزعم بأنني على خطأ. كيف تجاسرت إذًا على نشر مثل هذه الأشياء وأن ترفقها بذكر اسم الله؟ ألا ترى يا كالفن كم هو فظيع أن تستدعي شهادة الله على اتهامات أملاها عليك الغضب والحقد وحدهما؟

لكني أنا أيضا ابتهل إلى الله. وبينما أنت تدعوه لكي تتهمني أمام البشر بأعنف الطرق، أدعوه لأنك تتهمني بغير حق. إذا كنت أنا أكذب وأنت تقول الحقيقة، فإنني أرجو الله أن يعاقبني على قدر حجم جريمتي، كما أرجو البشر أن ينتزعوا مني شرفي وحياتي. أما إذا كنت أنا أقول الحقيقة وأنت تتهمني باطلا، فإنني أرجو الله أن يحميني من مكائد خصومي، وأن يمنحك الفرصة، حتى قبل موتك، لكي تشعر بالندم على سلوكك فلا تغدو الخطيئة مضرّة بخلاص روحك».

أي اختلاف بين الإثنين، وأي تفوق للإنسان الحرّ النزيه على ذاك المتجمد في شعور الاعتداد بالذات! إنه التناقض الأبدي بين ذي الطبيعة الإنسانية في مقابل المتعصب، والإنسان الرزين الذي لا ينشد سوى أن يصون رأيه الشخصي في مقابل المكابر الذي لا يتحمل شيئا سوى أن يهبط بالناس أجمعين إلى مستوى المرددين الببغاويين لآرائه. هناك ينطق الضمير النقي الواضح بأسلوب معتدل، وهنا يزعق بالتكليف والتهديد ذلك المتكالب على التسلـّط، المتوتر الأعصاب. لكن الصفاء الحقيقي لا يسمح لأيّ حقد بأن يعكّره. أبدا لم تكن أنقى الأفعال قد فُرضت عبر التعصب، بل كانت دوما المغنم الهادىء الناجم عن ضبط النفس والاعتدال.

على النقيض من ذلك، لا يولي المتحزبون أهمية إلى العدالة، إنما للنصر فقط. إنهم لا يريدون إعطاء الحق، بل أن يحتفظوا به. ما إن نُشر نصّ كاستيليو حتى اندلعت العاصفة مجددا. بيد أن القذف بحق شخص كاستيليو من مثل «الكلب» و«البهيم» ومن مثل تلك الأسطورة الساذجة حول سرقة الحطب المزعومة، ما لبثت جميعا أن انهارت بشكل مزر. ولم تكن الجرأة متوفرة، حتى لدى كالفن شخصيا، للضرب على الجرح ذاته. لذلك نُقل الهجوم بسرعة إلى حقل آخر، حقل اللاهوت. ومرة أخرى شُغّلت آلات

الطباعة مع أنها ما زالت رطبة بحبر الأراجيف الأخيرة. وللمرة الثانية يُدفع ثيودور دو بيز إلى الواجهة. وفاؤه لمعلمه أكبر من وفائه للحقيقة. في مقدمة الطبعة الرسمية للكتاب المقدس الصادرة في جنيف (١٥٥٨) شنّ هجوما بأسلوب الحقد والوشاية على كاستيليو ينتج من مثل الموقع الصادر عنه أثرا كأنما الأمر يتعلق بالكفر. كتب دو بيز: «الشيطان، خصمنا القديم، إذ أدرك أنه لا يقدر على وقف مجرى كلمة الله، هجم علينا بطريقة أشدّ خطورة. منذ زمن بعيد، لم تنشر ترجمة فرنسية للكتاب المقدس، على الأقل لا توجد ترجمة للنص المقدس تستحق هذا الاسم. لكن الشيطان وجد الآن العديد من المترجمين بقدر وفرة النفوس المستهترة والسفيهة. وربما كان وجد المزيد لولا أن الله وضع حدا لذلك في الوقت المناسب. وإذا سألني أحد أن أقدم له مثالا، فإنني أحيله إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية والفرنسية التي قام بها كاستيليو، وهو رجل معروف في كنيستنا من خلال وقاحته وجحوده، كما من خلال الجهود التي ضاعت سدى لأجل ردّه إلى الطريق القويم. لذلك نعتبر أن الواجب الذي يمليه علينا الضمير يحتم علينا ألاّ نكتفي بإبقاء اسمه طي الكتمان لفترة طويلة (كما فعلنا حتى الآن)، بل أن نحذر المسيحيين جميعا لكي يتجنبوا ذلك الرجل الذي اختاره الشيطان».

ما من أحد يمكنه أن يشي بعالِم لدى المحكمة التي تعنى بأمور الإلحاد بطريقة أصرح وبمثل هذه النيّة المبيّتة. لكن كاستيليو «الرجل الذي اختاره الشيطان» لم يعد بحاجة الآن إلى أن يلزم الصمت طويلا. وقد أعطى مجلس إدارة الجامعة الحق مجددا للمُلاحَق لكي يعبّر عن نفسه، بعدما شعر الأعضاء بالاشمئزاز من انحطاط مستوى الهجوم على كاستيليو، وبعدما تشجعوا بتأثير رسالة الدعم التي حررها ميلانكتون.

جاء ردّ كاستيليو على دو بيز مفعما بالحزن العميق، حتى ليمكن القول إنه

صوفي. لقد تملك الشعور بالشفقة من ذلك الإنساني لوجود قوم يمكن أن يكون لديهم مثل هذه الكراهية الجامحة إزاء نهجه الفكري. وهو يدرك تماما أن الكالفينيين لا تعني لهم الحقيقة شيئا، بل احتكار الحقيقة كما يرونها، وأنهم لن يشعروا بالراحة إلا إذا أزاحوه من الدرب تماما كما فعلوا حتى الآن بخصومهم في السياسة والفكر. غير أن سمو مشاعره حال دون انحداره إلى حضيض الحقد هذا. وبتوقع متنبيء كتب يقول: «إنكم تثيرون القضاة وتحضّونهم على موتي. لو لم يكن ذلك منشورا على الملأ في كتبكم، لما تجرأت على كتابة هذا الزعم، برغم اقتناعي بأنني لن أستطيع ردا بعد موتي. كوني ما زلت حيّا يغدو كابوسا حقيقيا لكم. وحيث أنكم رأيتم أن القضاة لم يرضخوا لضغوطكم، أو على الأقل لم يرضخوا حتى الآن – وهذا يمكن أن يتغيّر بعد حين – حاولتم أن تجعلوني مكروها من العالم ومحروما من حماية القانون». وبرغم الوضوح التمام لما تصبو إليه نفوس خصومه، أي موته، توجّه كاستيليو إلى ضمائرهم وسأل خدم كلمة المسيح هؤلاء: «قولوا لي، بأي اعتبار يمكن أن يكون سلوككم ضدي مستندا إلى المسيح؟ حتى في اللحظة التي سلّمه فيها الذي خانه إلى الجلاوزة، كلّمه بمنتهى الطيبة، وعلى الصليب صلّى من أجل جلاّده أيضا. وأنتم؟ لأنني أختلف عنكم في بعض النظريات والأفكار تلاحقونني بالمقت في جميع بلدان العالم وتثيرون الناس الآخرين لكي يتعاملوا معي بالكراهية ذاتها... أيّ مرارة ينبغي أن تشعروا بها في سرائركم حين تتلقون منه إدانة مستمرة على سلوككم من مثل «كلّ من يكره أخاه، قاتل....». إنها إرشادات واضحة للحقيقة، متاحة للجميع، ما دامت متحررة من كلّ الأحجية اللاهوتية، وأنتم تعلّمونها في خطبكم وفي كتبكم، فلماذا لا تعترفون بها في حياتكم؟».

لكن كاستيليو يدرك أن دو بيز ليس سوى أحد الأتباع الذين يدفعون إلى

الواجهة. ليس منه تنبثق تلك الكراهية القاتلة، إنما من كالفن الطاغية في سلوكه الذي يريد أن يلغي كل محاولة تفسير مخالفة لرأيه.لذلك فهو حين يخاطب دو بيز يتجاوزه ليبلغ كالفن مباشرة. من دون انفعال، والعين تحدق في العين، واجهه قائلا: «تجيز لنفسك لقب إنسان مسيحي، تعترف بالإنجيل، تعتز بالله وتتباهى بأنك تملك ملاءة مراده وتزعم بأنك تدرك الحقيقة الإنجيلية. إذًا لماذا حين تعظ الآخرين لا تعظ نفسك؟ لماذا تملأ كتبك بالاغتياب، أنت الذي يعظ الناس من المنبر ناهيا عن السعاية؟ لماذا تدينونني، ربما من أجل أن تقضوا على كبريائي قضاء مبرما، بالكثير من الغطرسة والغرور والثقة المفرطة في النفس، كما لو كنتم تجلسون في مملكة الله وقد أماط لكم اللثام عن أسرار قلبه؟... توجهوا بالمحصلة إلى دواخلكم واحرصوا على ألا يأتي ذلك متأخرا. حاولوا عندما يصبح ذلك ممكنا، أن تلقوا على ذواتكم نظرة شك، ولسوف ترون ما رآه الآخرون من قبل. دعوا حب الذات الذي يستهلككم جانبا، وكذلك كراهية الآخرين، خصوصا تلك التي تصيب شخصي. لنتنافس معا برفق، ولسوف تكتشفون أن انعدام التقوى لديّ غير حقيقي، كما العار الذي تحاولون أن تثقلوا به كاهلي. إسمحوا إذًا أن أختلف عنكم في بعض نقاط العقيدة. أينبغي فعلا ألا تتحقق إمكانية وجود اختلافات في الرأي لدى الناس الأتقياء مع وجود وحدة القلوب بينهم في الوقت ذاته؟...».

لم يُجب عالم إنساني ومتسامح على متعصب متشدد بألطف من ذلك. وإذا كان كاستيليو أظهر كِبَرا في النص، فلربما أضاف إلى ذلك أنه في ذلك الكفاح الذي أجبر عليه قد جسّد بسلوكه الإنساني مثالا لفكرة التسامح. بدلا من أن يقابل الاحتقار بالاحتقار والكراهية بالكراهية... - «لا يمكنني أن أجد أرضا أو بلادا ألجأ إليها لو أنني ألقيت عليكم الأشياء التي ألقيتم مثلها عليّ» - ... فضّـل أن يحاول مرة أخرى فضّ النزاع بطريقة إنسانية كما يليق بالعلماء،

بحسب رأيه. ومرة أخرى مدّ يد السلام لخصومه، برغم أنهم يصوبون نحوه فأس الموت. «أستحلفكم بحق محبة المسيح، أن تحترموا حريتي وأن تحجموا أخيرا عن سحقي بالاتهامات الباطلة. دعوني أعترف بإيماني من دون سخرة كما يجيز لكم ذلك الآخرون، وكما أنا من جهتي مستعد لأن أقرّ لكم به. لا تعتقدوا دائما بأن أولئك الذين تختلف عقيدتهم عن عقيدتكم بأنهم على ضلال ولا تتهموهم على الفور بالإلحاد... وإذا كنت مثل كثيرين من الأتقياء الآخرين أفسّر النصّ المقدس بطريقة مخالفة لكم فإنني مع ذلك أعترف بدين المسيح بكل قوتي. قطعا أحدنا على خطأ، ومع ذلك يحب أحدنا الآخر! سيطلع المعلّم المخطيء على الحقيقة. الشيء الوحيد الذي من المؤكد أننا نعرفه، أنتم وأنا، أو على الأقل يجب أن نعرفه، هو الواجب تجاه المحبة المسيحية. فلنمارس هذه المحبة، وحين نمارسها فإننا بذلك تكون أغلقنا أفواه الخصوم. أتعتبرون رأيكم هو الصحيح؟ الآخرون يعتبرون الشيء ذاته بالنسبة إلى آرائهم. فليظهر الأكثر حكمة أنهم الأكثر أخوة، ولا يدعوا حكمتهم تقودهم إلى الغطرسة. ذلك أن الله بكل شيء عليم، وهو يخفض من شأن المغرور ويعلي قدر المتواضع.

أقول لكم هذه الكلمات انطلاقا من تحرّق كبير إلى الحب. أهديكم المحبة والسلام المسيحي. إنني أدعوكم إلى المحبة، وأفعل ذلك من صميم الوجدان وأعترف به أمام الله والروح الحيّ.

أما إذا شئتم مع ذلك أن تستمروا في محاربتي بالكراهية، وإذا لم تسمحوا لي بأن أقودكم إلى المحبة المسيحية، فلن يبقى في وسعي سوى الصمت. فليكن الله القاضي وليفصل ما بيننا استنادا إلى وفائنا له».

من الصعب التخيّل أن مثل هذه الدعوة إلى الغفران، الرائعة في صياغتها والعميقة المشاعر الإنسانية، لا تهديء من روع خصم فكري. بيد أن ذلك ينتمي

إلى عبثية الطبيعة البشرية، ومنها أن العقائديين المتمسكين دائما بفكرة وحيدة لا يكترثون على الإطلاق بسواها، حتى لو كانت مفعمة بالإنسانية. أحادية التفكير تقود حتما إلى انعدام العدالة في السلوك. ودائما حيث الإنسان أو الشعب معبأ تماما بالتعصب لنظرية وحيدة، لا يبقى مجال للتسامح أو التفاهم المتبادل. التحذير المؤثر الذي أطلقه إنسان ينادي بالسلام، الذي لا يعظ من المنابر العامة، الذي لا يقوم بالدعاية عن نفسه ولا يخاصم، الذي لا يملك أدنى طموح من أجل إجبار الآخرين على اعتناق رأيه، لم يترك أدنى أثر لدى كالفن. بل إن جنيف الورعة اعتبرته «بشاعة» وبالتالي رفضت تلك الدعوة المسيحية إلى السلام. وعلى الفور بدأت حملة نارية بكل غازات الاحتقار والتحريض السامة. طرحت كذبة جديدة في المشهد العام، لعلها الأكثر مكرا، بقصد إلصاق الشبهات بكاستيليو مشتبها له، أو على الأقل لجعله هزؤا. وعلى حين يحرّم النشاط المسرحي الترفيهي على شعب جنيف بأسره باعتباره خطيئة، قدّم تلاميذ حلقة دراسية يديرها كالفن في جنيف تمثيلية مدرسية، يظهر فيها كاستيليو في شخصية ذات اسم شفاف «الحقير كاستيلو»، وهو كبير خدم الشيطان، يردد لدى ظهوره على الخشبة زجلا:

«أما أنا، فأخدم كلَّ مَنْ

ينفحني مالاً، بالشعر أو بالنثر

وما عندي مصدر آخر للرزق....»

بلا حياء تجرأوا على الافتراء على إنسان حياته في الفقر رسولية، وصوروه أنه يبيع قلمه وأنه محرّض مدفوع الأجر وكفاحه من أجل عقيدة التسامح النقية هو لحساب جماعة البابا الكاثوليك، وكانت الحملة عليه بترخيص من كالفن، بل وبتشجيع من قائد المسيحية هذا والداعية إلى كلمة الله. لكن بالنسبة إلى

حزب الكراهية الكالفني، فالحقيقة والافتراء سواء بسواء منذ أمد بعيد. لا يشغل بالهم الآن سوى فكرة واحدة: طرد كاستيليو من حرم جامعة بازل، إحراق مؤلفاته، وإذا أمكن إحراقه هو أيضا.

ثمة لقيا ثمينة حصل عليها الكارهون الساخطون، أساسها أنه أثناء مداهمة تفتيش روتينية لأحد البيوت في جنيف، فوجيء اثنان من المواطنين باكتشاف كتاب لديهما لا يحمل ختم الترخيص بالطبع من كالفن، وهذا بحد ذاته فعل جرمي. في هذا الكتيب الذي عنوانه «نصيحة إلى فرنسا الموحشة» لا ذكر لإسم المؤلف ولا لمكان الطباعة. وزاد الطين بلة أن رائحة الزندقة تفوح منه. على الفور اقتيد المواطنان إلى المجمع الديني. خوفا من التعرّض لأشد أنواع التعذيب، أقرّا بأن ابن أخ كاستيليو أعارهما الكتيّب. وانطلق المطاردون باندفاع أعمى يقتفون الأثر الجديد بغية أن يردوا الفريسة المتوحشة صريعة.

في الواقع، كان هذا الكتاب «السيء لأنه مليء بالأخطاء» من تأليف كاستيليو. وها هو يقع مرة أخرى في «ضلاله» كونه - على غرار إيرازموس - أشار إلى اعتماد حل سلمي للنزاع داخل الكنيسة. وهو لم يشأ أن يتفرج صامتا على فرنسا حبيبته، وكيف بدأ التحريض المذهبي فيها يطرح أخيرا ثماره الدامية، وكيف أن البروتستانت هناك (بتشجيع سري من جنيف) حملوا السلاح ضد الكاثوليك. وكما لو أنه كان متنبئا بأحداث ليلة بارثولومي وفظائع الحروب الدينية المرعبة، رأى أن من واجبه أن يفضح عبثية إراقة مثل هذه الدماء قبل فوات الأوان. وأعلن أن ليست هذه العقيدة أو تلك هي المخطئة بحد ذاتها، بل إن الخطأ والجرم ينجمان من محاولة إجبار إنسان ما بالعنف على اعتناق عقيدة هو لا يؤمن بها. كل الشرّ في الأرض يأتي من «تسخير الضمائر» هذا، من تلك المحاولات المتكررة والمتجددة والدامية التي يقودها التعصب الضيق الأفق باستخدام العنف ضد الضمائر. وينبه كاستيليو إلى أن فرض عقيدة ما

على إنسان ما ليس مقتنعا بها في وجدانه، ليس بالفعل اللاأخلاقي وغير العادل فحسب، بل هو لا منطقي وعبثي أيضا. ذلك أن كل تطويع قسري إلى عقيدة ما لا ينتج سوى إيمان ظاهري فحسب، أما وسائل التعذيب والبروباغندا فهي الكفيلة بتصدير الزيادة في أرقام المنضمين إلى الحزب. إن العقائد التي تستخدم مثل هذه الأساليب القهرية لجلب منضمين جدد إليها، لا تخدع العالم بمثل هذه الأرقام المضللة بقدر ما تخدع أنفسها حقا. إذاً — وكلمات كاستيليو التالية صالحة لكل أوان — «أولئك الذين لا يريدون سوى أكبر عدد ممكن من الأنصار، مجبرين الناس على الانضمام إليهم قسرا، يشبهون معتوها لديه إناء كبير به قليل من الخمر فيملؤه بالماء لكي يصير لديه الخمر الكثير. لكنه بذلك لن يزيد الخمر، بل سيفسد الخمر الجيد الذي كان عنده. لن يكون بوسعكم أبدا الزعم أن الذي أرغمتموه على عقيدتكم إنما هو مؤمن بقلبه فعلا. إذا منحتموه الحرية فلسوف يقول: أؤمن من كل قلبي أنكم طغاة ظالمون، وأن ما أجبرتموني عليه، لا قيمة له. لن يكون النبيذ السيء أفضل مذاقا، إذا أرغم الناس على شربه».

دائما وبحماسة متجددة، يشدد كاستيليو على عقيدته: عدم التسامح يقود حتما إلى الحرب، وحده التسامح طريق السلام. ليس بآلات التعذيب والفؤوس والمدافع يمكن لعقيدة أن تُفرض فرضا، بل عبر الاقتناع الشخصي الداخلي فقط. وحدها وسيلة التفاهم تحول دون الحرب وتخلق الرابط بين الأفكار. فلندع الراغبين في أن يصيروا بروتستانت أن يصيروا بروتستانت، وأن يبقى الكاثوليك على معتقدهم ما داموا يؤمنون به فعلا. لا يرغمنّ المرء هؤلاء ولا أولئك. هكذا قبل عدة عقود من اتفاق ممثلي المذهبين في مدينة نانت على تحقيق السلام، وذلك على قبور مئات الآلاف من البشر الذين ضحّوا بأرواحهم هباء، ها هو مفكر إنساني منفرد وحزين يهيّ مرسوم التسامح لفرنسا: «النصيحة التي أسديها

لك يا فرنسا، أن تتمكني من إيقاف قهر الضمائر بالعنف وملاحقتها وقتلها، وبدلا من ذلك أن تجيزي في أراضيك للمؤمنين بالمسيح أن يكون مسموحا لهم بأن يخدموا الله بحسب قناعاتهم لا وفق آراء غريبة عنهم».

من البداهة القول إن مثل هذا الاقتراح للتفاهم بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا، يعتبر في جنيف جريمة الجرائم العظمى. ذلك أن دبلوماسية كالفن السرية كانت في ذلك الوقت منشغلة بإشعال حرب الأديان. بناء عليه، ما من شيء ترفضه سياستها الكنسية العدوانية مثل هذه الدعوة السلمية الإنسانية. لذلك، لم تدخر وسعا لمنع انتشار كتاب كاستيليو عن السلام فورا. أوفد المندوبون إلى جميع الأنحاء، وكتبت رسائل المناشدة إلى السلطات البروتستانتية كافة، وبفضل إثارته المنظمة، نجح كالفن، في الواقع، في أن يجعل المجمع العام الإصلاحي المنعقد في أغسطس/آب **١٥٦٣** يصدر القرار التالي: «أخذت الكنيسة علما بصدور كتاب «نصيحة إلى فرنسا الموحشة» لمؤلفه كاستيليو. إنه كتاب خطير وعلى المرء أن يحذر منه».

مرة أخرى نجحوا في منع انتشار كتاب كاستيليو – الخطير ضد التعصب! – قبل صدوره. ومرة أخرى، الرجل هو المستهدف الآن، ذلك الصلب الذي لا يتزعزع وخصم الدوغمائية والتعصب. أخيرا تُكتب خاتمته، أخيرا لا يُكتفى بسدّ فمه، بل بردّه مشلولا إلى الأبد. ومرة أخرى، يستدعى ثيودور دو بيز ليسدد إلى كاستيليو الضربة القاضية. أصدر كتابا بعنوان «ردٌّ على الدفاع ونقدٌ» والإهداء إلى قساوسة مدينة بازل. هذا الإهداء إلى السلطات الكنسية بحد ذاته يدلّنا إلى أي مدى ستصل رافعة الهجوم. ويفتري دو بيز بمهارة قائلا: «لقد حان الوقت، وما بعده وقت، لكي تهتم العدالة الروحية بأمر هذا الزنديق وأصدقائه». لا على التوالي، بل بين فقرة وأخرى، شهّر اللاهوتي الورع بكاستيليو فجعله: الكاذب، الكافر، أسوأ مجددي المعمودية، المحتقر الدين،

النمّـام الكريه الرائحة، الحامي لا للزنادقة فحسب بل لجميع الزناة والمجرمين، وفي الختام يوصف، بمودة، بالقاتل الذي أنشأ دفاعه في ورشة الشيطان. بيد أنه في عجلة الغضب تناثرت هذه الشتائم بطريقة رعناء ذات اليمين وذات اليسار فتثاقلت وتعارضت وسقطت في التناقض. لكن الواضح الصريح الذي يستخلص من هذا السيل السام، هي إرادة القتل: أخيرا، أخيرا، أخيرا يجب أن يقتل لسان كاستيليو، والأفضل هو شخصيا.

يعتبر نصّ دو بيز هذا لائحة اتهام مخطط لها من وقت سابق لتقدم إلى المحكمة الدينية. من دون ستر ساتر تبدو نية الوشاية في عريها المستفز. بوضوح تام طولب المجمع الديني في بازل بتبليغ السلطات المدنية لكي تقبض على كاستيليو بوصفه مجرما شريرا. ثم انتقل دو بيز شخصيا إلى بازل لبضعة أيام لكي يحرّك عجلة العدالة. للأسف تقف معاملة شكلية عائقا يعيق صبره: بحسب قوانين بازل، من الضروري أن تقدم شكوى خطية وباسم المدّعي إلى السلطات القضائية لكي يصبح فتح التحقيق ممكنا، والكتاب المطبوع لا يقوم مقام الشكوى. وكان من الطبيعي والمفهوم أن يتقدم كالفن ودو بيز باسميهما بشكوى خطية إلى السلطات القضائية، إذا رغبا في الادعاء فعلا. لكن كالفن يبقى محافظا على نهجه القديم - أثبت نجاعته في حالة سيرفيت - أي تكليف شخص ثالث ليتقدم بالشكوى إلى السلطات، أفضل من أن تكون تحت مسؤوليته الشخصية. إعادة مطابقة لعملية النفاق السابقة كما في فيينا وفي جنيف: في تشرين الثاني/نوفمبر **١٥٦٣** فور صدور كتاب دو بيز، تقدم رجل غير كفؤ، يدعى آدم فون بودنشتاين بشكوى خطية ضد كاستيليو بتهمة الزندقة لدى المحكمة في بازل. بيد أن آدم فون بودنشتاين هذا، هو آخر من يحق له أن يجعل نفسه محاميا عن الإيمان الصحيح، إذ هو ليس سوى ابن كارلشتاد السيء السمعة الذي كان لوثر طرده من جامعة فيتنبرغ لأنه مشاغب خطر، كما

أنه في الوقت نفسه تلميذ باراسيلسوس الشهير بانعدام الورع، مما لا يؤهله لأن يكون أحد الأعمدة المستقيمة في الكنيسة البروتستانتية. لكن الواضح أن دو بيز نجح بطريقة أو بأخرى، خلال زيارته إلى بازل من كسب بودنشتاين للقيام بتلك المهمة البخسة، وها هو في رسالته إلى المحكمة يكرر حرفيا كل الذرائع المشوشة الواردة في كتاب دو بيز، إذ كاستيليو تارة عميل للبابوية، وتارة أخرى هو من مجددي المعمدانية، وتارة ثالثة هو مفكر حر، ورابعة هو كافر، وفوق هذا وذاك الحامي لجميع الزناة والمجرمين. سواء أكانت صحيحة أم كذبا، فالذي حدث أن رسالته سلكت الطريق القانونية الرسمية. أما وقد وضعت الوثائق الموثقة في عهدة القضاء في بازل، فما كان ممكنا سوى فتح التحقيقات. بلغ كالفن وأنصاره هدفهم المنشود: كاستيليو جالس على مقعد الخطأة متهما بالزندقة.

بحد ذاته كان من السهل على كاستيليو أن يدافع عن نفسه في مواجهة هذا الخليط السخيف من الاتهامات. ذلك أن بودنشتاين في غمرة اندفاعه الأعمى اتهمه بأشياء كثيرة متناقضة، حتى أن انعدام مصداقيتها أصبح مرئيا لأيّ كان. من جهة أخرى، يعرف الناس تماما في بازل طريقة عيش كاستيليو التي لا غبار عليها. رجل مثله، لم يلقَ به إلى السجن فورا، كما حدث مع سيرفيت، ولم يقيد بالسلاسل ولم ينهك بالأسئلة، بل تمّ التعامل معه كأستاذ جامعي، استدعي للمثول أمام مجلس المدينة ليدافع عن نفسه إزاء التهم المساقة إليه. وقد اكتفى زملاؤه في الجامعة بقوله، وهو مطابق للحقيقة، أن بودنشتاين ليس سوى دمية قدمت الى الواجهة، وطالب بمثول كالفن ودو بيز شخصيا أمام المجلس، وهما المحرّكان الفعليان، ما داما يريدان اتهامه. «أما وقد اتهمتُ بمثل هذا الفيض من الحماسة، فأرجوكم من صميم الوجدان أن تسمحوا لي بالدفاع عن نفسي. وإذا كان كالفن ودو بيز حسنيّ النيّة فعلاً، فما عليهما سوى أن يمثلا أمامكم

وأن يثبتا الجرائم التي اتهماني بها. إذا كان ضمير كلّ منهما مرتاحا كون تصرفهما صحيحا، فما عليهما أن يخشيا محكمة بازل، خصوصا بعدما اتهماني أمام العالم بأسره من دون أن يرفّ لهما جفن... أعرف أن الذين يتهمونني كبار وأصحاب سلطة، لكن الله قدير أيضا، هو الذي يحكم من دون تمييز بين البشر. أعرف أنني رجل فقير يعيش في الظل، صغير بلا شهرة، لكن الله ينظر إلى الصغار ولا يدع دماءهم غير مغفورة إذا أهدرت ظلما. ولذلك يرضى كاستيليو بالمثول أمام القضاء، فإذا أمكن إثبات واحدة فقط من اتهامات الخصوم، فهو مستعد لأن يقدم رأسه كفـّارة عن ذنوبه.

من المفهوم أن كالفن ودو بيز تجنّبا قبول هذا الاقتراح السخي. لم يظهر كالفن أمام مجلس مدينة بازل ولا ظهر تابعه دو بيز. وما إن لاح أن الوشاية الماكرة آيلة إلى الانهيار، حتى جلبت الصدفة عونا غير متوقع لخصوم كاستيليو. في ذلك الوقت بالذات جاء ما تخشى عواقبه من مسألة مشبوهة ظهرت في الأفق وهي تدعم بشكل خطير تهمة الزندقة وتأييد الزنادقة الموجهة إلى كاستيليو. حدث في بازل شيء غريب: خلال اثني عشر عاما، أقام ثري نبيل أجنبي يدعى جان دو بروج في ناحية بيننغن. وبفضل دعمه للأعمال الخيرية نال التقدير الرفيع والمحبة من السكان جميعا. وحين توفي ذلك الغريب الأنيق سنة ١٥٥٦ حرص أهل لينغن جميعا على المشاركة في جنازته الفخمة، وأفردوا لمثواه الأخير مكانا مميزا في كنيسة سان ليونار. وذات يوم، وبعد مرور بضع سنوات، سرت شائعة تكاد لا تصدق، مفادها أن ذلك الغريب الأنيق لم يكن نبيلا أجنبيا ولا تاجرا، بل هو سيء السمعة وكبير الزنادقة الملاحق دافيد دو جوريس ما غيره، مؤلف «كتاب العجائب»، الذي كان اختفى بطريقة سرية من بلاد الفلاندر إبان مذابح «مجددو المعمودية» الفظيعة. أيّ إزعاج لبازل بأسرها، إذ هي قدمت علانية لعدو الكنيسة العنيد أرفع التشريف في حياته

وفي مماته. ولكي يتم التكفير الواضح للعيان عن ذلك الاستغلال المخادع لمباديء الضيافة باشرت السلطات التحقيق بدعوى قضائية مستلحقة ضد المتوفى من سنوات. أقيمت مراسم شنيعة. استخرجت جثة الزنديق نصف المتعفنة من القبر الفخم وعلقت على المشنقة ثم أحرقت ومعها كدس من كتابات المارق في ساحة السوق الكبرى في بازل أمام آلاف المشاهدين. وكان على كاستيليو أن يحضر مع أساتذة الجامعة الآخرين هذا المشهد المثير للاشمئزاز. وللمرء أن يتخيل أيّ مشاعر ضاغطة ومقززة انتابته! ذلك أن صداقة طيبة ربطت ما بينه ودافيد دو جوريس طول السنوات الماضية، ومعا حاولا آنذاك إنقاذ سيرفيت. وثمة احتمال كبير أن يكون دافيد دو جوريس أحد المتعاونين - من دون ذكر الاسم - في تحرير كتاب مارتينوس بيليوس «مقالة في الهراطقة». على كل حال، ما من شك أن كاستيليو ما كان يجهل أن سيد القصر في ليننغن ليس بالتاجر كما قدم نفسه، بل كان من البداية يعرف الاسم الحقيقي للمدعو جان دو جوريس. ولكونه متسامحا في حياته كما في كتاباته، لم يفكر أبدا في أن يلعب دور الواشي وأن يسحب صداقته من رجل لمجرد أنه مطارد من السلطات الكنسية والمدنية في العالم.

هذا الاكتشاف المفاجيء للعلاقة مع أسوأ «مجددو المعمودية» سمعة، أعطى العذر الآن للكالفنيين لاعتبار كاستيليو حاميا ومتسترا على جرائم كل الزنادقة والمجرمين، ما يشكل خطرا على حياته تقريبا. وكما لا تأتي الصدفة بمفردها بل بصحبة أخرى، اكتشفت في الوقت ذاته علاقة ثانية لكاستيليو مع زنديق كبير آخر ، مع برناردو أوكينو. هو في الأساس راهب دومينيكاني مشهور، معروف في عموم إيطاليا نظرا لعظاته الفريدة، وقد هرب من بلاده فجأة قبل بدء محاكم التفتيش البابوية. لكنه حتى في سويسرا ما لبث أن أخاف القساوسة الإصلاحيين نظرا لعناده في طروحاته، خصوصا وأن كتابه الأخير «ثلاثون

حوارا» يتضمن تأويلا للكتاب المقدس اعتبره العالم البروتستانتي بأسره كفرا لا يصدق، إذ أن برناردو أوكينو يصرح بالحرف أنه استنادا إلى شريعة موسى أن تعدد الزوجية مبدأ مقبول ومسموح به في التوراة، من دون أن يوصّى به.

هذا الكتاب، بطروحاته المشينة وعدد وفير من المفاهيم غير المقبولة من المتمسكين بالعقيدة التي أدت فورا إلى فتح التحقيق بشأن أوكينو، لم يترجمه أحد من الإيطالية إلى اللاتينية سوى كاستيليو. ولم يطبع هذا الكتاب المارق إلا في ترجمته، وبالتالي جعل كاستيليو نفسه مذنبا بسبب نشره مثل هذه النظريات الكافرة. ومن المفهوم أنه الآن كمتواطيء لن يتعرض لضغط أقل من المؤلف. بين عشية وضحاها، تحولت الإتهامات القائلة بأن كاستيليو هو رأس الزندقات الفظيعة وهو حاميها، من ضبابية إلى ذات احتمالية مقلقة، وذلك بسبب صداقته الوثيقة مع دافيد دو جوريس وبرناردو أوكينو. لم يعد بوسع الجامعة أن تستمر في حماية مثل هذا الرجل. وقبل أن تبدأ الدعوى كان كاستيليو الخاسر.

ما ينتظر محامي التسامح من انعدام التسامح لدى معاصريه، بوسعه أن يقيس قساوته استنادا إلى تصرّف السلطات الكنسية مع صديقه برناردو أوكينو. في غضون ليلة طرد ذلك الخارج على القانون من مدينة لوكارنو حيث كان قسيسا يرعى جالية المهاجرين الإيطاليين، ولم يُمنح مهلة طلبها برغم التوسل الحار. لم ينعم بالرحمة لكونه في السبعين من عمره وبلا موارد. كون زوجته توفيت قبل أيام لم يضمن له مهلة. كونه سيهيم على وجهه في الدنيا ومعه أبناء قُصّر، لم يلطّف من غضب اللاهوتيين الورعين. كون الفصل شتاء والممرات الجبلية مغطاة بالثلوج بعلو أقدام والعبور أصبح مستحيلا لم يحرك ساكنا لدى ملاحقيه المتعصبين. فلينفق في عرض الشارع ذلك المحرض الزنديق! طُرد في منتصف كانون الأول/ ديسمبر، وكان على الرجل المريض ذي اللحية

البيضاء أن يجرّ جسده المتثاقل ومعه أولاده عبر الجبال والحواف المكسوة بالجليد، بحثا عن موطن لجوء جديد في أيّ مكان في الدنيا. لكن هذه القساوة ليست قاسية بما فيه الكفاية في نظر لاهوتيي الكراهية والمبشرين الأتقياء بكلمة الله. ذلك أن الشيخ العجوز التائه مع أولاده في الطرق، من الممكن في نهاية المطاف أن ينعم بتعاطف المحسنين الذين قد يقدمون له ذات ليلة حجرة دافئة أو كومة قش. لذلك لاحقوا الخارج على القانون من مكان إلى آخر بالرسائل الحماسية المتعصبة الفظيعة تنبّه أنه لا يجب على أيّ مسيحي جيد أن يأوي هذا الغول، فما لبثت الأبواب جميعا أن أغلقت في وجهه في المدن والقرى كما في وجه أبرص. لم يجد مكانا يرتاح فيه، وتوجب على العالم العجوز أن يجوب سويسرا كلها مكافحا كمتسول، وأن ينام في مخازن الغلال فينهكه الصقيع، وأن يترنح وهو يواصل المسير حتى الحدود، ويعبر ألمانيا الشاسعة من دون أن يتغير الحال، فالكل من مختلف الطوائف أصبحوا يحذرون منه. ولم يبقَ له من أمل سوى بلوغ بولندا، لعله يحظى بتعاطف إنساني فيجد فيها مأوى له ولأولاده. لكن المجهود كان قاسيا بالنسبة إلى الرجل المنكسر. لم يبلغ برناردو أوكينو هدفه أبدا، ولا نعم بالسلام. ضحية انعدام التسامح، ظل العجوز المنهك ممددا على الطريق في شارع ما في منطقة مورافيا، وهناك واراه أحدهم الثرى ودفن كمتشرد في قبر آل منذ ذلك التاريخ إلى النسيان.

في تلك المرآة المشوِّهة الفظيعة يمكن أن يقرأ كاستيليو طالعه بوضوح. ها قد بدأوا الاستعداد للمحاكمة. وفي مثل ذاك الزمان اللاإنساني ما كان الرجل ليأمل في أيّ تعاطف أو تعامل إنساني. وجريمته الوحيدة أنه كان ذا مشاعر إنسانية، وقد أبدى تعاطفا مع كثيرين من الملاحقين. ها هم يهيئون للمدافع عن سيرفيت مصيرا كمصير سيرفيت. وها هو انعدام التسامح في ذاك العصر قد أطبق على خناق أخطر الخصوم، المدافع عن التسامح.

لكن القدر الطيب شاء ألا يهدي ملاحقيه نصرا مبينا، كأن يرون سباستيان كاستيليو كبير خصوم الدكتاتوريين في السجن أو المنفى أو على عمود المحرقة. لكن في اللحظة الأخيرة أنقذ الموت المفاجيء سباستيان كاستيليو قبل أن تبدأ المحاكمة وقبل أن ينفذ أعداؤه الاعتداء القاتل. منذ أمد بعيد كان جسده المنهك أصبح ضعيفا جراء الجهد الكثير، أما روحه فأرهقت بالهموم والمنغصات، فما عاد بدنه المتآكل قادرا على الصمود بعد. حتى اللحظات الأخيرة كان يجرّ جسده المتثاقل إلى الجامعة وإلى مكتبه، ومع ذلك كان هذا دفاعا غير مجد! ها هو الموت انتصر على إرادة الحياة والإنتاج الفكري. حملوه وهو يرتعش من الحمى إلى سريره، وحالت تقلصات المعدة العنيفة دون تمكنه من تناول أيّ غذاء سوى الحليب. كان أداء أعضائه من سيء إلى أسوأ، وفي الختام ما عاد القلب المنهك قادرا على الخفقان. في **٢٩** كانون الأول/ ديسمبر **١٥٦٣** توفي سباستيان كاستيليو، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، الرجل «الذي بفضل عون الله انتُزع من براثن خصومه» على حد تعبير أحد الأصدقاء من الذين حضروا الوفاة.

بهذا الموت انهارت الافتراءات. متأخرا جدا اعترف مواطنوه كيف كان دفاعهم عن أفضل رجالهم سيئا ومتهاونا. أثبت ميراثه بطريقة لا تدحض، في ظل أيّ فقر رسولي عاش ذلك العالم الكبير النقي. لم يعثر المرء على قطعة فضة واحدة في بيته. كان على أصدقائه أن يدفعوا ثمن التابوت وأن يسددوا عنه بعض الديون البسيطة، وأن يأخذوا على عاتقهم مصاريف الدفن وإعاشة أبنائه القصَّر. لكن في الوقت ذاته، وفيما يشبه التعويض عن إهانات الاتهامات جاءت جنازة سباستيان كاستيليو بمثابة انتصار معنوي: كل الذين لزموا الصمت خوفا أو حذرا، طالما كان كاستيليو مشتبها به كزنديق، هرعوا الآن ليثبتوا كم كانوا يحبونه ويقدرونه. ودائما يرتاح المرء في الدفاع عن الميت أكثر منه عن

الحيّ»، غير المحبوب. رسميا شاركت الجامعة بأسرها في الجنازة. على أكتاف الطلبة حمل النعش إلى الكاتدرائية وفي ممر الدير دفن. على نفقتهم الخاصة دفع ثلاثة من الطلبة تكاليف النقش في حجر شاهد القبر وفيه: «إلى الأستاذ الرفيع الشهرة، عربون امتنان لعلمك الكبير ونظافة سيرتك».

لكن بينما كانت بازل تعبر عن حزنها لفقدان الرجل العالم والنظيف، سادت البهجة الساطعة جنيف. حتى وإن لم يجعلوا الأجراس تقرع احتفاء بالنبأ السار، نبأ القضاء على المدافع الشجاع عن حرية الفكر، لحسن الحظ. اللسان البليغ الذي تكلم ضد قيامهم باغتصاب الضمير قد خرس أخيرا. وبسعادة خالية من اللياقة تبادلوا التهاني، أولئك الأتقياء «خدم كلمة الله». كما لو أن آية «أحبوا أعداءكم» لم تكن مكتوبة في إنجيلهم أبدا. «كاستيليو مات؟ نِعْمَ الحدث!» هكذا كتب القسيس بوللينغر في زيوريخ. وآخر قال متهكما «حتى لا يضطر إلى الدفاع عن قضيته أمام مجلس مدينة بازل، هرب إلى حيث رادامانتيس»[٥٦]. أما دو بيز الذي أدمى كاستيليو بسهام الوشاية، فقد امتدح الله لأنه خلّص العالم من هذا الزنديق، وقرّظ نفسه بوصفه ملهما بالأنباء «كنتُ نبيا جيدا حين قلت لكاستيليو: سيعاقبك الله على كفرك». حتى بوفاة ذلك المناضل المنفرد، لم يتعب الغضب عليه من الحقد، لذلك فهو قد حقق انتصارا مضاعفا برغم خسارته. وكما دائما، يبقى الحقد بلا جدوى. كل احتقار لن يُمرض الميت بعد اليوم. والفكرة التي عاش ومات من أجلها، تبقى مثل كل الأفكار الإنسانية الحقيقية سامية فوق كل العنف البشري والزمني.

* * * * * *

(٥٦) قاضي الموت في العالم السفلي بحسب الميثولوجيا الإغريقية.

القطبان يتلامسان

الطقس مضطرب، سوف يصحو الطقس

بعد المطر ننتظر الطقس البديع

نسعد بعد الشجارات والاختلافات الكبيرة

سيعمّ السلام ويكفّ الشقاء

وبين الاثنين كم سنعاني من ألم

(أغنية مارغريت النمسا)

يبدو أن الصراع انتهى. بوفاة كاستيليو تخلّص كالفن من الخصم الفكري الوحيد الرفيع المستوى. وحيث أنه في الوقت نفسه أخرس المعارضين السياسيين في جنيف، أصبح بوسعه الآن أن ينطلق بمشاريعه إلى أرحب مدى من دون عائق. ما إن يتجاوز الدكتاتور الأزمة التي لا مهرب منها في بداية عهده، حتى يمكن أن يعتبر على العموم ولفترة معينة راسخا في السلطة. وكما في المحصلة تتأقلم أعضاء جسم الإنسان بعد المزعجات الأولى مع المتغيرات المناخية وشروط الحياة المختلفة، تعتاد الشعوب بسرعة مذهلة على الأشكال الجديدة للسلطة. الأجيال القديمة – التي تقارن بمرارة بين الحاضر الزاخر بالعنف وبين الماضي الأثير لديها – تبدأ بالزوال بعد فترة من الزمن، وتحلّ محلها شبيبة ترعرعت في ظل تقاليد جديدة، تقبل المُثُل الجديدة ببداهة ومن دون تمحيص باعتبارها

الممكنة الوحيدة. ودائما في غضون جيل واحد، يمكن أن يتحول شعب ما بشكل حاسم بتأثير فكرة ما. وهكذا أيضا بالنسبة إلى التفسير الكالفني لوصايا الله: انطلاقا من مادة لاهوتية فكرية، تكثفت العقيدة بعد عقدين من الزمن متخذة شكل وجود بيِّن ملموس. ويقتضي الانصاف أن يعترف المرء لهذا التنظيمي العبقري، أنه بعد تحقيق الانتصار، قاد نظامه من مجاله الضيق إلى أرحب مجال، نظرا لمثابرته بمنهجية رائعة. وبالتدريج نقل نظامه إلى الصعيد العالمي. نظام حديدي جعل جنيف، بالنظر إلى مظاهر نمط الحياة، مدينة نموذجية. من كلّ البلدان حجّ الإصلاحيون إليها، إلى «روما البروتستانت» وأعربوا عن إعجابهم بالتطبيق النموذجي لنظام الحكم الثيوقراطي فيها. كل ما يمكنه أن يحقق التربية الصارمة للنفس والتقويم المتقشف للبدن تمّ تنفيذه بالتمام. على أنه تم التضحية بالإبداع التعددي، لصالح أحادية عديمة الطعم، والفرحة باستقامة باردة محسوبة رياضيا. لكن في المقابل ارتقى التعليم إلى مستوى الفن. كل المؤسسات التعليمية ومنظمات البرّ والإحسان ذات إدارة لا غبار عليها. أرحب فضاء خصص للعلوم. وبتأسيس «الأكاديمية» نجح كالفن في إنجاز أول مركز روحي للبروتستانتية، بل وإضافة إلى ذلك أنه نجح في الوقت نفسه في إنشاء القطب المواجه لجماعة اليسوعيين التي أسسها زميله القديم لويولا: انضباط عقلاني في مواجهة انضباط وإرادة متصلبة مقابل إرادة. من هذه الأكاديمية المزوّدة بالمعارف اللاهوتية الممتازة أرسل المحرضون والدعاة للعقيدة الكالفينية إلى العالم وفق مخطط حربي مدروس. ذلك أنه منذ أمد بعيد لم يعد كالفن يهتم بحصر أفكاره وسلطته في مدينة سويسرية صغيرة، بل إن رغبته الجامحة في التسيّد لا تحدّها بلاد ولا بحار، حتى تدين أوروبا والعالم تدريجيا لنظامه التوتاليتاري. ها هي اسكتلندا خضعت له عبر ممثله جون كنوكس. ها هي هولندا وجزء من الممالك الشمالية وقد تغلغل فيها الفكر

البيوريتاني. ها هم الهوغونوت في فرنسا يتسلحون استعدادا للمعركة الحاسمة. وإنْ هي إلا خطوة سعيدة أخرى، حتى يصبح كتاب «التعاليم» المرجعية العالمية، والكالفنية شكلَ التفكير والممارسة الأحادي في العالم الغربي.

أما إلى أيّ مدى حاسم غيّر نفاذ ذلك النصر المبين للعقيدة الكالفنية أشكالَ الثقافة في أوروبا، فبوسع المرء أن يقيسه من خلال البنى الخاصة التي طبقت في وقت قصير بناء على دعوة الكالفنية في البلاد التي اعتنقتها. أينما كان، حيث أملت كنيسة جنيف إرادتها الدينية والأخلاقية – ولو لفترة قصيرة – انبثق وسط الطيف الوطني العام نمط خاص: المواطن الذي يحيا حياته بلا بهرجة، الطاهر الذي لا تشوبه شائبة، الجديّ الذي لا يبتسم، الذي يؤدي واجباته الأخلاقية والدينية. في كل مكان بدا ظاهرا للعيان أن حرية الحواس تم كبتها بترويض منهجي وأن الحياة أصبحت متقشفة طابعها السلوك البارد. ولا يلبث المرء أن يدرك من أول نظرة، إلى اليوم، حتى من الشوارع – ما دام ممكنا للشخصية القوية أن تخلد حتى في الأشياء المحسوسة – وجود التربية الكالفنية، في ماضيها وحاضرها، متمثلة في نمط العيش المتحفظ، في حيادية الملابس والسلوك، بل وفي المباني التي بلا أبهة وبلا احتفالية. بتحطيم الذاتية في كل مناسبة والطموحات الجامحة للإنسان الفرد، وبتقوية سلطة الدولة أينما كان، رسّخت الكالفنية في البلدان التي سيطرت عليها مواصفاتها للمواطن بامتياز: الخادم الأمين، المتواضع المثابر، الذي ينضوي في إطار الجماعة، الموظف الفاضل، الإنسان المتوسط النموذجي. وبحق أثبت ماكس فيبر في دراسته عن الرأسمالية أن ما من عنصر كان مساعدا ممهدا للحركة الصناعية مثل العقيدة الكالفنية القائمة على الطاعة المطلقة لأنها ربّت الأجيال بدءا من المدرسة بالأسلوب الديني للجماعة القائم على التساوي بين الجميع وعلى التجاوب الآلي. ودائما ينمّي التنظيم الحاسم والمحكم الطاقة الخارجية للمواطنين، أي

قوة الدولة الضاربة العسكرية. وهذه السلالة من الملاحين والمستعمرين الرائعين، المتميزين بالصلابة وشدة المراس والقدرة على حرمان الذات، الذين جاءوا من هولندا ثم انكلترا، هم بشكل رئيسي من أصل بيوريتاني. وتاليا، ابتدعت هذه السلالة الروحية طابع الشخصية الأميركية. كل هذه الأمم تدين في العديد من نجاحاتها السياسية العالمية إلى التأثير التربوي القوي للقسيس الذي أتي من منطقة البيكاردي في فرنسا إلى كاتدرائية سان بيار في جنيف.

لكن أيّ كابوس كان سيداهمنا لو أن كالفن ودو بيز وجون كنوكس «قتلة الفرح» هؤلاء سيطروا على العالم بأسره وفرضوا أولى مطالبهم بشكلها الفجّ؟ أيّ حالة من التقشف والرتابة وانعدام الألوان كانت اجتاحت أوروبا؟ كيف كان من الممكن أن يثور هؤلاء الغيارى أعداء الفن والحياة والفرح غضبا ضد غمرة الوجود الرائعة وكل فيضه الجميل، المتجسد فيه ذاك الاستمتاع البصري بالتنوع وهو عطية الله. كيف كانوا محوا كل التباينات الاجتماعية والقومية التي أهدى تنوّعها البيّن العالم الغربي الصدارة في تاريخ الثقافات، لصالح رتابة جافة. وكيف كانوا شلّـوا متعة الإبداع الكبيرة بفضل ميلهم إلى النظام الدقيق المرعب! تماما كما في جنيف استأصلوا النشاطات الفنية جميعا لعدة قرون. وكما في أول خطوة اتخذوها بعد بسط سيادتهم في انكلترا أن داسوا بالكعوب، بلا رأفة، على المسرح الشكسبيري أحد أبدع الأنوار في الفكر العالمي. وكيف حطموا لوحات الأساتذة القدامي في الكنائس وأحلّوا مخافة الله محل السعادة البشرية. وتماما كما في أوروبا كلها، كان من الممكن أن يجهضوا كل مسعى حيوي للتقرب من الله – إذا كان خارجا عن تشريعاتهم الدينية الورعة – فيغدو ضحية الحرم الكنسي. كانت الأنفاس ستنحبس إذا تأمل المرء أوروبا في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من دون موسيقى وفن تشكيلي ومسرح ورقص، من دون هندستها المعمارية الفاخرة، من دون مهرجاناتها،

ورهافة الإيروتيك ولباقة مجالس السمر. وما البناء إلا كنائس جرداء وعظات جافة: عفّة وخشوع ومخافة الله! والفن - نور الله في نهارات العمل المقبضة والمعتمة - كان الدعاة ليمنعوه باعتباره «بهجة/خطيئة»، أداة لذة، وفجورا. كان على رامبرانت أن يعمل خادما صغيرا في طاحون، وموليير مورّقا للجدران، وكانت لوحات روبنز الفخمة أزعجتهم فأمروا بإحراقها وربما أحرقوه هو الآخر معها، وكان بتهوفن انخفض إلى مستوى ملحن المزامير في الكنيسة! وهل يمكن تخيل شيللي وغوته وكيتس منتظرين ختم المجمع الديني الورع «موافق» أو «لا مانع من الطبع»؟ وهل كان أمثال كانط ونيتشه أن ينشئوا عالمهم الفكري في ظل «الانضباط»؟ ما كان ليُسْمَح للعبقرية الخلاقة بالسخاء والجرأة لكى تبدع في المعمار بمثل تلك الروعة التي لا تنسى في فرساي والباروك الروماني. ولا كان ممكنا للعب الرقيق بالألوان في طراز الروكوكو أن يتكشف في الموضة والرقص. والفكر الأوروبي كان ليذبل ويغدو سفسطة لاهوتية بدلا من أن يتمثل بالتغيير الخلاق. ذلك أن العالم يبقى عقيما وبلا إبداع ما لم تحفّزه الحرية والغبطة وما لم ينغمس فيهما. ودائما تتجمد الحياة في كل نظام متشدد.

من حسن الحظ أن أوروبا لم تبقِ نفسها أسيرة الانضباطية والبيوريتانية والنموذج الآتي من جنيف. وكما ضد كل محاولة لحبس العالم في إطار نظام أحادي مغلق، طالبت إرادة الحياة هذه المرة أيضا بالتجديد الأبدي، واستخدمت قوتها المضادة التي لا تقاوم. فقط في قسم صغير من أوروبا حالف النصر الكالفنية في هجومها. لكنها حتى حيث بسطت نفوذها، ما لبثت أن تنازلت - بمحض إرادتها - عن فرض التطبيق الحرفي لتعاليمها الخاصة بالكتاب المقدس. ما من دولة تحملت على الدوام السلطة المطلقة للثيوقراطية الكالفنية. بل إن العداء لمتعة الحياة وللفنون المنبثق من «الانضباط» الصارم، ما لبث إزاء تمرد الواقع، وبعد موت كالفن، أن تلطّف وتأنسن. ذلك أن الحياة الحسيّة

تبقى على الدوام أقوى من أيّ عقيدة تجريدية. بنفثاتها الحارة تسيل كل جمود، وترخي كل انشداد، وتلطف كل قسوة. وكما أن العضلات لا يمكن أن تبقى متقلصة باستمرار جرّاء شدّ واضح، وكما أن العواطف لا يمكن أن تظل متّقدة على الدوام، كذلك الدكتاتوريات الروحية لا يمكنها المحافظة على راديكاليتها الطائشة. وفي الغالب، تحمّل جيل واحد فقط قمعها الموجع.

عقيدة كالفن هي الأخرى فقدت لاتسامحها البالغ بأسرع مما كان متوقعا. ولعله من النادر أن عقيدة ما تطابقت بعد مرور مئة سنة مع الذي ابتكرها. ولسوف يكون خطأ فادحا أن نضع على قدم المساواة ما طالب به كالفن وما آلت إليه عقيدته خلال تطورها التاريخي. طبعا جرت المناقشات في جنيف في عصر جان جاك روسو حول المسرح: هل يمنع أم يسمح به، وطرح السؤال الخاص بجدية: هل تعني «الفنون الجميلة» تطورا للإنسانية أم وبالا عليها؟ لكن الشدّ البالغ الذي أحدثه «الانضباط» قد تقطّع من فترة بعيدة، فتكيّفت التعاليم الدينية الجامدة عضويا مع البشر. ودائما عرف فكر التطور الحيوي كيف يستخدم لصالح أهدافه غير المعلنة ما كان أخافنا في البدء باعتباره تقهقرا كبيرا: التقدم الأبدي يستعير الضروري ويرمي المثبطات خلفه كما ثمرة معصورة. وفي المخطط الشاسع للإنسانية لا تعني الدكتاتورية سوى تعديل قصير الأمد، وكل إرادة لإحباط إيقاع الحياة بأسلوب رجعي، يقودها المخطط - بعد تراجع قصير - إلى الأمام بطاقة أكبر: وبلعام[٥٧] هو الرمز الخالد لمن شاء أن يلعن، لكنه يبارك رغم إرادته. وهكذا في أغرب التحولات انطلقت فكرة الحرية السياسية مباشرة من النظام الكالفني الذي أراد بصرامة تامة الحدّ من الحرية الفردية. بل إن هولندا وإنكلترا كرومويل والولايات المتحدة الأميركية التي

---

(٥٧) نبي من بلاد الرافدين.

كانت أولى حقول انتشاره وتأثيره، هي التي أعطت الليبرالية وفكرة الدولة الديمقراطية أرحب مدى، وبرضا تام. من الروح البيوريتانية انبثقت واحدة من أهم وثائق العصر الحديث: بيان استقلال الولايات المتحدة، الذي بدوره أثّر بحسم في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان. أما الانقلاب الأكثر غرابة، وبه التقاء طرفي النقيض، فتمثل في أن تلك الدول بالذات التي من المفترض أن تكون فكرة اللاتسامح تغلغلت فيها، هي التي أصبحت - بطريقة مذهلة - أولى الدول الأوروبية التي أطلقت العنان للتسامح. بالضبط حيث كانت عقيدة كالفن قانونا، أصبحت أفكار كاستيليو واقعا. حتى مدينة جنيف بالذات، حيث قام كالفن بإحراق سيرفيت بسبب اختلاف الرأي في الأمور اللاهوتية، قد أصبحت ملاذ «عدو الله» فولتير، أحد ألدّ أعداء المسيح في زمانه. لكن تأملوا: بمودة زاره خلفاء كالفن في رسالته، دعاة كنيسته، وبأفضل الأطر الإنسانية تناقشوا معه في الفلسفة. من ناحية أخرى، في هولندا التي لم يجد ديكارت وسبينوزا ملجأ آخر سواها، كتبا الأعمال التي حررت الفكر البشري من كلّ الروابط مع الكنيسة والتقاليد. لجأ إليها آتين من كل البلدان الذين كانوا مهددين بسبب آرائهم ومعتقداتهم الدينية، وأقاموا في ظل أشد العقائد الدينية صرامة، ما أسماه الملحد إرنست رينان «معجزة»، هو الذي لا يؤمن أساسا بالمعجزات، ويعني ذلك التحول من البروتستانتية الأكثر تشددا نحو التنوير. ويحدث دائما في نهاية المطاف، أن طرفي النقيض هما أول من يتصل أحدهما بالآخر. وهكذا بعد مئتي سنة تغلغلت في هولندا وانكلترا وأميركا وتجاورت متآخية مطالب كاستيليو ومطالب كالفن، التسامح والدين.

أفكار كاستيليو خلدت هي الأخرى إلى ما بعد عصره. بدا لوهلة أن الرجل ورسالته قد أخرسا. خلال بضعة عقود أحاط الصمت المطبق اسمه بكثافة وظلمة كما أحاط القبر نعشه. لم يعد أحد يسأل عن كاستيليو. أصدقاؤه ماتوا

أو تفرقوا. القليل المطبوع من مؤلفاته أصبح بالتدريج نادرا. من جهة أخرى، فالأعمال التي كا زالت مخطوطة لم يجرؤ أحد على نشرها، حتى بدا أن نضاله ذهب هدرا وحياته هباء. لكن التاريخ يسلك دروبا سريّـة: تحديدا كان انتصار أعدائه بعثا له. باندفاع عنيف، ربما عنيف جدا، ولجت الكالفنية هولندا. يعتقد الدعاة، الذين تخرجوا في مدرسة التعصب التابعة للأكاديمية أشد قساوة عن ذي قبل، أن عليهم أن يتجاوزوا صرامة كالفن في البلدان حديثة العهد في اعتناق مذهبهم. لكن ما لبث الشعب الهولندي، الذي كان تخلص من سطوة امبراطور العَالَـمَيْن[٥٨]، أن ثار. لم يكن يريد أن يكون إخضاع الضمير دوغمائيا هو الثمن الذي عليه أن يدفعه مقابل حريته التي نالها حديثا. وفي الوسط الروحي احتج بعض الدعاة – الذين أطلق عليهم لاحقا «المحتجون» – على تعنت الكالفنية، وحين بحثوا عن أسلحة روحية يستخدمونها في نضالهم هذا ضد التشدد الذي لا هوادة فيه، تذكروا فجأة ذلك المفقود، السابق في النضال والذي أضحى أسطورة تقريبا. كورنهيرت والليبراليون البروتستانتيون الآخرون يستشهدون بكتابات كاستيليو. وبدءا من ١٦٠٣ نشرت مؤلفاته الواحدة تلو الأخرى في ترجمات إلى اللغة الهولندية وبطبعات جديدة. في كل مكان حظيت بالاهتمام الكبير وبالإعجاب المتنامي دائما. وفجأة ثبت أن أفكار كاستيليو لم تدفن أبدا، بل كانت راقدة في سبات آمن بعيدا من الزمن الصعب، والآن دنت ساعة فعلها الحقيقي. وما لبث أن تبيّـن أن أعمال كاستيليو المنشورة ليست كافية، فتمّ إيفاد المرسلين إلى بازل لينقبوا في إرثه الثقافي فيحضرون ما وجدوا إلى هولندا حيث تطبع المؤلفات المؤلفات بالنص الأصلي ومترجمة إلى الهولندية، تباعا وتكرارا. وبعد وفاته بخمسين سنة كانت كتبه جميعا قد نشرت، المفقودة والموجودة، بل وظهرت طبعة خاصة بالأعمال

---

(٥٨) الامبراطور الاسباني فيليب الثاني.

الكاملة، ما لم يكن يأمله هو أبدا. (صدرت في غاودا ١٦١٢). وها هو كاستيليو يتواجد مجددا في قلب النزاع. بُعث منتصرا، محاطا للمرة الأولى بأتباع أوفياء ويحظى فعله بالتقدير وإن كان من جمهور من الأنصار بلا أسماء. عاشت أفكاره في أعمال أجنبية وفي نزاعات أجنبية. وفي النقاشات الشهيرة التي خاضها الأرمينيون[٥٩] حول الإصلاح الليبرالي في البروتستانتية، كانت معظم الحجج مستعارة من كتابات كاستيليو. أما القسيس الواعظ غانتنر وهو من مقاطعة غراوبوندن - قامة رائعة صاغ شاعر سويسري قصيدة عنها - فقد مثل أمام المحكمة الروحية في مدينة كور للدفاع عن أحد «مجددو المعمدانية» مغامرا بحياته وفي يده نسخة من كتاب «مارتينوس بيليوس». وحتى إذا لم يكن هناك من توثيق يثبت أن ديكارت وسبينوزا تلاقيا روحيا بأفكار كاستيليو عبر الانتشار الكبير لأعماله في هولندا، فإن مجرد الظنّ في الأمر يجعله يدنو من قوة الحقيقة. لكن في هولندا لم يكن المفكرون وذوو النزعات الإنسانية وحدهم الذين اعتنقوا فكرة التسامح، إذ أن هذه الفكرة ما لبثت أن ولجت وبعمق الأمة المتعبة من النزاعات اللاهوتية وحروب الأديان المدمّرة. في معاهدة أوترخت للسلام تجلت فكرة التسامح كسياسة الدولة، فخرجت بذلك من الإطار التجريدي ودخلت المجال الواقعي بقوة. الشعب الحر سياسيا استجاب للنداء الأخاذ المطالب بتبادل احترام الرأي، الذي كان كاستيليو بالأمس وجهه إلى الأمراء، وها هو اليوم يعتمد كقانون. من هذه المقاطعة انطلقت للمرة الأولى فكرة احترام المعتقدات الدينية والفكرية نحو المستقبل، حيث تسود العالم، وواصلت مسيرتها الظافرة في الزمن. دولة بعد أخرى راحت، وفقا لفكر كاستيليو، تلعن كل ملاحقة دينية وفكرية. في الثورة الفرنسية أعطي الفرد

(٥٩) طائفة داخل الكنيسة البروتستانتية تميزت بالاعتدال. انشأها اللاهوتي الهولندي ياكوب هرمان، وتلقبت الحركة باسمه وفق النطق اللاتيني ياكوبوس أرمينيوس.

حقوقه أخيرا: أي أن يعبّر بحرية ومساواة عن آرائه ومعتقداته. وفي القرن التالي، التاسع عشر، سادت فكرة الحرية - حرية الإنسان والشعوب والأفكار - كمبدأ لا يُمَس في مجمل العالم المتحضر.

ولمئة عام بالتمام، إلى ما يقارب حدود عصرنا الراهن، سادت فكرة الحرية هذه كبديهية مطلقة في أوروبا بأسرها. في أعمدة أساس كل دولة ترسخت مباديء حقوق الإنسان كدستور لا يمس ولا يعدّل. واعتقدنا أن عصر الاستبداد الفكري وفرض العقائد بالقوة والرقابة على الآراء قد غاب إلى الأبد، كما اعتقدنا بأن حق كل إنسان في الاستقلال الفكري قد أصبح مكفولا تماما مثل حقه في جسده. لكن التاريخ مدّ وجزر. على الدوام صعود وهبوط. لا حق ثابتا في كل العصور فلا ينتزع، ولا حرية مضمونة فتبقى في منأى عن العنف. دائما ستواجه الإنسانية معارضة ضد كل تقدم، وستغدو كل البديهيات موضع تساؤل مجددا. وما إن بدأنا نشعر بالحرية كعادة يومية ولم تعد من الممتلكات المقدسة، حتى انطلقت من ظلمات الغرائز إرادة غامضة تماما تريد اغتصابها. دائما حين تبتهج الإنسانية بالحرية لمدى طويل ومن دون مبالاة، تغشاها تلك الرغبة الخطيرة في التعرف على ثمالة القوة والشهوة الإجرامية لإشعال الحروب. وفي مسيرته نحو الهدف البعيد الغور، يجبرنا التاريخ بين حين وآخر على ارتدادات غير مفهومة. تنهار أسوار الحق الموروث كما تنهار السدود وجدران الحصى أمام الفيضان. وفي ذلك الوقت المروع تبدو الإنسانية في حالة تقهقر إلى الغضب الدامي كما في القبيلة، وإلى الانصياع العبودي كما لدى القطعان. لكن كما بعد كل مدّ تتبدد المياه في تراجعها، يهرم الطغاة جميعا أو يبردون بعد مهلة زمنية قصيرة. لكل عقيدة وانتصاراتها المؤقتة حدّ زمني تنتهي عنده. وحدها فكرة الحرية، الأسمى بين الأفكار، لا يسحقها أحد، ودائما لها عودة لأنها أبدية كما الروح. وإذا حرمت من التعبير عن نفسها لفترة

معينة، فهي تلجأ إلى أعماق الضمير، آمنة بعيدا من القمع. لذلك، عبثا يعتقد أصحاب السلطة أنهم سيطروا على الفكر الحر إنْ هم كمموا شفاهه. ذلك أن ضميرا جديدا يولد مع كل مولود جديد. ودائما سيتذكر أحدهم الواجب الذي يمليه عليه ضميره، أن يستعيد الكفاح القديم لصالح حقوق الإنسان والإنسانية غير القابلة للتنازل عنها. دائما سينهض نظير كاستيليو ضد نظير كالفن لكي يدافع عن سيادة استقلال الآراء ضد جبروت العنف.

فارس يواكيم

كاتب وصحافي ومترجم.

لبناني من مواليد الإسكندرية (مصر) ١٩٤٥. ويحمل الجنسية الألمانية أيضا.

تخرج في المعهد العالي للسينما (القاهرة) ١٩٦٦.

كتب السيناريو والحوار لـ ٧ أفلام روائية، منها: «سيدتي الجميلة» (عن برنارد شو) إخراج حلمي رفلة، بطولة محمود ياسين، نيللي، شوشو، عمر خورشيد، عماد حمدي (١٩٧٥). «واحد زائد واحد» إخراج يوسف معلوف، بطولة دريد لحام، نهاد قلعي، سهير المرشدي، ناهد يسري (١٩٧١). «عندما تغيب الزوجات» إخراج مروان عكاوي، بطولة دريد لحام، نهاد قلعي، إيمان، عبد اللطيف فتحي، نجاح حفيظ (١٩٧٩). «فندق السعادة» (الحوار فقط) إخراج فطين عبد الوهاب، بطولة أحمد رمزي، شمس البارودي، نادية الجندي، شوشو، عبد المنعم إبراهيم.

كتب السيناريو والتعليق لعدد من الأفلام الوثائقية، منها «إمارات الخليج، تاريخ شعب» إخراج كريستيان جاك عن كتاب لسالم الجابر الصباح. عرض في التلفزيون الألماني zdf (١٩٨٥). «المراكب»، إخراج رضا الباهي (١٩٨٠). «حكاية اللوحات» (وهذا الفيلم من إخراج الكاتب أيضا). إنتاج التلفزيون الفرنسي 3fr وتلفزيون البحرين (١٩٨٥).

كتب للمسرح عدة مسرحيات، أغلبها من بطولة الفنان الكوميدي اللبناني

الراحل شوشو. بعضها تأليف: «فوق وتحت» إخراج برج فازليان (١٩٧٢) و«خيمة كراكوز» إخراج روجيه عساف (١٩٧٤). وبعضها إعداد (إعادة كتابة النص الأصلي): «جوه وبره» عن «مقالب سكابان» لموليير، إخراج برج فازليان (١٩٧١) و«آخ يا بلدنا» عن أوبرا القروش الثلاثة لبرتولد بريشت، إخراج روجيه عساف (١٩٧٣) «الدنيا دولاب» عن كرايتون اللطيف لجيمس باري، إخراج السيد بدير (١٩٧٤). و٦ مسرحيات مقتبسة من البولفار الفرنسي والإنكليزي. وكتب ثلاث مسرحيات قامت ببطولتها المطربة صباح، منها «العواصف» (عن جبران خليل جبران) شارك فيها: سمير يزبك وعصام رجي وشوشو ونبيه أبو الحسن، إخراج روميو لحود (١٩٧١) و«الفنون جنون» شارك فيها: جوزيف عازار وملحم بركات وجورجيت صايغ والياس الياس، إخراج برج فازليان (١٩٧٣). في ١٩٩١ كتب «كرامبول» (تأليف، فكرتها مستوحاة من «فولبوني» لبن جونسون) بطولة فائق حميصي وخضر علاء الدين، إخراج روجيه عساف. وفي ٢٠٠٣ كتب «الشلمسطي» قام ببطولتها منير كسرواني وأخرجها نقولا دانيال.

كما كتب العديد من نصوص لفرقة «السيغال» (شانسونييه) ما بين ١٩٧٢ و١٩٧٨. وأربع مسرحيات للأطفال قدمها شوشو، أعيد عرض بعضها في دمشق (زياد مولوي ١٩٧٧) وفي الكويت «تسمع تضحك» (المسرح الكويتي ١٩٨٢).

كتب السيناريو والحوار لمسلسلات درامية، منها في تلفزيون لبنان: «مسرح شوشو» (مسرحيات من فصل واحد، مقتبسة من موليير، لابيش، فيدو). «المشوار الطويل» عن ثلاثية مارسيل بانيول: ماريوس، فاني، سيزار. «آثار على الرمال» (عن رواية ليوسف السباعي). «الكوميديا العالمية» (ترجمة ١٣ مسرحية كوميدية من الأدب العالمي). ومنها في تلفزيونات دول الخليج العربية،

بعضها مسلسلات للأطفال «الشاطر حسن» (١٩٧٣) «الإبريق المكسور» (١٩٧٦) «افتح يا سمسم» (١٩٧٩ و١٩٩٠). وبعضها مسلسلات للكبار، منها «سلامتك»، «ديرتنا»، «قصص خليجية»، «الكشاف» (بين ١٩٨١ و١٩٩٢).

عمل في الصحافة المكتوبة في لبنان بين ١٩٦٧ و١٩٧١. وفي الصحافة المرئية والمسموعة في إذاعة لبنان (إعداد برامج ١٩٦٩ و١٩٧٠) وفي إذاعة الكويت (كتابة برامج ثقافية ومنوعات ومسلسلات تمثيلية بين ١٩٧٣ و١٩٩٠) وفي إذاعة «دويتشه فيله» الألمانية بين ١٩٨٩ و٢٠١٠ محررا ومعدا لبرامج أخبارية وثقافية. وفي هذه الإذاعة شغل منصب رئيس القسم العربي (١٩٩٨ ـ ٢٠٠٢). وفي تلفزيون لبنان «سهرة مع الماضي» (٥٢ حلقة وثائقية) تقديم ليلى رستم (١٩٧٠ – ١٩٧١).

ترجم من الفرنسية إلى العربية: «رحلة السيد بريشون» عن أوجين لابيش (منشورات وزارة الإعلام الكويت – سلسلة المسرح العالمي – ١٩٧٩). «عيون إلزا» (أراغون – لم يصدر بعد). ومن الألمانية «الإسكندرية سراب» ليواخيم سارتوريوس، منشورات «شرق غرب» ٢٠٠٨. ونشر في عدد من المجلات قصائد لشعراء ألمان وفرنسيين مترجمة إلى العربية.

من مؤلفاته المنشورة: «ظلال الأرز في وادي النيل»، منشورات الفارابي ٢٠٠٩. «مخطوطة تاريخ زحلة»، المطبعة البولسية ٢٠١٢. وسينشر لاحقا ٧ من المسرحيات التي كتبها.

الفهرس

أدرك ستيفان زفايغ خطر وصل الدكتاتورية إلى السلطة وأراد أن يطلق صرخة التحذير. لكنه يعرف تماما أن الدكتاتورية لا تطيق الصرخات ولا تحبّذ سوى هتافات التأييد. بل هي لا تتساهل حتى مع الصرخة الأولى، وتظهر ردة الفعل في كمّ الأفواه، يليها إستئصال الأفواه وأصحابها. لذلك لجأ المؤلف إلى التاريخ، وألبس رأيه ثوبا من الماضي البعيد، وترك للقراء أمر استكشاف التشابه الكبير بين دكتاتورية الأمس وطغيان اليوم.

كتاب زفايغ هذا به تحليل دقيق لكل الأساليب التي يلجأ إليها الطغاة للقبض على الدولة بكل تفاصيلها، ثم إحكام السيطرة عليها. وتتنوع الأساليب من الوعود البرّاقة، إلى التنصل منها، وبدء القمع بالكلام ثم بتحريض المجتمع على المعترض وصولا إلى إعدامه!.. وأشد انواع الدكتاتورية عنفا، هي تلك التي جاءت مبشـّرة بغد أفضل!

في كل مرة، في بداية دكتاتورية، تملك المعارضة وزنا ما، ما دامت النفوس الحرة لم تخرس بعد، وما دام المستقلون لم يُبْعدوا بعد.